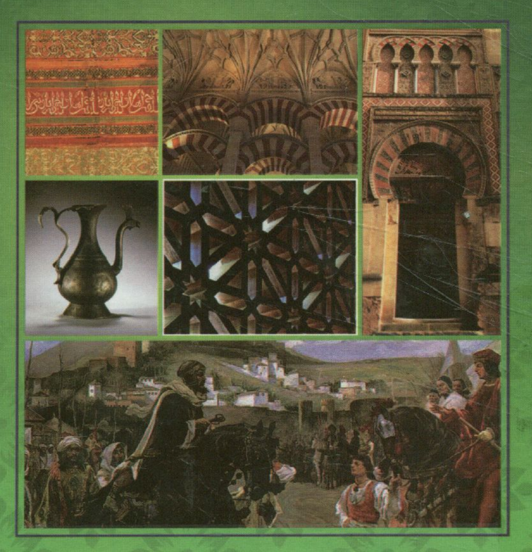


دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة إسبانيا الإسلامية

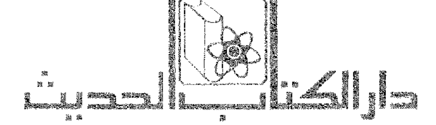
العصر الأندلسي

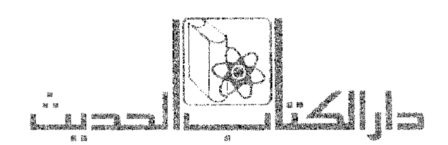
تاريخ العرب في بلاد الأندلس

دراسة في الحياة الاجتماعية لإسبانيا الإسلامية



البروفيسور/ محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية - رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات


دار الكتاب الحديث


دار الكتاب الحديث

دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة أسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسى

تاريخ العرب في بلاد الأندلس

دراسة في الحياة الاجتماعية لإسبانيا الإسلامية

البروفيسور / محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية –
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



العيدروس ، محمد حسن .
موسوعة أسبانيا الإسلامية/ محمد حسن العيدروس
. ـ ط 1. ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2011
212 ص ؛ 24سم .
تدمك 2 449 350 977 978
1- الأندلس – تاريخ – حياة اجتماعية - موسوعات .
أ- العنوان.
953.071203

رقم الإيداع 21012 /2011

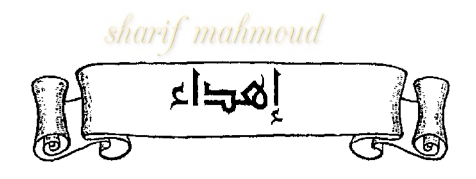


www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة]. ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]. ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١٤٠) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]. ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠) ﴾ [البقرة]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾ [النساء].



إلى كل من دافع عن أرض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الطامعين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدَّموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين أكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعًا عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضرًا ومستقبلاً.

وإهداء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هى أغلى ما فى الإنسان، وبدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعًا عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى فى عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين،،

رسالة الإسلام والسلام

مقدمة

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية. إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناة حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبي دون تميز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم. وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصبرا وشاتيلا وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخازيا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في

إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية. هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على هادي البشرية من الضلال والشرك إلى الهدى والهداية سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله والصلاة والسلام على آل بيته الطاهرين.

سادت حضارات ثم بادت، نشوء وارتقاء ثم السقوط، تلك هي الظاهرة التاريخية التي تتكرر في عالم الإنسان الذي يحاول فهمها أو يفهمها، وإن فهمها ينساها أو يتناساها، في حين أن أمة الإسلام هي أمة التوحيد الوحيدة في العالم منذ خلق البشرية حتى اليوم وإلى أن يرثها الله، ومنهجها القرآن الكريم والسنة النبوية إلى يوم الدين، من تعلق بها نجا ومن تركها سقط وضاع وانتهى. ومن هنا يرتبط تفوق الإسلام وسيادة وعالمية الأمة الإسلامية بمدى تمسكها وتعلقها بهذا المنهج وهذه الرسالة البشرية التي أنزلها الله على الأمة الإسلامية عن طريق رسوله محمد ﷺ. يرتبط تكالب الأمم المشركة بالله وأعداء الإسلام والمسلمين من الصليبيين المسيحيين بابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام وتخليهم عن رسالة الجهاد والحفاظ على رسالة الإسلام وعقيدته وقيمه الإنسانية العالمية الخالدة وما مدى تطبيقه والحفاظ عليه. ومن هنا كان تفوق الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وعندما ابتعد المسلمون عنها، ابتعد الله عنهم فسقطوا وانتهى ملكهم، وعندما طلب المسلمون العون والمساعدة من المشركين المسيحيين في إسبانيا ضد إخوانهم تركهم الله. وهذا ما أدى إلى ارتفاع قوة المسيحيين الصليبية بقيادة بابا الفاتيكان الذي أعلن الحرب الصليبية المسيحية على مسلمي إسبانيا قبل المشرق الإسلامي في سواحل الشام، وبذلك توافد آلاف المسيحيين من مختلف أنحاء أوروبا لقتل المسلمين في إسبانيا مما

أدى إلى سقوط آخر معاقلها في غرناطة ولم ينتهِ إلى هذه الحدود وإنما امتد إلى احتلال المغرب العربي حتى ليبيا.

هنا أرسل الله عباده المجاهدين من الأتراك العثمانيين الذين قاموا بطرد الصليبيين المسيحيين والحفاظ على المغرب العربي والمساعدة في إجلاء المسلمين من إسبانيا. ولا ننسى ما قام به المسيحيون من التطهير العرقي والمذابح الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا وحرقهم وهم أحياء في احتفالات الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيل حتى قيام الأوروبيين المسيحيين الصرب بجرائم الإبادة البشرية والتطهير العرقي ضد المسلمين في البوسنة، أمام أنظار أوروبا والغرب المسيحي الذي يدعي الحضارة وحرية الإنسان، بل قام الجيش الهولندي من قوات حفظ السلام بمساعدة الصرب في جرائمهم.

وفي الختام آخر دعوانا أن الحمد لله، وأن الأرض يرثها لعباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطاهرين،،

البروفيسور الدكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية

المجتمع في إسبانيا الإسلامية

من المناسب التعريف أولاً بمصطلح «الأندلس» الوارد في العنوان السابق وبيان حدود استخدامه. يطلق المؤرخون المسيحيون لفظ «هسبانيا» (Hispania) أو «سبانيا» (Spania) ويريدون به مجموع أراضي شبه جزيرة أيبيريا – سواء الخاضع منها للسيطرة الإسلامية أو الأرض التي حررتها المسيحية قرنًا بعد آخر. أما المؤرخون العرب – باستثناء حالات نادرة – فيطلقون تعبير «بلاد الأندلس» على الأراضي الإسبانية الخاضعة للإسلام. ومن المعروف أن الرقعة الجغرافية التي يطلق عليها هذا التعبير (الأندلس) كانت تتآكل بنفس المقدار الذي تتقدم به «حرب الاسترداد» المسيحية إلى أن أصبح يعني في القرن الرابع عشر والخامس عشر مملكة غرناطة الصغيرة فحسب. وعلى خلاف هذا فمن النادر أن يقوم المؤرخون والجغرافيون المسلمون بإطلاق لفظ «إشبانيا» (Ish-baniya) على إسبانيا المسلمة، وإذا فعلوا هذا فيما يريدون به الأراضي التي تمثلها المناطق الآتية: البرتغال، قشتالة، نبرة، رغون. وإلى يومنا هذا لا زلنا ننطلق من التكهنات للبحث عن أصل مصطلح «الأندلس». فالبعض يربطه باللفظ غير المؤكد «فاندليشيا» (Vandalicia)، وهو الاسم الذي أطلقه «لوندال» (Vandalos) على إقليم «لابيتيكا» (La Betica) عند اجتيازهم السريع له قبل استقرارهم النهائي في المغرب العربي. على أية حال، فمن المؤكد أن الاصطلاح يعود استخدامه لبداية الفتح العربي ويشهد بهذا دينار مزدوج اللغة يرجع تاريخه لعام 716 م، حيث نقش على أحد وجهيه باللاتينية: «ضرب في إسبانيا»، وعلى الوجه الآخر نقش باللغة العربية «ضرب في الأندلس». ومن جهة أخرى، فإن لفظ «الأندلس» لم يختف بانتهاء السيطرة الإسلامية بل

ظل باقيًا حتى الآن في إسبانيا الحديثة وأصبح يطلق - بهذا الشكل: أندلوثية (Andalucia) - على قسمها الجنوبي الذي يضم المحافظات التالية: غرناطة، مالقة، قرطبة، إشبيلية، ألمرية، جيان، ولبة، قادس. ما يهمنا التأكيد عليه في هذا المقام هو أننا سنستخدم لفظي «الأندلس»، «الأندلسيين» كما فهمها واستخدمها المؤرخون العرب الذين يطلقون مسمى «الأندلس» على الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين فقط وليس على الأرض المستردة منهم؛ ويطلقون لفظ «الأندلسيين» ويريدون به المسلمين الذين يعيشون في أي بقعة من أرض إسبانيا سواء كانت في الغرب أو «إكستريمادورا» (Extremadura) أو «رغون» السفلى (Aragon) أو «ليبانتي» (Levante). فاتحي الأندلس كانوا ينتمون إلى فريقين رئيسيين: العرب من بلديين وشاميين ومن قيسية ويمنية، ثم البربر وهم بدورهم ينتمون إلى بطنين كبيرين: بتر وبرانس، ومنهما تتفرع قبائل كثيرة. وكان البربر بغير شك أكثر عدداً من العرب، ولكنهم سرعان ما تعربوا لغة وثقافة. ويلحق بالعرب فريق كبير هم المدعوون بالموالي، وكثير من هؤلاء كانوا من عناصر غير عربية، غير أنهم يلحقون بالعرب جريًا على قاعدة سائدة وهي أن «مولى القوم منهم»، فرابطة الولاء تكاد تقارب رابطة النسب، وسنرى كيف برز على مسرح سياسة الأندلس عدد كبير ممن ينتمون إلى أسر الموالي فولوا أعلى مناصب الدولة، وكانت غالبية هؤلاء من موالي بني أمية فكان ولاؤهم وعصبيتهم للأمويين. ويبقى أهل البلاد وقد رأينا أن المجتمع القوطي كان منقسمًا إلى قسمين: الحكام القوطيين والرعايا من أهل البلاد، وأنه كان مجتمعًا تسوده الفوارق الحادة بين الطبقات المتمايزة. فلما دخل المسلمون بمختلف العناصر التي كان يتألف منها الفاتحون امتزجوا بأهل البلاد جميعًا وتزاوجوا معهم. ولنذكر أن هؤلاء الفاتحين لم يتقدموا إلى البلاد أسرًا، وإنما رجالاً فقط، فكان عليهم أن يتخذوا أزواجًا لهم من نساء البلاد.

وهكذا لا نلبث أن نرى في الأجيال التالية مجتمعًا هو خليط من كل تلك العناصر، وأحسن العرب معاملة أهل البلاد فلم يثقلوهم بالضرائب كما أطلقوا لهم الحرية الدينية فلم يكرهوا أحدًا على اعتناق الإسلام، وأدت هذه السياسة المتسامحة إلى مزيد من الامتزاج بينهم وبين أهل البلاد، وإلى أن يقبل الكثيرون منهم على اعتناق الإسلام وسمي هؤلاء المسلمون الجدد بالأسالمة أو المسالمة وسمي أبناؤهم بالمولدين، وبقيت طائفة كبيرة من أهل البلاد محافظة على دينهم المسيحي، ولكنهم تأثروا بمساكنيهم من العرب في عاداتهم وأوضاعهم الاجتماعية واتخذوا العربية لغة لهم ولهذا فقد سموا بالمستعربين (Mozarabes) لكن عدد هؤلاء كان يتناقص بشكل مطرد كلما زاد الإقبال على اعتناق الإسلام. تكون المجتمع الأندلسي من مجموعة من العناصر المتباينة انصهرت جميعها في بوتقة واحدة وكونت المجتمع الأندلسي وهذه العناصر هي:

(1) العرب: وهم مجموعتان: المضرية، واليمنية، وقد استمر الصراع بينهما في الأندلس مثلما كان في المشرق، وتتفرع المجموعة المضرية إلى أربعة وعشرين فرعًا انتشرت في بلاد الأندلس المختلفة. أما المجموعة اليمنية فقد وصل فروعها إلى واحد وعشرين فرعًا تركز وجودها في الجنوب الشرقي من الأندلس، وكان هؤلاء العرب أقلية بين عناصر السكان الأخرى لأسباب عديدة، ويرى بعض الباحثين أن عدد العرب الذين أتوا إلى الأندلس من شمال إفريقية والشام وصل إلى ما يقرب من (30 ألفًا) ارتفع هذا الرقم ليصبح نحو (300 ألف) بعد سنوات.

(2) البربر: وهؤلاء كونوا السواد الأعظم من الجيش الفاتح وفاقت أعدادهم أعداد العرب، وينتمي هؤلاء إلى زناتة ومكناسة وصنهاجة ومصمودة

وهوازة ومديونـة وكتامـة، ومغيلـة ونفزة وهؤلاء تركز وجـودهم في المناطق الجبلـية خاصـة في الشمـال الغربي ووسط الأندلس وأراضي السـهلة ووادي الحجـارة وإشبيليـة وما حولهـا لتشابه ظـروفها مع ظروف الحـياة والبيـئة في مواطنهم الأصلية، واشتغلوا بالزراعة وتـربية الماشية ويسرت لهم مواطنهم في مناطق الحدود وغيرها من المناطق الجبلية القيام بالثورات بعد ذلك.

(3) المسالمة والمولدون: أما المسالمة أو الأسالمة أو أسـالمة أهل الذمة، فهم الذين دخلوا في عـقيدة الإسـلام من النصارى. أما المولـدون فهم في أرجح الأقوال أبناء المسالمة أو هم نتـاج الزواج المشترك بين العرب والبـربر من ناحية وبين الإسبان من ناحـية أخرى، ومن الطبيعي أن يـكون عدد هؤلاء قليلاً في أول الأمر، ثم يتنامى نتيـجة كثرة اعتناق أهل البلاد للإسـلام وانتشار ظاهرة الزواج المشترك بين العرب أو البربر وبين من أسلمـوا حديثًا، وقد تركز وجود هذا العنصر في الحواضـر والمدن الكبرى من شبه الجـزيرة. وكانوا مع العرب هم العنصر الغالب فيها، وكـان هذا سببًا في حدوث نزاع بين هاتين الطائفتين في المستقبل.

(4) الموالي: مجمـوعة من عناصر مختلفـة تجمع بينها رابطة الولاء بين المولى وسيده أو التـابع ومتبوعـه، ويرجع هؤلاء إلى أصول مختلفـة بعضهم رافق الشامـيين الذين دخلوا الأندلس وعرفـوا لذلك باسم موالي الشـاميين، وبعضـهم كان من البربر الذين أسلمـوا ووافقوا سـادتهم في دخول الأندلس فسموا باسم الموالي البلديين، وبعضهم يرجع لأصـول محلية إسبانية، وموالي الاصطناع أو النعـمة الذيـن أنعم عليهم الأمـويون بالولاء اعـتزازًا وتقـديرًا، بالإضافة إلى الرقيق المشترى ممن أنعم عليه أسياده بالعتق، وتركز وجود هؤلاء في قرطبـة خاصة وفي كورة البـيرة (غرناطة) وفي جهـات متفرقـة من أنحاء

الأندلس، وقد شدوا من أزر العرب أولاً ثم انقلبوا عليهم وظهر من بينهم قادة من أمثال بني عبدة وبني شهيد وبني مغيث وبني جهور.

(5) الصقالبة: كان يقصد بهذه الكلمة أولاً الشعوب السلافية، ثم أصبح العرب يطلقونها على الأرقاء الذين يجلبون من الأمم المسيحية ويستخدمون في القصر أو الجيش، عن طريق الشراء بواسطة تجار اليهود أو عن طريق الحملات العسكرية، وأول من استجلب الصقالبة «عبد الرحمن بن معاوية» ثم استكثر الأمراء منهم بعد ذلك حتى كونوا جماعة كان لها دور عظيم في أحداث الأندلس، وصلت أعدادهم إلى ثمانية عشر ألفًا في قرطبة وحدها، وبلغوا أقصى نفوذًا لهم في عهد «عبد الرحمن الناصر». هذه هي العناصر الإسلامية، وإلى جانبها وجد في المجتمع الأندلسي عنصران من غير المسلمين أو من أهل الذمة هما:

(1) النصارى: وشكل هؤلاء عددًا كبيرًا استوطن أعداد كبيرة منهم مدنًا وقرى كثيرة في الأندلس واستقر في «طليطلة» و «برشلونة» و «غرناطة» و «ماردة» وتمتعوا جميعًا بالرعاية ومنحتهم الدولة الحرية الكاملة دينية واجتماعية حتى أنشئ لهم منصب لإدارة شئونهم عرف صاحبه بالقومس. ووصل بعضهم إلى المناصب العليا في الدولة، وتأثر هؤلاء بدورهم بثقافة العرب ولغتهم وأسلوب حياتهم وأصبحوا لهذا يسمون بالمستعربين.

(2) اليهود: استوطن عدد كبير منهم في قرطبة ولهم فيها باب يعرف باسمهم، وسكن عدد كبير آخر في «إشبيلية» ولهم مشاركة ملحوظة في فتح الأندلس وفي أحداثها السياسية وفي إدارة المدن المفتوحة، كما استوطنت جماعة كبيرة منهم في «طليلطة» وفي «برشلونة» وفي «طركونة»، وقد مارس جميعهم شعائرهم الدينية في بيعهم بكل حرية، وكانت علاقاتهم بالمسلمين

طيبة فـاندمجوا في المجتمع الإسـلامي وتعلموا العربية وتبنوا تقـاليد المسلمين وعمل بعضهم في بلاط الأمويين وتولوا مناصب مـهمة في الدولة الإسلامية، واحتل بعضهم الطبقات العليا في المجتمع الإسباني الإسلامي[1].

العرب:

لم يكن تعـداد العـرب بالوفـرة التي يسـتطيـعـون بهـا شـغل أراضي إمبراطوريتهم الشاسعة التي فتحوها، ومن ثم فقد تصرفوا بحنكة عندما زودوا كل منطقة بالكوادر السياسية اللازمـة. ولا تتجلى براعتهم فقط في جعل كل المناطق التي دخلوها تقبل عـلى اعتناق دينهم بل، أيضًا، في فرض التـعريب الاجتماعـي على الكتل السكانية الخاضعة لسيـطرتهم. ويغلب الظن بأن نسبة العرب الخلص في إسبانيا القرن الثامن كـانت ضئيلة ومن أبرز ممثليها الأنصار والتابعون. وإذا كانت هذه النسـبة قد تزايدت فيما بعـد فالفضل يرجع لعودة حكم بني أمية لتلك الأراضي البعيدة من الإمبراطورية العربية وللمكانة الرفيعة التي احتلتها هذه المحـافظة الإسلامية ذات الطبيعـة الخلابة. وكما لاحظنا من قبل، فـإن عرب إسـبانيـا الخلص القليلي العدد (مـقارنة بالبـربر أو المسلمين الجدد) عندمـا نقلوا معهم في القـرن الثامن إلى شبـه جزيرة أيبيـريا نزاعاتهم الطبقيـة وخصوماتهم العـشائرية (بين القيسـيين واليمنيين) فإنهم لم يسـمحوا بذلك لإخوانهم الجدد في الدين الاقتراب من مجـال السياسة. لقد أصبح في مـقدورنا الآن - بفـضل عناية المؤرخين العـرب بإبراز هذه المسألة، وبفـضل مدونة «جمهرة أنساب العرب» التي كتبها ابن حزم الأندلسي في القرن العاشر - التعرف بمزيد من الدقة على المجموعات العربية الرئيسية التي دخلت إسبانيا الإسلامية بل وتحديد الأماكن التي اسـتقرت بها على الخريطة. وفي هذا المقام

---

(1) عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 83.

يجب تكرار ما أشرنا إليه سـابقًا قائلين بأن هؤلاء العرب «الداخلين»، بالرغم من شدة اعتـزازهم بأصولهم إلا أنهم لم يستطيعوا المحـافظة طويلاً على نقاء الدم والسلالة اللتين قدما بهما إلى إسبانيا نـتيجة لشيوع مصاهرتهم للمولدين ولكثرة حـالات التبني واتخـاذ الموالي. وأقدم خليـة عربية عـرفتهـا إسبـانيا الإسلامية تتمثل في القيسـيين والكلبيين الذين قدموا مع موسى بن نصير إلى شبه جزيرة أيبـيريا. وبعدها بقليل (في 713 م - 94 هـ) تبعتـهم عدة مئات بصحبة الحاكم: الحر بن عبد الرحـمن الثقفي. ونعتقد أن هجرات العرب إلى الأندلس قد استمرت بعد ذلك حـتى منتصف القرن الثامن، لكننا لا نستطيع تحديد أحجامها ولا أوقاتها لعـدم ورود أخبار عنها، والخبر الوحيد الموثوق به عن هجـرات هذه الفترة السـابقة لولاية عـبد الرحـمن الأول يخص «الجند» السـوريين الذين قدمـوا مع بلج القشـيري، وقـد أشرنا من قـبل إلى دورهم العسكري وإلى استقرارهم في «كور» جنوب وشرق إسبانيا الإسلامية. وتجدر الإشـارة إلى أن كـتب التـاريخ تطلق اسم «البلديين» عـلى الداخلين الأوائل وأحفادهم (من قـدموا مع موسى بن نصير ومع الحـر)، بينما تطلق على من جاءوا بصبحة بلج «الشاميين» أو «السوريين». ولقد استقر العرب - بوجه عام - في المدن الواقـعة في السـهـول الخصـبـة. وهذا ينسحب بـالتحـديد على الأرستقراطية القرشية وعلى أرستـقراطية أحفاد الأنصار. وفيما يخص المناطق التي استقر بها العرب في الأندلس، نجد أن ممثلي العشـيرة العدنانية/ القيسية للفهريين قد تمركزوا فيـما يلي: الكنانيون حـول طلـيلطة؛ الهذليون في إقليم «أوربولة» الحجـازيون والقيسـيون في منطقتي إشـبيلية وبلنسـية. أما بالنسـبة للعشيرة المناوئة (الخثعميون، اليمنيون) فقد كان الأزديون والحميريون (مواطنو حضرموت، جنوب شبه جزيرة العرب) موزعين بين قرطبة، بطليوس (-BAD AJOZ)، إشبيلية، البيرة، ومرسية. وعلى هذا، فقد استأثرت الطلائع الغربية

و «جند» بلج السوريون بنصيب الأسد من الأراضي التي فتحها المسلمون في القرن الثامن. ولا نعرف سوى القليل عن كيفية استفادتهم من طبيعة إسبانيا الإسلامية الغنية. وبما أننا سنعود لهذا الموضوع بالتفصيل سنقتصر هنا على الإشارة إلى أنهم تبنوا - على الأرجح - نظام المزارعة أو المشاركة في المواشي الذي كان معمولاً به في أفريقيا الرومانية والمستمد في الغالب من نظام بربري قديم. اختار العرب الإقامة في المدن للاشتغال بالوظائف أو بشئون الحكم، أو الإقامة في بيوتات ريفية مريحة ومسلية كسادة إقطاعيين، وعهدوا بفلاحة ضياعهم إلى مولدين من العوام أو فلاحين مسيحيين مقابل إيجار معين أو المشاركة في المحاصيل التي تغلها الأرض. ومن جهة أخرى، فقد ظهرت سريعًا - وخاصة في جنوب غرب إسبانيا - الأبعاديات الكبيرة التي تمتلكها بعض العائلات العربية، ومن أهمها العائلات المقيمة بمقاطعة إشبيلية اتخذت الخصومات بين الأحزاب العربية في الأندلس خلال فترة الولاة شكلاً مزعجًا حتى أنه لزم قرن من الزمان لإخماد شعلة هذه النزاعات التي توارثها العرب ابنًا عن أب. ولقد تنبه دوزي إلى خطورة هذا الأمر، ورأى أن يتبع ذلك النزاع في جزيرة العرب منذ فترة ما قبل الإسلام، وأن يسير في أثره خارج جزيرة العرب مع الفتوح الإسلامية إلى المغرب وإسبانيا. والحقيقة أن هذا الصراع شغل كل تاريخ الأمويين في المشرق. فخلال القرن الذي عاشه مثلهم في الشام كان هناك نزاع مستمر بين العصبيتين العربيتين الكبيرتين من القيسية والكلبية. هذا النزاع - كما أشرنا - لم يكن جديداً فهو يعود إلى عهد الراشدين وعهد النبوة وإلى ما قبل الهجرة. وعصبية القيسيين أبناء قيس عيلان بن مضر (وإلى هذا الأخير ينتسبون فيقال مضرية - أي من فرع مضر) تتفرع نفسها إلى قبائل وجماعات (ذبيان وغطفان وباهلة) وعلى عهد النبي ﷺ كان القيسيون ينتقلون في شمال ووسط جزيرة العرب وعلى شواطئ

البحر الأحمر حتى تخوم العراق. وجاءت الفتوحات العربية واشتركوا فيها اشتراكًا فعالاً، وتمكنوا من الهجرة من بلادهم البخيلة في جزيرة العرب فأقام أغلبهم بالشمال في الشام وغربي العراق. وكان منهم أغلب سكان مدينتي العراق الكبيرتين: الكوفة والبصرة. وعندما نقل مركز الخلافة إلى الشام حيث كانوا قد استقروا ازدادت أهمية الدور السياسي الذي كان عليهم أن يقوموا به. أما عن الكلبيين فإنهم قحطانية (من فرع قضاعة) ويعتبرون أنفسهم يمنية، رغم طول المدة التي انقضت منذ خروجهم من اليمن ولم تكن العداوة والتقليدية بين هذين الفريقين تسمح بقيام أي اتفاق بينهما. وهناك من يحاول تفسير روح العداء بين هذه الجماعات ليس عن طريق الاختلافات الجنسية، ولكن عن طريق النفور العدائي شبه الغريزي الذي يكنه سكان المناطق القحلة بالنسبة لسكان الأراضي الخصبة (دوزي يقول - سكان المدينة يمنية زراع بينما سكان مكة معدية تجار وهم أعداء بالطبيعة) وهناك عامل متأخر ولكنه مهم بالنسبة لهذا العداء، وذلك أن الإسلام احتفظ بمركز ممتاز في أول أمره للقيسية - وكان ذلك طبيعيًا - بينما ترك الكلبيين في مركز ثانوي وعلى عهد خلفاء الأمويين بالشام ازداد لهيب هذا الصراع بين العصبيتين بفضل سياسة التحيز التي انتهجها الخلفاء بعد فترة الحياد والسياسة الثابتة التي انتهجها معاوية. ففي بعض الأحيان اعتمد الخلفاء على القيسية وفي بعضها الآخر تحيزوا للكلبية، ولم تكن المصلحة العامة هي التي على هذه السياسة بل كانت تمليها الأغراض الشخصية والأهواء الفردية. كما كانت الروابط العائلية وعلاقات المصاهرة مع أي من الفريقين هي التي تدفع الخلفاء إلى انتهاج سياسة معينة بالنسبة إلى كل من الفريقين. فمع أن الكلبية اليمانية والقيسية الحجازية كانوا يؤيدون معاوية جميعًا وأنه حاول إقامة التوازن بين الفريقين إلا أن ذلك لم يمنع الاصطدام بينهما، كما أن معاوية نفسه كان يميل بعض الشيء إلى الكلبيين اليمانية الذين

صاهرهم، فأم ابنه يزيد كانت منهم. وترتب على ذلك أن يزيداً انتهج سياسة محاباة الكلبيين، ولهذا السبب حاولت القيسية الحجازية القضاء على سلطان خليفتهم معاوية الثاني ثم مروان الأول، وانضموا إلى جانب منافسهم عبد الله ابن الزبير، وفعلاً كانت منهم أغلبية جيشه الذي التقى 65 هـ/ 184 م في مرج راهط قريبًا من دمشق بقوات مروان المؤلفة من الكلبية اليمانية. وانهزم القيسية في هذه الوقعة هزيمة نكراء كانت سبب اشتعال لهيب البغضاء القديمة في قلوبهم بالنسبة للكلبية اليمانية وترتب على ذلك أن تكررت الاصطدامات بين الفريقين في ظروف وأماكن مختلفة، وكان النصر والهزيمة متبادلين بينهما حسب الأحوال. بعد ذلك عمل عبد الملك على تهدئة الحال وذلك بتقريب القيسية منه، وبمحاباتهم على أمل الوصول إلى اتفاق بين الجماعتين. وغالت القيسية في دورها السياسي حتى قامت اليمنية برد فعل عنيف وذلك عندما اشتركوا في مقتل الوليد الثاني واختاروا لخلافته يزيد الثالث بعد ذلك اعتمد مروان الثاني (بن محمد) آخر الخلفاء الأمويين على القيسية وساروا على هذه السياسة حتى قضي عليه.

أما عن كيفية انتقال هذه الخصومات العصبية إلى الأندلس فإنها دخلت أول الأمر مع جند موسى بن نصير 93 هـ/ 712 م الذي كان يحوي كثيراً من المقاتلة العرب من قيسية ويمنية على السواء (كثير من أهل المدينة والتابعين، كما رأينا، الذين كانوا قد انضموا إلى جيش المغرب بعد تخريب المدينة أيام ابن الزبير). هكذا قام أصحاب موسى والجماعات العربية العديدة التي لحقت بالأراضي المفتوحة حديثًا باشتعال نار الخصام التقليدي بينهما دون النظر إلى نتائج هذا العداء السياسي. كما لن تتأخر الأحزاب العربية نفسها في الاصطدام في نفس البلاد بالعناصر الأخرى من الفاتحين البربر. هكذا اتصفت فترة الولاة بالاضطراب السياسي والصراع الدامي بين الجماعات المختلفة

وستستمر هذه الأحوال السيئة خلال أوائل الإمارة الأموية بقرطبة (وسيستلزم الأمر كثيراً من الجهد والكفاءة الشخصية لإقرار الأحوال[1].

العرب العارية - البربر - الإمازيغ

ندين أيضًا في معرفتنا لأصول البربر وأماكن استقرارهم في إسبانيا للمعلومات المسهبة والمحددة التي تركها لنا ابن حزم. عرفنا من قبل الدور الهام الذي اضطلع به البربر في فتح إسبانيا، ونذكر الآن أن معظمهم قد ترك شمال شبه الجزيرة - دون نية في الرجوع ثانية إليها - عائداً إلى المغرب إبان فشل حركة تمردهم المتزامنة مع فترة القحط والجوع التي بدأت عام 750 م/ 132 هـ. الذين بقوا منهم في الأندلس وأصبحت لهم ذريات هم الذين صاهروا المولدين أو تزوجوا - في حالات نادرة - من العائلات العربية. ويغلب الظن بأن هجرات البربر - سواء كانت اختيارية أو تلبية لالتزامات معينة - من شمال أفريقيا إلى إسبانيا قد استمرت على فترات متباعدة منذ ذلك الحين حتى عصر الخلافة القرطبية على الأقل.

إضافة إلى ما تقدم. فنحن نعرف أن بعض أمراء بني أمية كانوا يضمون إلى الميليشيات التابعة لهم في شمال أفريقيا مرتزقة من البربر. ومع هذا، فعلينا الانتظار حتى النصف الثاني من القرن العاشر لكي نسجل مجيء جماعات غفيرة من البربر للانخراط - كجنود نظاميين - في صفوف الجيش الأموي بناء على طلب ملوك قرطبة والمنصور بن أبي عامر من بعدهم. وستشهد الأندلس - نتيجة لقدوم مجموعة كبيرة من الزيديين في ذلك العصر المتأخر - تجدد الصراع بين العرب العارية البربر الزناتيين والبربر الصنهاجيين. ويذكر المؤرخ العربي ابن خلدون أن التجمعات البربرية الرئيسية التي تكاثرت

---

(1) سعد عبد الحميد، المرجع السابق، ص 126.

في إسبانيـا منذ عهد متـقدم كانت أربعة: أهالي «مـتغرة» (Matgara)؛ أهالي «مديونة» (Madyuna)؛ أهالي «مكناسة»؛ أهالـي «هوارة». ومن بين الأقاليم التي كـانت تسكنها هذه الجـماعـات في المغرب خـلال القرن الثـامن نخص بالذكـر: مناطق «الريف» الجبليـة، ومناطق «جيـبلة» (Chebala) القريـبة من ساحل البحـر المتوسط، من تلك المناطق جند طارق بن زياد العسـاكر اللازمة لحملته على إسبـانيا. أما ابن حزم فقد أضاف إلى الـقبائل الأربع التي ذكرها ابن خلدون قبـائل أخرى، مثل «مـغيلة» (Magila)، «ملزوزة» (Malazuza)، «نفـزة» (Nafza)، «أوروبة» (Awraba)، «مـصـمـودة» (Masmuda) الأطلس الكبير، و«كتامة». ولقـد استقرت بربر «بنو رزين» في إقليم «البرازين» (وهو تحـريف لاسم القبـيلة المذكـورة)، وبربر «ولهسـة» (Walhasa) في مـقاطعـة «رندة»، و«بنو غـزلون» في «شاطبـة»، و«بنو طريف» في «أشـبونة» ومـدينة سالم. لكن مـجموعات الهـجرة الأكثر عـدداً تنتسب لقبـائل «زناتة» المغرب وإفـريقيـة، ومنهـا «بنو الخـروبي» (Banu - L - Jarrubi) و«بنو ليث» (Banu Layth)، «بنو بيرزال» (Banu Birzal)، «بنو ضـمار» (Banu Dammar)، «بنو خزر» (Banu Ja - Zar). ومن المحتـمل أن هذه القبائل المنتسـبة لزناتة لم تأت للاستـقرار في إسبـانيا إلا في النصف الثـاني من القرن العـاشر بعد انتـهاج الخليفـة عبد الرحمن الثـالث، والحكام من بعده، سيـاسة مماثلة للزناتيين في المغرب العربي واستوطن البربر - دون استـثناء تقريبًا - المناطق الجبلية المنتشرة في سائر شبه جزيرة أيبيريا. والأسباب التي دعتهم للاستقرار في تلك المناطق كثـيرة ومتنوعـة: أولها، لأن العـرب احتفظوا لأنفـسهم بالأقاليـم الغنية في السهول وبالأراضي التي تعتمد على الـري في الغوطات الأندلسية ولم يتركوا لهم، بالتالي، فرصة للاختيار. ومن جهـة ثانية، فالغالبية العظمى من البربر كانت تقطن الأقاليم الجبلية قبل قدومهم إلى إسـبانيا الإسلامية، ومن ثم فقد

كان بإمكانهم الاستقرار دون صعوبة في قفار الهضبة أو على سفوح الجبال وممارسة نشاطهم القديم في تربية المواشي وزراعة الأشجار. والسبب الأخير يكمن في أنهم حينما قبلوا العيش في أقاليم صعبة المنال كانوا يدركون مقدمًا أن الغرب سيحترمون استقلاليتهم لما خبروه من براعتهم في حرب العصابات. وبالفعل، فقد تجنب البربر بسكناهم المناطق المرتفعة المراقبة اللصيقة من جانب أولئك الذين تلقوا منهم يد العون لاحتلال المحافظة الإسلامية الغنية. ومنذ ذلك الحين ستواجه الإمارة القرطبية سيلاً من التمردات البربرية المحدودة التي سيتكفل أمراء قرطبة بإخمادها دون مشاكل في أغلب الأحيان. على أية حال، يمكن القول بأن «حرب الاسترداد» عندما اندلعت في الشمال وتقدمت نحو الجنوب (من سلسلة جبال «كنتبريا» حتى وادي الدويرة) أجبرت مجموعات كبيرة من الفلاحين البربر على الانتشار في بقية أنحاء شبه الجزيرة، وخاصة في غرب الأندلس وفي مناطق «إكستريمادورا» الجبلية التي تمتد حتى وادي الرملة (Guadarrama). وفيما يسمى حاليًا بأندلوثية، استوطن كثير منهم المناطق الجبلية الآتية: جبال «قرمونة» و«شذونة»، جبال «رندة» و«مالقة»، ومنحدرات جبال الثلج (Sierra Nevada). وبهذا الشكل توزعت أراضي إسبانيا الإسلامية بعد سنوات قليلة من فتحها على العرب الخلص والبربر والمسلمين الجدد. أما المدن فقد كان يسكنها - بالإضافة إلى السادة العرب والدهماء من المولدين - مسيحيون ويهود إسبان، مع نفر قليل من البربر في بعض الأحيان. ومع أن هذا الخليط البشري قد أضفى على إسبانيا المسلمة طابعًا خاصًا ومميزًا إلا أنه ظل لفترة طويلة عقبة كؤودا في طريق سلامتها ووحدتها. وستتعرف في الفصول التالية على مدى تحكم خطر تنوع الأجناس في دفة التاريخ السياسي لإمارة قرطبة الأموية، وعلى تهديده لمصير إسبانيا المسلمة عندما تزامن مع المعاول الأولى لحرب الاسترداد التي استطاع

المسلمون إسكاتها في القرن العاشر لكنها نشطت من عقالها ثانية في مطلع القرن الحادي عشر ومزقت الأندلس إلى أشلاء لم يلملمها إلا تدخل المرابطين. البربر هم سكان المغرب العربي التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي. وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامي لها بحسب القرب أو البعد عن مقر الخلافة في الشرق وهي: المغرب الأدنى وقاعدته القيروان، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان. والمغرب الأقصى وقاعدته فاس. وكان العرب يستعملون لفظ إفريقية ليشمل المغرب الأدنى والأوسط. وقد اختلف المؤرخون والكتاب في تسمية البربر بهذا الاسم. فقد ذكر ابن خلدون أن أحد ملوك التبابعة في اليمن ويدعى أفريقش بن قيش بن صيفي غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأمصار فسميت باسمه، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال: ما بربرتكم فسموا بالبربر. وذكر الفيروز بادي: أن البربرة هي كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر. وذكر البعض أنهم ينسبون إلى مهاجر عربي من حمير يسمى (بر بن قيس) وأنه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسماها بربرة وسماهم البربر وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال: إن تسميةَ البربر بهذا الاسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة. إن هذا اللفظ كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (بارباروي) ثم جاء الرومان فأطلقوا هذا الاسم على سكان المغرب العربي Barbari (برباري) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم، وعرّبه المسلمون إلى بربر أو برابر، كما أطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية اسم مور Maures وما لبث هذا الاسم أن عمم سائر البربر، أو أن هذا الاسم مشتق من سكان بربرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان المغرب العربي. وقد استعمل الفرنجة هذه

الكلمة وقصدوا بها معنى آخر أشار إليه الأب لويس معلوف بقوله «وفي المجاز هو المتوش والهمجي». والحقيقة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيراً مستهجناً وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصامدة والزوارة وصنهاجة وكتامة. وبعض المؤرخين والكتاب العرب يرجعون نسب البربر إلى أصول عربية. فيذكر الفيروزبادي: أن البربر عرب أصلاً وهم من ولد أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقش بن قيس بن صيفي لها ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروي عن البكري: أنه كان لمضر ولدان هما قيس ودهمان. وأن البربر ينتسبون إلى قيس بن عيلان من مضر ولذلك يفتخر أحد شعراء البربر بقوله:

أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول

إن قيساً قيس عيلان هم معدن الحق على الخير دلل

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب: أن لواته من حمير، وهوارة من كندة، وزناتة من التبابعة أو العمالقة، وأن زواوة ومكلانة من حمير أيضاً. كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأي فيقول: إن عدداً من سكان شبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى المغرب العربي عن طريق الساحل الغربي من الجزيرة، وأنه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرون ساميون حوالي 3500 ق. م واستقروا هناك. حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر العرب العاربة وأنهم سكنوا هذه البلاد منذ القدم. وأن البتر هم جدد نسبيًا على بلاد المغرب. ونزلوا ببرقة أولاً، ثم انتشروا غرباً، وأنهم جنس عربي الحضارمة من حضرموت أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربري الذي استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب. يرجع أصول البربر أو الأمازيغ إلى

عرب العاربة من اليمن وهم هاجروا إلى المغرب العربي وعبروا مصر وليبيا - هذه الهجرة مثل هجرة الهكسوس وغيرهم من عرب اليمن. فيبدو أن العرب العاربة قد عرفوا الطريق إلى المغرب العربي منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون: أن ملوك اليمن من التبابعة قد غزوا المغرب العربي عدة مرات فاستكان لغلبهم السكان، ودانوا بدينهم وإن كان في هذا شيء من التجوز والتعميم. ومن المتعارف عليه أن البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين أو جذمين عظيمين هما البتر والبرانس، وربما كانوا من أصل واحد كما ذهب ابن خلدون.

أو أنهما جدين بهذين الاسمين، أو نسبة لنوع الحياة وأسلوب المعيشة والطابع الحضاري لكل منهما. فالبرانس: هم الذين يعيشون في السواحل والريف ولهم الحواضر، والبتر: هم الذين يعيشون في طور البداوة ويتخذون بيوتهم من الشعر، وينتجعون المراعي بين الجبال والوديان والصحاري. إن العرب لما دخلوا بلاد المغرب، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين فقسموا قبائل البربر العرب العاربة إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر، وقسم نسبوه إلى برنس ابن بر فسموا بالبرانس. وقد فسر البعض هذين الاسمين بأنهما نسبة إلى الزي الذي يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس - وهو الزي الذي لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن - والبتر هم الذين لا يلبسونه. والحقيقة أن هذا التفسير اللغوي لا يقوم على أساس متين فليس من الضروري على كل برانسي أن يكون مرتديًا للبرنس كما أنه ليس بلازم أن يكون البتري عاريًا منه. أما تقسيم البربر العرب العاربة بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به أيضًا على إطلاقه فقبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر العرب العاربة حضارة وعمرانًا ولذلك جعلها فرعًا مستقلاً

عن سائر البربر العرب العـاربة، كما أن البرانس المتحضريـن كانوا قلة بالنسبة للبتر البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان. وعلى أي الأحوال فقد كان البربر في معظمهم في طور البداوة عند الفتح العربي لبلادهم يعيشون في شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون، وأغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة، وقليل منهم دان باليهودية أو المسيحية أو المجوسية.

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صوراً مشابهة للحياة في شبـه جزيرتهم من الناحـية الاجتـماعيـة والقبلية، فـاندمجـوا مع البربر واختلطوا بهم - بـالرغم من شدة المقاومـة التي لقوها منهم بالتـزاوج وتبادل منهم موقف الحاكم المنعزل عن الحكومتين بل امتـزجوا معهم بالتزاوج وتبادل العادات والتقـاليد، وكان للإسلام ولغـة القرآن أثر كبيـر في ذلك. مما ساعد على انتشـار العروبة بينهم. ولذا فإن مـا يذكره بعض الكتاب الليـبيين من أن القبـائل العربية التي نزلت بشـمال إفريقـية قد تبـربرت بطول الزمن في زيها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبـوله. والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيـرون منهم بكثـرة الهجـرات العـربيـة إلى بلادهم منذ القـدم، وطول اختلاطهم بالعرب وخاصة بعد الفتح الإسلامي لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة هما الطابع العام السائد فـيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاستـعمار الفرنسي التي قـام بها زمن الاحتـلال لإثارة العصبيـة بين العرب والبربر العرب العاربة والتفريق بينهم وإحيـاء اللغة البربرية. وكما كان للعرب صفات وأخـلاق اشتهروا بها فقـد كان للبربر العرب العاربة صـفات وأخلاق اشتهروا بها كذلك - وتقتـرب من صفات العرب - وقد ذكر ابن خلدون هذه الصفـات في وصف لا يدع زيادة لمستزيد فـقد وصفـهم «بعز الجوار وحـماية النزيل، ورعى الأزمـة والوسـائل، والوفاء بالـقول والعـهـد، والصبـر على المكاره، والثبـات في الشدائد، وحـسن الكلمـة والإغـضاء عـن العيـوب،

والتجافي عن الانتقام، والرحمة بالمسكين، وبر الكبير، وتوقير أهل العلم، وحمل الكل، وتهيئة الكسب للمعدوم، وقري الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة، وإباء الضيم، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز، وأوفت بهم على ثنايا الملك، حتى غلبت على الأيدي أيديهم، ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم. وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التي عددها ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم. ولا ننسى مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة، ولا يزالون إلى الآن في الأعم الأغلب يعتقدون في قراءة الكف وفتح الكتاب وادعاء معرفة الغيب. كما ظهر منهم نسابة نظموا أنساب قبائلهم في شجرات شبيهة بشجرات الأنساب العربية وإن كان لا يوثق في هذه الشجرات كثيراً. هذا وقد كان البربر من أسبق العناصر البشرية التي دخلت إلى إسبانيا الإسلامية فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو طارق بن زياد، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة آلاف في البداية ثم ما لبثوا أن زادوا بعد ذلك إلى اثنى عشر ألفًا. وقد كان قرب بلادهم من إسبانيا الإسلامية مما سهل من توالي هجراتهم إليها، واستقرارهم فيها بعد الفتح، وكانوا ينزلون بصفة خاصة في المناطق الجنوبية والغربية من إسبانيا الإسلامية نظراً لشبهها ببيئتهم في المغرب. وكانت منطقة روندة وإقليم تاكرنا بالذات منزلاً لجماعات البربر من العرب العارية التي استوطنته بعد استقرار عملية الفتوح الأولى. وقد عدد ابن حزم في الجمهرة بيوتات البربر من العرب العارية في إسبانيا الإسلامية تفصيلاً. وذكر منهم بنو دليم الفقهاء من

وزداجة، وعوسجة بشنت برية من ملزوزة، ومنهم بنو إلياس من مغيلة، وبنو زوال من مغيلة أيضًا، وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناسة، وبنو الخروبي من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضًا، ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هذيل من مديونة، وبنو عبدوس من سرته، وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بوبدة، وكان لهم ضلع في الفتن التي أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية، واستأثر جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية من إسبانيا الإسلامية على عهد ملوك الطوائف[1].

الموالي:

جاء عدد كبير من الموالي إلى إسبانيا الإسلامية مع جيش موسى بن نصير 97 هـ وفي طالعة بلج بن بشر القشيري 124 هـ وكانت هذه الطالعة أو هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب وألفين من الموالي. وكان أغلب هؤلاء الموالي من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا في طاعة بني أمية منهم بنو الخليع وبنو وانسوس، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس. وقد ازداد عدد الموالي في إسبانيا الإسلامية بهؤلاء الذين دخلوا في هذه الطالعة حيث انضموا إلى من كان بإسبانيا الإسلامية قبل ذلك من موالي بني أمية وأصبحوا يؤلفون حزبًا هامًا وطائفة قوية تعرف بالأمويين نظراً لموالاتهم لبني أمية. وقد استطاع عبد الرحمن الداخل بفضل مناصرة هؤلاء الموالي تأسيس دولة لبني أمية في إسبانيا الإسلامية بعد أن سقطت في المشرق على يد العباسيين وأنصارهم. ومنهم بنو بسيل وهو بيت من أكبر بيوتات الموالي الأمويين من أهل الشام. وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومي وكان أبوه بسيل مولى لبني أمية ويتضح من نسبه أنه

---

(1) حسن يوسف، المجتمع الأندلسي، ص 29.

من أصل رومي. وقد دخل عبد السلام إسبانيا الإسلامية أيام عبد الرحمن الداخل مع ابنيه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها، وولاة الوزارة، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان في عهد عبد الرحمن الأوسط، كما تولى أخوه الكتابة والخيل وغيرها، كما كان يوسف بن بسيل واليًا على طليطلة 234 هـ وأصبح من كبار رجال الدولة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان له دور في تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده، وقد ولي شذونة في عهده. وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى في الدولة. كما دخل في عداد الموالي إسبانيا الإسلامية عدد كبير من الإسبان الذين دخلوا في ولاء بني أمية بعد الفتح أمثال: بنو قسي، وبنو بارون، وبنو غومس بن قارلة، وبنو مرتين وأصبحوا موالي اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم. مولى الاصطناع: هو مولى الموالاة أو الحليف وهو من يمنحه الخليفة شرف الانتساب إليه، ويستخدمه في شئونه ويجري عليه الأرزاق فيصير مولى له. ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بني قسي المولدين بالثغر فيقول: «كان قسي قومس الثغر في أيام القوط، كلمة Comes كلمة لاتينية، وهي في الأصل تعني مُرافق الملك ونديمه، ثم أصبحت تطلق في إسبانيا زمن القوط على ولاة الكور، ومنها اشتق اللفظ الإسباني Corde والفرنسي Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قمط بدلاً من قومس. وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالإنجليزية، فلما افتتح المسلمون إسبانيا الإسلامية لحق بالشام، وأسلم علىٰ يدي الوليد بن عبد الله، فكان ينتمي إلى ولائه، ولذلك كان بنو قسي في أول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون في جملة المضرية، فولد قسي فرتون وأبو ثور سلامة ويونس ويحيى ثم أخذ يعدد بعد ذلك ذرية كل واحد منهم. وقد لعب الموالي دوراً هامًا في تاريخ إسبانيا

الإسلامية حيث اعتمد عليهم بنو أمية كثيرًا وقلدوهم أهم المناصب في دولتهم لتفانيهم في الإخلاص لها، فكان منهم الوزراء والكتاب والقواد والقضاة.
وقد نجح الموالي في كورة البيرة في تأسيس دويلة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول، أو دويلات الطوائف الأولى التي تمزقت فيها وحدة إسبانيا الإسلامية وقام الثوار في سائر الأنحاء بشق عصا الطاعة على بني أمية. وقد كان هؤلاء الموالي يحسبون أنفسهم عربًا، ويدعون أرومات عربية ينسبون أنفسهم إليها، ويقتبسونها من أصول سادتهم وحتى أولئك الذين كانوا من أصول إسبانية منهم أصولاً عربية بمرور الزمن. وسواء صحت هذه الأنساب أم لا تصح فإنها كانت عاملاً أساسيًا وفعالا في حياتهم، فهم جميعًا ينصرفون كما لو كانوا عربًا يتميزون عن غيرهم ولهم حق الحكم والسيادة. وقد ذكر ابن حيان أن جماعة من موالي الخلفاء الأمويين تسموا بأسماء العرب فأنكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أنفته، ونهى عنه، وكان له مولى من عتاقة أبيه يسمى محمد وولد له ولد سماه مسرور سمي به على جد الأمير فحسنت نشأته وتفقه وتعبد واشتهر فضله، حتى ولاه عبد الرحمن القضاء بقرطبة. فتوفى بعد عام في 208 هـ.
ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوي الخبر الذي ذكره ابن حيان بهذا فلسنا نعرف للعرب أسماء اختصوا بها دون موالي. ولو استعرضنا أسماء بيوت موالي بني أمية وغيرهم بإسبانيا الإسلامية وأسماء ذراريهم فإننا لا نجد فروقًا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلص التي أورد لنا ابن حزم مئات النماذج منها في الجمهرة. كما أننا لا نجد في مصادر إسبانيا الإسلامية ما يدل على أن أمراء وخلفاء بني أمية قد ضاقوا ذرعا بذلك فيما عدا هذا الخبر الذي ساقه ابن حيان وما أكثر ما نجد حتى في الأسر الإسبانية الأصل التي أسلمت من يتسمون بأسماء إسلامية كمحمد وأبي بكر وغيرها دون أن يكون ذلك

غربيًا أو مستغربًا. إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالي الذين تسموا بأسماء عربية قد ادعوا نسبًا عربيًا كما حدث من بعض الموالي وخاصة الفرس في المشرق في العصر العباسي الأول ووجد ذلك مقاومة عنيفة من العرب. مثل أبي مسلم الخراساني الذي ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس.

الإسبان:

يذهب الكثيرون إلى أن الأصول القديمة لسكان إسبانيا تعود إلى مزيج من عنصري السلت (الكلت)، والإيبيريين أن العناصر السلتية Celtos جاءت من أوروبا وأن العناصر الإيبرية Iberos جاءت من المغرب. فقد توالى على هذه البلاد الكثير من الغزاة. حيث غزاها الفينيقيون في القرن العاشر ق. م، وأطلقوا على الشاطئ الذي نزلوا عليه اسم Ischepan - Im (إسبانيا) أو شاطئ الأرانب. وأسسوا عنده مستعمرات ومدن، من أشهرها مدينة قادس التي لا تزال إلى اليوم هناك كما غزاها اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، وأطلقوا على سواحلها اسم إيبيريا. ثم ما لبث أن أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها. كما خضعت هذه البلاد في هذا القرن أيضًا للقرطاجنيين الذين أسسوا فيها مدينة (كرتا جونوفا) أي قرطاجنة الجديدة التي اتخذوها عاصمة لهم. وهكذا شهدت هذه البلاد منذ 535 ق. م وحتى 205 ق. م تأثيرين: أحدهما أوروبي عن طريق العنصر السلتي واليوناني والآخر آسيوي عربي عن طريق العنصر القرطاجي. ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتيني أوروبي عند مجيء الرومان 205 ق. م، حيث استولوا على البلاد من القرطاجنيين وأسسوا مدينة Italica (طالقة) والتي تسمى باطقة. وهو اسم مشتق من كلمة إيطاليا. ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا - كغيرها من ولايات الدولة الرومانية - من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التي تدفقت عليها منذ 409 م

حيث اجتاحتها قبائل الآلان، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريبًا، فاستقر السويف وقسم من الوندال في جليقية وأشتوريش، ونزل الآلان في لشدانية (البرتغال حاليًا)، وأقام معظم الوندال في باطقة وجزء من شرق إسبانيا الإسلامية. ثم جاء القوط الغربيون بزعامة آطاولف فانتزعوا برشلونة من الوندال 414 م واتخذوها مقرًا لهم، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب 429 م، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (700 م) الذي اغتصب ردوريك (لذريق) حاكم باطقة الملك منه، مما أدى ببنائه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جوليان (يليان) حاكم سبتة وحثهم على فتح إسبانيا الإسلامية. وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح، وكان لسياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون أثر كبير في ذلك، بالإضافة إلى ما وجده هؤلاء من مبادئ وقيم نبيلة في الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمان، كما دخل بعضهم فيه لمصالح شخصية. وقد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسالمة أو الأسالمة. أما الذين بقوا منهم على دينهم قد عرفوا باسم العجم. وقد اعتبروا أهل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم داخل دولة المسلمين بإسبانيا الإسلامية فقد أمنهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية وكان لهم رئيس يلقب بالقومس. وكان أول من تولى هذا المنصب في عهد عبد الرحمن الداخل رجل يسمى أرطباس. وكان كما ذكر ابن القوطية «من عقلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار»، كما كان هناك قمامسة محليون ينتخبهم النصارى لكل مدينة، كما كان لهم قاضي يعرف بقاضي العجم أو النصارى يفصل في منازعتهم، وكان أول قاضٍ لهم حفص بن عبد البر وكان يتبع القوانين القوطية في الحكم بينهم. وقد أطلق على النصارى الإسبان الذين عاشروا المسلمين، واختلطوا بهم، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا في

الإسلام اسم (المستعربين). وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد في السنوات الأولى من الفتح غير أن أعدادهم أخذت في التناقص بدخول الكثيرين منهم في الإسلام حتى أصبحوا أقلية بالنسبة للمسالمة. وقد تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية، وعاشوا إلى جوار المسلمين في حرية وأمان وسلام في أحياء خاصة. والكتاب الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعد فتحها 94 هـ خير شاهد على ذلك ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ إلا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون، ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه . . . إلخ». وقد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم أرضهم يزرعونها ويدفعون خراجها وتركوا لهم كنائسهم، ولم يستولوا عليها ما عدا الكنائس التي قسموها بينهم وبين النصارى ليقيموا فيها مساجد جامعة. مثل مسجد رفينة الذي أقيم في جزء من كنيسة سانتا رفينة. وذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام فيها وذلك غير صحيح والحقيقة أنه أقام داره بجوارها وابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه.

ومثل جامع قرطبة الذي أقيم في شطر من كنيسة شنت بنجنت، وكان للنصارى أديرتهم مثل دير أرملاط في الطريق بين قرطبة وإشبيلية، ودير سان خوان دي لابنيا الذي أقامه الراهبان فوتو وفيلكس في عهد عقبة بن الحجاج السلولي شمال إسبانيا، وكانت إشبيلية في العصر الأموي مركزًا أسقفيًا هامًا. وكان أول من تولى رئاسة أسقفية إشبيلية المطران المند بن غيشطة، وكانت

أصـوات أجـراس الكنائس تقـرع جنبًـا إلى جـنب مع أصـوات المؤذنين في المسـاجد. مما يدل على مـدى تسامح المسلمين، وتركـهم النصارى يمـارسون شعائرهم بحرية تامة. وقد وصف الشاعـر أبو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقد بات فيها ليلة مع بعض أصحابه فقال: «وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور واسـتيناس ونقر النواقيس يبـهج سمعه، وبرق الحمـيا يسرج لمعه، والقس قد برز في عبـدة المسيح متوشحًا بالزنانيـر أبدع توشيح كما نظم ابن حزم أبياتًا جاء فيها:

أتيتني وهـلال الجـو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس

ظل النصارى الإسبان يتمتعـون بحريتهم الدينية حتى جاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها: فمنعوا قرع النواقيس، وألزموهم بارتداء ثياب معينة ليتميزوا عن المسلمين، وألا يـركب أحد منهم فرسًا، ولا يشتري مسلم منهم رداء ارتدوه. ويبدو أن ذلك قد كان بسبب اشتـداد حركة الغزو المسيحي (الاسترداد أو الاستعادة) كمـا يسميـها الإسـبان، واتهام المسـلمين لهؤلاء المستعـربين بالتجسس عليهم ومـعاونة الدول المسيحـية في شمال إسبـانيا ضد المسلمين. فـهو رد فـعل للدفاع عن النفس وتأمين البـلاد. ولذلك فقـد نفي الموحدون كثيراً منهم إلى المغرب ليكونوا بعيـدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضـد المسلمين، وكان الخليـفـة أبو يوسف يعقـوب المنصـور هو أشد خلفـاء الموحدين وطأة عليهم.

ورغم ذلك فإن أحـوال أهل الذمة بصـفة عامـة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الإسبـان المسيحيين بعد أن أخذت دولة الإسلام في الأنـدلس في الاضمحـلال والسقـوط ويكفي ذكر مـحاكم التفـتيش وويلاتهـا كدليل على ذلك. وبشهـادة الكثيـر من المستشـرقين فإن

المسلمين كانوا أكثر تسامحًا مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى؛ يقول المستشرق الروسي بارتولد «ومهما يكن من شيء فإن النصارى الذين عاشوا في ظل حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان. هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شغفوا باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بإسبانيا الإسلامية، مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف في المدونات الإسبانية باسم (ريسموندو)، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم، وأسقف قرطبة أصبغ بن عبد الله بن نبيل، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية (الإسبانية) إلى العربية والعكس بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين الثقافة العربية والأوروبية ومن هؤلاء: القاضي جيزون قاضي النصارى بقرطبة في خلافة حكم المستنصر، وكان يقوم في بعض الأحيان بدور المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان. وكما لعب المستعربون دوراً ثقافيًا فقد لعبوا دوراً سياسيًا هامًا بمحالفتهم للمولدين ضد العرب في عصر الأمير عبد الله. كما تجلى في ثورة عمر بن حفصون[1].

المولدين:

ويقصد بهذا العنصر الجيل الذي ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عربًا أو بربراً، وأمهات أعجميات سواء كن إسبانيات أو غير ذلك، ونشأ على الإسلام. فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر عرب العاربة على مصاهرة أهل البلاد، فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيات، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولغته في إسبانيا الإسلامية، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر عرب العاربة بدماء أهل البلاد

---

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 40.

الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين. اتصل بالعناصر العربية والبربرية عرب العاربة في إسبانيا الإسلامية عنصران آخران هامان وهما المولدين، والصقالبة. ومن المولدين من اندمج في مجتمع إسبانيا الإسلامية اندماجًا جعل بعضهم يبتدعون أنسابًا عربية ومن هؤلاء أسرة بني مغيث الرومي الأصل، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقي بن مخلد وابن حزم وابن سراج القرطبي. وكما كان للمولدين فضل في خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضًا واشتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر، وفاتن مولى المنصور بن أبي عامر الذي ناظر صاعدًا اللغوي وانتصر عليه. ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعالون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب في ذكر مفاخرهم وهو كتاب (الاستظهار المغالبة على من أنكر فضل الصقالبة). ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتأليف في دائرة الشعوبية وإن لم يكن في صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بني جنسه دون التهجم على غيرهم. أما الميل الحقيقي للشعوبية فقد أخذ طابعه الكامل في محيط المولدين ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الانسجام مع الإسلام، على العكس من شعوبية المشرق حيث نرى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة في أغلب الأمر. ويعد محمد بن سليمان المعافري من أقطاب الشعوبيين في إسبانيا الإسلامية. ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفي 335 هـ وكان معروفًا بشدة تعصبه للعجم والغض من شأن العرب. ويلاحظ أن كلمة العجم عند شعوبي المشرق تعني الفرس في المقام الأول أما عند شعوبي إسبانيا الإسلامية فتعني الإسبان والروم. ويبدو أنه لم يكن هناك نتاج أدبي للشعوبيين في إسبانيا الإسلامية إلا بعد زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيها المولون والصقالبة أن يستأثروا بعدة ولايات، ومن ثم أصبحنا نسمع صوت الشعوبية قويًا. ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبي عامر بن غرسية الذي

عاش في بلاط مجاهد الصقلبي ملك دانية، وألف رسالة في تفضيل العجم على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوي صاحب المخصص الذي يقول عنه الذهبي «وكان شعوبيًا يفضل العجم على العرب». وكان منقطعًا إلى الأمير مجاهد العامري. وقد كان هذا الجيل يشكل على عهد أمراء بني أمية الكثرة الغالبة من السكان، ومنهم تكونت جماهير الأندلس وأهل البيوتات منهم، وكان فيهم من يدعي نسبًا في المشرق يرى فيه تعظيمًا لشأنه مثل ابن حزم، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس «أنه كان من غرائبه انتماؤه في فارس، واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر». كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل: بنو أنجلين، وبنو القبطرنة، وبنو ردلف، وبنو مردنيش، وبنو غرسية، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والثغر الأعلى.

وفي كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين أبو بكر بن القوطية صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس). وقد كان جل أمراء إسبانيا الإسلامية وخلفائها من أصل مولد تجري في عروقهم دماء غير عربية وبخاصة الدم الإسباني من جهة الأمهات أو الجدات، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولد بربرية تسمى راح أو رداح، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حلل أو حوراء، وكان الحكم بن هشام من أم ولد تسمي زخرف، وكان عبد الرحمن الناصر من أم ولد تسمى مزنة، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من أم ولد بشكنسية تدعى صبح، وغير هؤلاء كثيرين. ومع هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على إسبانيا الإسلامية، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بني جلدتهم من العجم أو النصارى ضد العرب والبربر معًا. ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت

في المدن الهامة مثل طليطلة التي كانت تضم أكبر طائفة منهم، وكانت مركزاً من أهم مراكز عصبيتهم، وقد ظهر ذلك في الحركات الثورية المتعددة التي قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة. وكذلك كانت إشبيلية معقلاً هامًا من معاقلهم. حيث كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكانها، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء. وقد انتهز هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بني أمية في عهد الأمير عبد الله فثاروا في عدة نواحي من إسبانيا الإسلامية ضد السلطة المركزية وكان من أخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذي تغلب على ببشتر، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذي عرف بابن الجليقي - نسبة إلى جليقية - «وكانت دعوته عصبية للمولديين على العرب كما ثار يحيى بن بكر ردلف في شنت مرية بأشكونية. وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة العجمية أو اللطينية - كما يسميها المؤرخون العرب - بين مسلمي إسبانيا من عرب وبربر، وهي ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانية (الإسبانية الحديثة أو العامية) واختلاطها باللغة العربية. وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانية تداخلاً كان من مظاهره نشأة فن الموشحات والأزجال[1].

اليهود:

شكّل اليهود عنصراً من عناصر السكان في المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي، وقد عانوا كثيراً من اضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إسبانيا، وخاصة بعد القرارات التي اتخذها المجلس الكنسي في مدينة البيرة 303 - 304 م، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسي الذي عقد في طليطلة 589م وقدم فيه الملك «ريكاردو» الذي كان يكره اليهود عدة اقتراحات للمجلس

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 45.

تتلخص في: منع استخدام اليهود للمسيحيين في أي عمل، وعتق أي عبد مسيحي مملوك ليهودي، ومنع زواج المسيحيات من اليهود، ومنع الختان الذي كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة أملاكه، وطرد اليهود من مناصبهم في الحكومة، وعدم تعيينهم مستقبلاً، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم في مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع.

وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها، ثم جاء الملك (سيسبت ت 621 م) فضيق الخناق عليهم أكثر وأكثر وخاصة في إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية أو الرحيل عن إسبانيا، فهاجر الكثير منهم وبقي البعض متظاهر باعتناقه المسيحية حرصًا على نفسه وأملاكه. ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم المسيحية سراً. وكان هؤلاء يسمون باليهود المسترين Juoaizantes ثم جاء عهد الملك سيونتالا فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبًا للمسيحية كسلفه، انتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنًا. ولكن بعد موته جاء الملك (سيسناند) الذي طلب من المجلس الكنسي تجديد القرارات السابقة الخاصة باليهود. وفي 633م جدد المجلس قراراته السابقة وأضاف إليها قرارات أخرى منها: 1 - إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة لتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية. 2 - تسليم اليهودي، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبدًا له.

وفي عهد الملك (كانتيلا) قرر المجلس الكنسي بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يعودوا لدينهم مرة أخرى، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك. فلما مات، واعتلى الملك (سوانيد) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائرهم

علنًا. ثم أرغم اليهود في عهد الملك (إرفيج) على التنصر وأصدر أمرًا - عن طريق المجلس الكنسي بطليطلة - بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان، ثم أصدر الملك (إخيكا) صهر أرفيج أمرًا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدًا عندهم، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتق يهوديًا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم. وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذي لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعًا بالإضافة إلى العداء التقليدي بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذي قام به اليهود ومارسوه في المجتمع الإسباني وغيره من مجتمعات أوروبا. ولذلك ذكر أنهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الأندلس، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد أن يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم إسبانيا الإسلامية، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التي فتحوها تحت إمرة المسلمين. ولا يستبعد أيضًا أن يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم. ولما استقر المسلمون في إسبانيا الإسلامية تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحلمون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية. وكان لذلك أثره في هجرة الكثير من يهود أوروبا إلى إسبانيا الإسلامية بعد فتح المسلمين لها. وكان اليهود يتجمعون في عدة مدن إسبانيا الإسلامية وعلى رأسها غرناطة التي كانت تزخر بأكبر جالية يهودية ولذلك سميت (أغرناطة اليهود)، ومنها مدينة اليسانة التي تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسي: إن سكانها كانوا من اليهود فقط، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد

المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ومنها أيضًا قرطبة وطليلطة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة. وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التي تدر عليهم أموالاً طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل. وكانوا لثرائهم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوروبا. ولذلك لعب اليهود دوراً هامًا في إسبانيا الإسلامية في الحياة الاقتصادية وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداي بن شفروط (شبروط) طبيب الخليفة الناصر الذي كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية، وقام بدور هام في السفارة التي أوفدها قسطنطين السابع إلى إسبانيا الإسلامية 338هـ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار. هذا وقد لعب اليهود دوراً مهمًا في الحياة السياسية في زمن ملوك الطوائف وخاصة في مملكة غرناطة حيث وصل واحد منهم وهو ابن النغريلة إلى مرتبة الوزارة في دولة بني زيري الصنهاجيين، وغدا له من النفوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطرون على الكثير من مناصب الدولة نظراً لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إبراهيم الذي أصبح صاحب الشرطة في أيامه، كما وصل أبو الفضل بن حسداي بن شبروط إلى مرتبة الوزارة في مملكة سرقسطة. وقد كان لليهود - مثل النصارى - نظام إداري خاص بهم في إسبانيا الإسلامية حيث كان لهم رئيس يتولى شئونهم يسمى (الناجد) أو الحاخام الأكبر. وكان من أشهرهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداي بن شبروط. ولم يكن لليهود حضارة أو ثقافة تذكر بإسبانيا الإسلامية قبل الإسلام، ومن نبغ منهم كان ذلك في ظل الإسلام وتسامحه وتحت رايته. بدليل أنهم في إسبانيا القوطية لم يكن لهم مثلما كان في إسبانيا الإسلامية، فتراثهم بإسبانيا الإسلامية يعد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافة

العربية التي نهلوا منها، ولذلك عندما أخذ حكم المسلمين في الزوال من إسبانيا الإسلامية نضجت العقليات اليهودية، ولم يظهر لهم تراث مماثل إلا خلال عصر النهضة في أوروبا. لقد تمتع اليهود في هذا العصر الأموي بكثير من ألوان التسامح لم يظفروا به خلال حكم السقوط، ولا غرو فقد غدوا عنصراً هاماً في الإدارة والتجارة والصيرفة كما أسندت إلى كثير منهم مناصب هامة في الدولة، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم.

الصقالبة:

يرجع الصقالبة في أصلهم إلى الجنس التركي - التتار والمعروف أنهم نزحوا من نمط آسيا من استرخان، واستمروا يتوسعون في أوروبا حتى القرن العاشر الميلادي حيث ظهرت قوتهم، وظل مستواهم الحضاري ضعيفاً بالنسبة للشعوب التي اصطدموا بها. وقد انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلداناً مختلفة مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام: 1 - السلاف الجنوبيون: (اليوجسلاف) في الجنوب والوسط ويشملون البلغار والصرب والكروات والسلوفينيين (سكان سلوفينيا). 2 - السلاف الغربيون: في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا. 3 - السلاف الشرقيون: أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار في الوسط والشمال، والروس الصغار في الجنوب، الروس البيض في الغرب.

وقد غلب على هذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلاف Sclaves فعربها العرب إلى صقلبي التي ترادف عبد Save وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى في لغاتهم Sklave بالإنجليزية، Esclave بالفرنسية Slavary بالألمانية. وكان

لفظ صقلبي يطلق في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالأندلس على الرقيق المجلوب من أوروبا، وكذلك من المناطق الشمالية في إسبانيا. فقد ذكر ابن حوقل الذي زار الأندلس في هذا القرن أن الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود، ومن إيطاليا، ومن قطلونية وجليقية في شمال إسبانيا. وقد أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم في العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقًا إلى البحر الإدرياتي غربًا. فيشير المسعودي إلى أن الصقالبة أجناس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود. ولقد دأبت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبي الكثير من أفراد تلك الشعوب، وبيعها إلى المسلمين في إسبانيا الإسلامية، ولهذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد، ثم حور اللفظ في العربية إلى صقالبة وتوسع في استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض المجلوب من أية أمة مسيحية. وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالاً من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة ويربون تربية عسكرية، ويدربون على الخدمة في القصور، والانخراط في سلك الجندية ليكونوا جنودًا في الحرس أو الجيش. وكان المستخدمون منهم في القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحريم، وكان معظم تجار الرقيق من اليهود، ولهم معامل خاصة للخصاء في أوروبا - وخاصة في فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان بمنطقة اللورين، وكذلك في إسبانيا الإسلامية - وخاصة في مدينة خلف بجانة وهي شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة - وكان معظم أهلها من اليهود. وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التي يحرمها الإسلام. ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم من الرقيق. يقول ابن حوقل «وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة

الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم صار اليهود». وقد تميز الخصيان من الصقالبة بعدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال: «والخصى أجود خدمة، وأفطن لأبواب العطاء والمناولة، هو بها أنفق، ولها أليق، ونجده أيضًا أذكى عقلاً عند المخاطبة. والصقلبي سلس القياد لبراءته من نعورة العصبية ويبدو أن الجاحظ قد حكم في ذلك على من شاهده في بغداد منهم حيث كانوا قلة غير العصبية بخلافهم في إسبانيا الإسلامية حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضد العرب وخاصة في الجزائر الشرقية التي استقل بها الأمير مجاهد العامري بعد سقوط الخلافة الأموية وكان معظم سكانها لهم. كما أنهم مشهورون بالصبر مع طول الركوب، حتى فاقوا الترك ذلك، كما أنهم يجيدون الرمي بالنشاب إجادة تامة. كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يتقنون من الصناعات إلا صغارها، يجيدون الضرب على الأوتار. ولكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخذ به كقاعدة عامة بدون استثناء. وشبَّههم أيضًا بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود. وقد اشتهروا بحسن الخدمة كما يستدل على ذلك من قول خوارزمي «ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي». كما اشتهروا بالشدة والمراس في الحروب، يقول ابن عبدون «ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة، ومن أرادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة».

كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرسًا خاصًا له فجلب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم الخرس لعجمتهم. ثم أخذت أعدادهم في الازدياد وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل في قرطبة وحدها في عهده نحو ثلاثة عشر ألفًا وسبعمائة وخمسين. وهذا الرقم مختلف في تقديره فبعضهم يصل به إلى

خمسة عشر ألفًا أو يزيد، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن ذلك يدل على ظهور عنصر جديد في المجتمع الأندلسي كان له دور وأثر مماثل أو مشابه للعنصر التركي في المشرق. وقد بلغ عدد كبير منهم، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة في الإدارة والجيش وخاصة في عهد الناصر مثل نجدة الصقلبي قائد الجيش، والدري صاحب الشرطة، وأفلح صاحب الخيل، وخلف مدير الطراز 313 هـ، وقند حاكم طليطلة 336 هـ[1]. كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم، وكثروا في البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم فائق وجوذر اللذين كان لها دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام. وقد بلغت طائفة منهم في العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى تليد. وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلبي بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة). وقد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي والبربري، وإضعاف سيطرتها على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها في الثورات ضد الأمويين. ويبدو أن الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التي قام بها العرب والبربر ضدهم، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربي والبربري من عرب العاربة فأرادوا الاعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سندًا لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركي بعد أن ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربي والفارسي. إلا أن ذلك قد أدى إلى ازدياد المنافسة والعصبيات بين عناصر المجتمع فبدلاً من أن يكون الصراع بين عنصرين أساسيين هما العرب والبربر من عرب العاربة أصبح بين

---

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 55.

عناصر ثلاثة مما كــان له أثره في مجتــمع إسبانيــا الإسلاميــة من نواحٍ شتى. ومثال ذلك أنه عندمــا ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلبي قيــادة الجيش المتوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثاني) 327 هـ في موقعة الخندق عند مدينة سيمانقة هزم الجيش هزيمة شــديدة وقتل نجدة، وفر الناصــر بنحو خمسين فــارسًا فقط بعد أن نجا بأعجوبة، حيث قيل أن سبب الهزيمة هو تغيير نفوس العرب الذين كانوا في الجــيش لتولي قيــادته صقلبي، وتقديمه الصــقالبة عليــهم مما جعلهم يتركونه وحده فأدى ذلك إلى هزيمته. ويقول صاحب أخبار مجموعة عن هذه الموقعة «إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غــزوة بنفسه». وقد لعب الصقالبة دورًا هامًا في الحياة السياسية بإسبــانيا الإسلامية في هذا العصر حيث تدخلوا في تولية الأمراء وعزلهم، وشاركوا مثل البربر في غمار الفتن والمؤامرات التي اندلعت في قرطبة وغيرها. وكان من أشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبي.

كمــا كان لهم دور أيضًــا في الحياة العلــمية حــيث برز من بينهم بعض العلمــاء والأدباء والشــعراء مــثل فــاتن الصقــلبي الذي برع في الأدب وناظر صاعدًا العالم اللغوي عند المنصور بن أبي عامــر فأفحمه وأعجب به المنصور، ويذكر أنه وجد في تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط. كما ألف الأمير مجاهد الصقلبي صاحب دانية كتابًا فــي العربية يدل على قوته فيها ويذكر ابن الأبار أن حبيبًا الصقلبي ألّف زمن هشام المــؤيد كتابه «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقــالبة» يتعصب فيه لقومــه. وذكر ابن بسام أنه اطلع على هذا الكتاب الذي احتوى على جملة مــن أخبارهــم ونوادرهم وأشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شيء منها في كتابه الذخيرة حيث قال: «وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعــنا». كما كان لهؤلاء الصقالبــة أثر أيضًا في الحياة الاجتــماعيــة حيث جلبوا مــعهم من بلادهم الكثــير من عاداتهم وتقــاليدهم وفنونهم، وقد أشار الطرطوشي إلى اختصاصهم بأنواع من الألحان والرقصات

الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقلبي والرقص الصقلبي الذي يذكرنا بشيء منه الرقص الإسباني الحديث (الفلامنجو). ولذلك يرى المستشرق الإسباني خوليان ربيرا: إن الصقالبة كانوا يمثلون العنصر الأوروبي في مجتمع إسبانيا الإسلامية، وعن طريقهم انتقلت بعض الصور الشعرية التي شاعت في إسبانيا الإسلامية إلى البيئات الأوروبية وأثرت فيها. ويبدو أن الصقالبة كانوا يعتبرون أنفسهم عنصراً متميزاً ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيراً بالعناصر الأخرى، وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص مما بعث فيهم النزعة العنصرية أكثر من غيرهم، ولذلك فإنهم كانوا أساس الحركة الشعوبية في إسبانيا الإسلامية تلك الحركة التي انبعثت من الإمارات الصقلبية في عصر ملوك الطوائف، حيث استطاع الصقالبة أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك في شرق إسبانيا الإسلامية وخاصة في بلنسية، وطرطوشة، ودانية، والمرية، ومرسية. وكانت هذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطة تحالف وولاء عنصري وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية تمييزاً لها عن الدولة العامرية التي أسسها المنصور بن أبي عامر. لأن أصحابها كانوا من مماليك العامرية.

ومما يدلنا على نزعة الصقالبة الشعوبية ضد العرب كتاب ابن حبيب السابق ذكره والذي اعتبره البعض البداية الأولى للشعوبية في الأندلس، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليوم وهي رسالة أبي عامر بن غرسية إلى الشاعر أبي عبد الله الحداد أو أبي جعفر الخراز والتي يفضل فيها العجم على العرب.

غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه في الإسبانية «صاحب الحيلة أو الثعلب أو الماكر» كما ورد في معجم المجمع العلمي الإسباني، وهو اسم شائع في إسبانيا تسمى به كثير من الملوك والأمراء ومنهم غرسية ملك البشكنس كما تسمى به بعض المحدثين ومنهم المستشرق الإسباني إميليو جارسيا جوميز.

اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون إلى أنه أبو

جعفر بن الخراز، وذكر البعض أنه أبو عبد الله ابن الحداد أو أبو بكر بن الحداد. والأرجح أنه (أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصاري المعروف بابن الخراز). كما نص على ذلك ابن سعيد في ترجمته لابن غرسية، لأنه ترجم لابن الحداد في موضع آخر إذن فهما شخصان مختلفان، ويبدو أن الخلاف جاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتي الحداد والخراز من بعضهما وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هذه الرسالة في نوادر المخطوطات والردود عليها من المعاصرين لابن غرسية من العرب، وغير المعاصرين.

وابن غرسية من أصل مسيحي بشكنسى أسلم وأتقن العربية وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش في مملكة دانية الصقلبية وخدم في بلاط مجاهد العامري الصقلبي وابنه علي ولذلك تعصب ضد العرب فكتب رسالته هذه. ويبدو أن السبب في هذه النزعة الشعوبية بين الصقالبة بخاصة أن معظم أهالي الإمارات الصقلبية التي انتشرت فيها هذه النزعة كانوا من الموالي الصقالبة والإفرنجية والبشكنس الذين رحب بهم الصقالبة في ولاياتهم كما ذكر ابن حيان «بينما زهدوا في الأمراء من العرب وأبنائهم ممن طرأ عليهم فلم يواسوهم.

النورمان (الفايكنج):

تسميتهم بالفايكنج فإنها مشتقة من كلمة Vik النرويجية وتعني ساكن الخلجان. ولهذا أطلق هذا الاسم على سكان شبه جزيرة اسكندناوه لكثرة خلجانها، وورد في المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعني المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين. وهناك عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بغاراته البحرية على شواطئها في

فترات عديدة من العصر الأموي. ويسمى هذا العصر في المصادر العربية باسم (النورمانيين)، والأردمانيين، والمجوس) وهو تحريف للكلمة الإنجليزية Norse-men أو الإسبانية Normandes وتطلق على أهل الشمال من الدول الاسكندنافية أو سكان اسكندناوه. ولا تزال توجد في فرنسا حتى اليوم ولاية أو مقاطعة تحتفظ باسمهم وهي نورماندي أو نورماندیا حيث استقروا بها في أوائل القرن العاشر الميلادي بموجب معاهدة بين ملكهم رولو وملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالأبلة نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا كما أقامت جماعة منهم في جنوب إيطاليا، واستخدمتهم الكنيسة في محاربة المسلمين في الأندلس وصقلية، فقد هاجموا إسبانيا الإسلامية 456 هـ واستباحوا مدينة بربشتر شمال شرق سرقسطة، وهاجموا صقلية بعد ذلك 464 هـ. وكان موطنهم الأصلي في المناطق المحيطة بالبحر البلطي (بحر البلطيق)، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دانمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل إسبانيا الإسلامية وسواحل المغرب أيضًا. وكانت بداية غاراتهم البحرية على إسبانيا الإسلامية في 229هـ/ 844م في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط). وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة، والأسهم النارية التي يطلقونها، والأشرعة السوداء التي تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون. وقد استطاعوا في أولى غاراتهم هذه التي استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عدة أيام، بعد أن هاجموا أشبونة (لشبونة بالبرتغال حاليا)، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى استطاع أسطول إسبانيا الإسلامية الناشئ الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم. وقد قاموا بعد ذلك بعدة غارات على إسبانيا الإسلامية في 245هـ، 247هـ، 355 هـ، 360 هـ، 361 هـ. غير أن عددًا كبيرًا منهم لم

يتمكن من اللحاق بإخوانهم أثناء الانسحاب، فوقعوا أسرى في يد المسلمين، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام، وسكنوا ضواحي إشبيلية، واختلطوا بأهلها، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات، وصناعة الأجبان - التي يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم. فيحدثنا المقري نقلاً عن المؤرخ الحجاري - نسبة إلى وادي الحجارة - «أن مدينة شريش - وهي بنت إشبيلية وواديها وابن واديها - اختصت بإحسان الصنعة في المجبنات وطيب جبنها يعين على ذلك، ويقول أهل إسبانيا الإسلامية من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم». هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحي السياسية والحربية، فضلاً عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية لمن أقام منهم بإسبانيا الإسلامية. فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين في إسبانيا الإسلامية إلى أهمية إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان، فأرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) 230 هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال. كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونبهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل إسبانيا الإسلامية، وبناء أسطول قوي يستطيع حمايتها من المعتدين، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة في تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية، وأقام نقاطًا للحراسة على طول الساحل الغربي للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرابطون من المجاهدين، واهتم بإنشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنيقات والحراقات. وكان هذا ميلادًا لبحرية إسبانيا الإسلامية التي استطاعت فيما بعد أن تسيطر على غرب البحر المتوسط. يرجح أن يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى استخدام الحراقات أو النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التي ترمي 516 م، ثم أدخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينوس) وكان من أصل سوري ثم أقام في

القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة أثناء حصار المسلمين لها 60 هـ في عهد يزيد بن معاوية، ونتج عنه انسحاب الأسطول العربي عن المدينة.

وكان هذا السلاح مكونًا من مركب كيميائي من النفط والكبريت والقار تقذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفئ بالماء بل يزداد اشتعالاً. كما تأثر مسلمو إسبانيا بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها على نهر الوادي الكبير استعداداً لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكان يطلق عليها اسم القراقير. ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم في إشبيلية واستقروا قد ساهموا بخبراتهم في صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة. وقد جاء في كتاب الجغرافية - المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري حوالي منتصف القرن السادس الهجري - «أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهل إسبانيا الإسلامية يسمونها القراقير وهي مراكب كبار بقلوع مربعة، تجري إلى أمامها وإلى خلفها، وكان يخرج فيها أقوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم، وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركبًا، وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسحبونهم ويأسرونهم. كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت آثاراً في النواحي الأدبية والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين، وظل صداها مسموعًا في الأدب وتاريخ إسبانيا الإسلامية زمنًا طويلاً»[1].

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 65.

انتشار الإسلام وجماعات غير المسلمين:

الصفة المميزة لسكان الأندلس في القرن الثامن هو الانسجام بين جماعات السكان المختلفة التي كانت أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقشة، كما يقول الباحثون، من النواحي العنصرية والاجتماعية والدينية. فعندما دخل العرب إسبانيا لم يعملوا على إجبار أهلها على الدخول في الإسلام، إذ كان هؤلاء أهل كتاب وكان لهم بناء على ذلك الحق في أن يكون لهم موقف خاص إزاء الدولة، بصفتهم أهل ذمة أو أهل عهد، أي محميين: لهم إذا أرادوا الاحتفاظ بدينهم وحرية القيام بشعائره، كما نصت معاهدة تدمير مع عبد العزيز بن موسى. وعلى ذلك كان أمام الرعايا الجدد الخيار بين أن يدخلوا في الإسلام أو التمسك بدينهم القديم، وفي هذه الحالة الأخيرة كان عليهم أداء بعض الواجبات المالية، والخضوع لبعض القيود. ولم يتردد كثير من الإسبان المهضومي الحقوق في النظام القوطي في الدخول في الإسلام عن طيب خاطر، أي دون جبر أو إرغام، إذ أنه لم يكن من صالح العرب أن يدخل أهل البلاد جماعات في الإسلام، وبذلك تضيع على الدولة بعض مواردها المالية الآتية من جماعات أهل الذمة، كما سبقت الإشارة قبل وبعد عمر بن عبد العزيز. هذا لو أن هناك أسبابًا سياسية تجعل من الواجب ألا يكون المسلمون الجدد أقلية بالنسبة للذميين. ولقد وجد المسلمون الجدد من الإسبان بأعداد وفيرة في جنوب وشرق الجزيرة الإسبانية وكانوا غالبية أهل الأندلس المسلمين (كثير من أحفاد هؤلاء لن يغادروا إسبانيا بعد أن استعيدت وتنصرت). هؤلاء الإسبان الذين أسلموا أطلق عليهم اسم «المسالمة» (المسلمون الجدد) أو اسم «المولدون». والمتحتمل أن التسمية الأولى هي القديمة وأن كلمة المولدين أطلقت على أحفاد المسالمة (أي الذين ولدوا من آباء غير عرب ونشأوا على الإسلام).

والظاهر أن دخول الإسبان في الإسلام كـان سريعًا لدرجة أنه لن يمكن تمييـزهم بعد أجيال مـن المسلمين المهاجرين لأول وهلة. وسـيكون من نتائج تشدد بعض الأمـراء من الأمويين ازدياد أعدادهم فيـما بعد كل حسب طبـقته الاجتماعـية من حر أو عبد أو مولى (والأخيرون يحـملون أسماء سادتهم). ولكن بمرور الوقت أصبح منهم الأعـيان وكبار التجـار والمزارعين الذين نسبوا أصلهم الإسبـاني، بل والذين حملوا أنسابًا عربيـة. ولكن إلى جانب هؤلاء احتفظ عدد منهم بأسمـاء عائلاتهم الرومانية مثل: «بنو إنجلينه B. Angelino» وبنو سبريكه B. Sabarico وغيرهم ممن أصبحوا فيـما بعد وزراء وكتاب مثل: بنو اللنجـة B. Al Longc وبنو القـبطرنه Kabturno ويمكن الإشـارة هنا إلى المؤرخ العـربي الأندلسي (الذي عاش في القـرن العاشـر) والذي افتخـر بأنه ينحـدر من عائلـة الملك غيطشـه (Witiza) والذي سـمي نتيـجـة ذلك بابن القوطية. وفيما بعد سيكون من الصعب التـمييز والتفرقة بين العناصر الوطنية وغيرها نتيـجة للتزاوج بين المولدين والعرب وبينهم وبين البربر. ومـهما يكن من أمر فرغم أن المسلمين الجدد نبذوا دين آبائهم وتقلبوا نوع الحياة الاجتماعية التي عاشها العرب المهـاجرون، فإن المولدين لم يفقدوا شخصيـتهم الإسبانية المميزة لهم. فبـفضلهم كان لجزيرة الأندلس المتطرفة، بالنسبـة لبقية الأراضي الإسلاميـة، ميزات خاصة فيـما يتعلق بشكل الحياة الـسياسية التي عاشـتها، ونوع المثل الحضارية والثـقافية التي أخرجتـها. وهنا حقيقة لا يجب إغـفالها وهي أنه طوال ملك العـرب بإسـبانيـا لم تكن اللغـة العـربيـة هي الوحيـدة المستعملة في البلاد، إذ كانت هناك جماعات كبيرة من الشعب تتكلم لهجات رومانـية (Romans) من أصل لاتيني مـصبـوغة بـلهجـات إيبيـرية وعربيـة (استعمال الرومان كان في كل مكان ولكنه غلب على الأقاليم والأرياف).

هذا عن الإسبان الذين دخلوا في الإسلام أما عن غيرهم ممن احتفظوا بمسيحيتهم فلقد أطلق عليهم في بعض الأحيان كلمة «العجم» (وهي كلمة مائعة ليست دقيقة المعنى ويقصد بها كل من ليس بعربي ولو أن أول من قصد بها هم الفرس بالمشرق). ولكن التسمية الشائعة التي عرفوا بها في الأندلس هي «المستعربة» (Mozarabes). وكذلك سماهم الكتاب الغرب «المعاهدون» وهي كلمة قريبة من «أهل الذمة أو الذميون» التي تطلق على غير المسلمين عامة (من نصارى ويهود). ولكن مع مرور الوقت أصبحت كلمة «المعاهدون» خاصة بالنصارى وكلمة «الذميون» خاصة باليهود. ويظهر أنه منذ منتصف القرن الثامن الميلادي كانت جماعات المستعربة منتعشة في المدن مثل طليطلة وقرطبة وإشبيلية وماردة خاصة، وكانت طليطلة هي العاصمة الدينية لمسيحي الأندلس، كما كان الحال على عهد القوط، إذ كانت مقر مطران النصارى الذي كان لابد لتعيينه من موافقة الأمير الأموي، كما كان الحال بالنسبة لأساقفة قرطبة والأقاليم. وكان لنصارى الأندلس - بصفة عامة - الاحتفاظ بكنائسهم، ولكن لم يكن لهم حق بناء كنائس جديدة بل ربما حولت بعض كنائسهم إلى مساجد، وذلك حسب تقليد عمل به من عهد عمر يقتضي بجواز مقاسمة المسلمين النصارى بعض كنائسهم في المدن التي فتحت صلحًا. حدث ذلك في قرطبة إذ تم الاتفاق بين المسلمين والنصارى على اقتسام كنيسة سان فنست (St. Vincert) فأصبح النصف جامعًا واحتفظ المستعربة بالنصف الآخر. ولكن بنمو العاصمة وازدياد عدد المسلمين رأى عبد الرحمن الأول أنه مضطر لشراء النصف الباقي من الكنيسة وفي نظير ذلك سمح للمستعربة ببناء كنائس جديدة لهم في الأحياء الخارجية عن المدن وبينما كانت الطوائف المسيحية موجودة في إسبانيا المسلمة طوال تاريخها، لم توجد طوائف إسلامية

في الأراضي التي استعادها ألفونس الأول، وكذلك بعد أن استعادت النصرانية الجزيرة لن يسمح ملوكها بإقامة طوائف إسلامية منظمة في أراضيهم (إلا بعد مدة طويلة - وكان ذلك بصفة عابرة). أما عن اليهود فإنهم كانوا موجودين في كلا الجانبين وكانت جماعاتهم عديدة نسبيًا ومنتعشة دائمًا. فمنذ زمن طويل واليهود يعانون حقًا من سوء معاملة واضطهاد القوط، وخاصة منذ العصر الذي بدأ فيه التحالف بين الكنيسة والدولة وأسفرت اجتماعاتها المتتالية في العاصمة طليطلة عن تقليص حقوق اليهودي الشخصية ثم الإطاحة بها. ففي عام 654 م اتخذ «ريثيسبنتو» (Recesvinto) ضدهم مجموعة من القرارات الصارمة (استمر تطبيقها كذلك في عهد «إيرِبيخيو») تضطرهم في الواقع إما إلى الهجرة أو اعتناق المسيحية. ثم جاء «إخيكا» وحرم عليهم - عام 693 م - التعامل مع مسيحي المملكة. وبالرغم من قسوة القرار الأخير إلا أنه من المستبعد التسليم بأنه كان سبب تآمرهم في بداية القرن الثامن مع عرب شمال أفريقيا لطرد القوط من إسبانيا. يكثر المؤرخون العرب من الإشارة إلى المساعدات التي قدمها يهود إسبانيا للعرب الفاتحين، ويبدو أنهم كانوا مكلفين - في حالات منية - بتأمين وحراسة المدن المفتوحة بعد ترك الجيوش العربية لها لمواصلة تقدمها. لقد تمتع اليهود، في ظل الدولة الإسلامية، بحقوق المواطنة كاملة، وكانت لهم جاليات ذات أهمية في عدد من المراكز الحضارية. وعلاوة على هذا، أصبح اليهود يشكلون غالبية سكان بعض المدن لأزمان طويلة، ومنها على سبيل المثال: غرناطة القديمة أو مدينة «اللسانة» (Lucena) الصغيرة. كما كان لليهود أيضًا - مثل المستعربين - الحق في ممارسة شعائرهم الدينية والتمتع بسائر حقوقهم المدنية مقابل دفع الجزية فقط. وعلى ما يبدو، فإن عدد المتحولين منهم إلى الإسلام لم يكن يشكل سوى نسبة ضئيلة للغاية.

وإذا استثنينا الحركات المحدودة والقليلة المناهضة لليهود والتي انبثقت أثناء حكم الزيديين لغرناطة في القرن الحادي عشر، يمكننا القول بأن التاريخ لم يسجل أي قرار فيه اضطهاد ليهود إسبانيا المسلمة إلا بعد مرور عدة قرون، وبالتحديد في عهد الموحدين. ولقد اضطلع اليهود - كما سنرى فيما بعد - بدور هام في اقتصاديات الممالك الأندلسية والمسيحية على حد سواء، كما عُهد إليهم بالعديد من المناصب في إدارة الأموال وبالمهام الدبلوماسية العظيمة. واليهود في إسبانيا كانوا محل اضطهاد على عهد القوط منذ أن تحالفت الكنيسة مع الدولة ضدهم، إذ اتخذت ضدهم إجراءات تعسفية ترغمهم على الهجرة أو التنصر، كما حرم عليهم بعد ذلك المتاجرة مع المسيحيين. وكان هذا الإجراء أشدها ضرراً بهم وبحريتهم، وعلى ذلك لم يكن من الغريب أن يستقبلوا الفاتحين العرب استقبالاً حسنًا، وأن يقدموا لهم المعونة وأن يستفيد العرب بالتالي من خدماتهم، إذ عهدوا إليهم بالمحافظة على المدن التي وقعت بين أيديهم بينما كانت جيوشهم تتقدم في فتوحها. ولكن ربما كان من المستبعد أنهم دبروا مع إخوانهم يهود شمال أفريقيا مؤامرة قلب النظام القوطي بإسبانيا باستدعاء العرب إلى الأندلس. وكانت أغلبية اليهود من سكان المدن، وكانت لهم مراكز مهمة نسبيًا، بل أن بعض المدن احتفظت لمدة طويلة بأغلبية يهودية من السكان مثل غرناطة واليسانة (Lu-cena). وكان لهم مثل النصارى حرية إقامة شعائرهم الدينية نظير الجزية، والظاهر أنه لم يدخل في الإسلام منهم إلا أقلية ضئيلة. ولم يكن اليهود موضع اضطهاد بإسبانيا إلا على عهد الموحدين - وذلك إذا استثنينا بعض حركات التعصب ضدهم (كما في القرن الحادي عشر بغرناطة). وكان لهم نشاط مهم في الحياة الاقتصادية بالأندلس ودول النصرانية على السواء، كما كان يعهد إليهم بمهام خطيرة، خاصة في الإدارة المالية والبعثات الدبلوماسية.

هذا عن سكان البلاد الأصليين، أما عن الفاتحين العرب فإن عددهم لم يكن من الكثرة بحيث يسمح باستعمار الأراضي التي افتتحوها. ولذلك اكتفوا بالانشغال بالشئون السياسية والاحتفاظ بالوظائف، وكانت رسالتهم هي تعريب السكان من الناحية الاجتماعية أكثر مما كانت نشر الدين الإسلامي.

وكان عدد العرب قليل خلال القرن الثامن م، وهذا العدد ازداد فيما بعد بفضل قيام الأسرة الأموية بقرطبة، وكذلك بسبب الشهرة الكبيرة التي تمتعت بها الجزيرة في سائر العالم العربي لطيب طبيعتها. ولقد رأينا كيف حمل العرب منازعاتهم القبلية والعصبية من قيسية ويمنية. وبفضل ما كتبه بعض الكتاب اهتموا بمسألة العصبيات وخاصة الكاتب الأندلسي الكبير ابن حزم (القرن 10 م) الذي كتب رسالة عن «جمهرة الأنساب» يمكن تحديد جماعات العرب وتعيين أماكن استقرارها بالجزيرة على وجه التقريب. ورغم غيرة العرب على أحسابهم وأنسابهم فإنهم فقدوا نقاءهم ووحدتهم الجنسية بالأندلس بسرعة وذلك عن طريق المصاهرات مع المولدين ثم اتخاذ الموالي.

ولقد دخل العرب إلى الجزيرة دفعتين: أقدمهم الحجازية القيسية والكلبية اليمانية الذين صحبهم موسى بن نصير عندما نزل الجزيرة (وتبعهم بعد ذلك عدة مئات استصحبهم معه الحر بن عبد الرحمن عند ولايته 94 هـ (713 م) وهؤلاء وسلالتهم عرفوا باسم «أهل البلد» أو «البلديون». واستمرت هجرة العرب بعد ذلك حتى وصول عبد الرحمن الأموي الذي عمل على اجتذاب العرب، ولكن على منوال لا نعرف قدره. وكل ما نعرفه هي المعلومات الخاصة بعرب بلج - عرب الدفعة الثانية - وهؤلاء عرفوا باسم «الشاميون»، وهؤلاء وزعهم أبو الخطار على كور إسبانيا الإسلامية المختلفة - كما رأينا - لصفتهم أصحاب إقطاعات.

استقر العرب بصفة عـامة في المدن قريبًا من الأراضي الطيبة، فكان من العدنانيين واليمنيين: الفهريون وبنو قاسم بالبـونت (قلعة) شمال غرب بلنسية وبنو كنانة بمنطقـة طليطلة وبنو هذيل الـذين استـقروا أول الأمـر بأوريولة ثم انتقلوا إلى غـرناطة. وكان الحـجازية القيـسية واليـمنية منتشـرين في مناطق إشبـيلية وبلنسية. أمـا عن اليمنية فكان لهم غـالبية عرب إسـبانيا الإسلامـية ومنهم كثـير من الأنصار، وهم كـانوا منتشرين في كل منطـقة طليطلة. وفي شرق إسبانيا الإسلامية (Levante) وفي الغرب (Algarve) كذلك. وستنتسب إليهم عـائلات مالكة شهيـرة في القرن العاشـر والقرن الحادي عشـر، مثل: العامريون بقرطـبة، وبنو عباد بإشبيلية وبـنو هود بطليطلة وبنو نيش بمرسية، كمـا ستكون منهم عائلات قـوية بقرطبـة وبطليوس (Badagoz)، وكان منهم كبـار رجال البلاط الأمـوي مثل بنو عبـده وبنو جهور. وهناك مـا يدعو إلى الظن أن عرب الطليعة هؤلاء من المهـاجرين الأولين ثم الشاميين من جند بلج كان لهم النصيب الأكبر من أراضي إسبانـيا الإسلامية في القرن الثامن ولكن المعلومات غير كافية للدلالة على كيفية استقلال العرب لثروة إسبانيا الإسلامية الطبيـعية والظـاهر أن العرب عملوا بخطة المقـاسمة الـتي كانت معـروفة في المغرب العربي والتي تتفق مع النظام البربري القديم، كما يرى بروفنسال فبينما كانوا يقطنون المدن كموظفين أو حكام، أو يقيمـون قصورهم الريفية (المنيات) مثل أمراء الإقطاع، فإنهم كانوا يعهدون بفلاحة الأرض إلى الموالي، من عبيد الأرض أصلاً (Serfs) أو إلى الفـلاحين الذين ظلوا مـسيـحيين، وكـان على هؤلاء أن يدفـعوا إليـهم ببعض المال مـقـدمًا وأن يقـدموا لهم نصـيـبـهم من المحصولات عند الحصاد. وإلى جانب الإسبـان من مسلمين ومسيحيين ويهود أي سكان البـلاد قبل الفتـح ثم العرب الغزاة بـعصبـياتهم نتكلم عن الـبربر العرب العاربة في إسبانيا الإسلامية.

رأينا الدور المهم الذي قام به البربر عرب العاربة في غزو الجزيرة (مع طارق) وكذلك ثورتهم التي عاصرت مجاعة 232 هـ/ 750 م وهجرة الكثير منهم من شمال الجزيرة نحو المغرب. ولكن رغم ذلك فإن تيار هجرة البربر من المغرب إلى الجزيرة في شكل جماعات صغيرة ظل مستمرًا: حدث ذلك بإرادتهم أو بما تفرضه عليهم روابط الولاية (الولاء). وبعد أن يقيم الأمويون عرشهم من جديد في قرطبة سيجمع بعض أمراؤهم البربر في المغرب العربي ليخدموا في الجيش. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي سيأتي البربر في جماعات كبيرة من المغرب حسب طلب خلفاء قرطبة أو المنصور بن أبي عامر (الحاجب) ليكونوا غالبية الجند. وفي هذه الفترة سيأتي البربر عرب العاربة، كما أتى العرب من قبل بنزاعاتهم القبلية التقليدية المعروفة بالمغرب العربي بين بربر عرب العاربة زناتة وبربر صنهاجة (من البدو والحضر). وكما حدد ابن حزم جماعات العرب وأماكن استقرارها في إسبانيا الإسلامية يعود الفضل إليه في تحديد جماعات البربر وأماكن إقامتهم بالجزيرة. وكذلك يذكر ابن خلدون قبائل البربر عرب العاربة الأولى الذين قادهم طارق إلى الجزيرة، فيقول: أن طارقًا جمعهم من بربر عرب العاربة مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة، وهؤلاء كانوا يقطنون أقصى الساحل المغربي من منطقة البحر المتوسط. هذه الجماعات الأربع مذكورة في قائمة ابن حزم ولكنه يضيف إليها بربر مغلية، وملزورة، ونفزة، وأودية ومصمودة. كما ينص على أن بربر كتامة كانوا عديدين بإسبانيا الإسلامية. وأن بربر ولهاصة وجدوا بمنطقة رندة وبنو غزلون بشاطبة وبنو طريف بمدينة سليم (Medinaceli) (وربما حدث بعض ذلك في القرن العاشر). والمعروف بصفة عامة أن هؤلاء البربر من عرب العاربة أقاموا بصفة عامة في المناطق الجبلية وذلك نظرًا لاستقرار العرب في الأراضي السهلة ثم لأنها مشابهة لطبيعة بلادهم الجبلية، كما أنهم ربما فكروا في أن صعوبة

جبـالهم تمنعهم من العـرب وتحقق لهم حـريتهم. وفعـلاً تفرق البـربر عرب العاربة في كل مرتفعات الجزيرة وخرجـوا عن رقابة الحكومة العربية، وعندما بدأ ملوك أشتـوريش يتوسعـون جنوبًا حتى وادي الدوير أي باستـيلائهم على الأراضي الشمالية التي كان يسكنها البربر من عرب العاربة كان هؤلاء عديدين في الغرب (Algarve) وكذلك في الجنوب (ما يعرف حاليًا بالأندلس) في كل الأراضي المرتفعة من جبال قرمونة وشذورة ورندة (Ronda) ومالقة هذا، بينما كان غالبـية سكان شرق البلاد من الغرب. وهكذا أصـبح العرب والبربر من عرب العاربة يسودون إسـبانيا وإلى جانبهم المسلمون الجـدد من الإسبان. أما عن المدن فكانت تضم إلى جـانب الطبقـة الأرستـقراطية من العـرب وبعض البـربر عامـة الناس من المولدين، كـما احـتـوت على نصارى ويهـود. هذا الاختلاف في التـركيب البشري كان لـه أثره الخاص على إسبانيا الإسـلامية، زيادة على أنه جعل من الصـعب تحقيق وحـدتها وإقرار النظام والأمن فيـها. فستكون هذه بفـسيفساء المختلفـة من السكان خطرًا داخليًا مستمـرًا على كيان دولة إسبانيا الإسلامية إلى جانب خطر حرب الاسترداد وسيـقضي عليها في القرن العاشر ولكنها ستظهر في القرن الحادي عشر، وستكون سببًا في تفتيت البلاد. ودخول المرابطين إلى أرض الجزيرة[1].

الأقلية المسيحية في إسبانيا الإسلامية:

يطلق المسلمون أحيـانًا لفظ «العجم» على الإسبان المسـيحيين الذين لم يتخلوا عن عقيدتهم وظلوا - طبقًا للـتعبير العربي - «بين ظهراني المسلمين». وهذا اللفظ (العجم) كان يطلق في بدايته على غـير العرب، وفي الشرق كان يطلق بصفة خاصة على الفرس الذين دخلوا الإسلام.

(1) سعد عبد الحميد، المرجع السابق، ص 155.

أما التسمية التي غلبت ودامت في إسبانيا فهي «المستعربين». ومن جهة أخرى، فإن المؤرخين العرب اعتادوا تسمية غير المسلمين في إسبانيا «بالمعاهدين»، أي المرتبطين بعهد يخول لهم الاستمتاع بعدد من الحقوق والالتزام ببعض الواجبات إنه يساوي - باختصار - تعبير «أهل الذمة» الذي يطلق على دافعي الجزية من المسيحيين واليهود، لكن يبدو (وهذا خاص بإسبانيا الإسلامية فقط) أنه بمرور الزمن أصبح لفظ «المعاهدة» يطلق على المسيحي بينما اختص اليهودي بلفظ «الذمي». كانت توجد في طليطلة وقرطبة وإشبيلية، منذ منتصف القرن الثامن المجتمعات المستعربة الأكثر عدداً وازدهاراً. وظلت طليطلة (عاصمة القوط القديمة) محتفظة تحت السيطرة الإسلامية، بمكانتها كحاضرة دينية، وكانت المقر الدائم - حتى القرن الحادي عشر - لمطران مسيحي الأندلس الذي كان لا يتم تعيينه - مثله في هذا مثل قساوسة قرطبة وغيرها من الأبرشيات - إلا بعد موافقة العاهل الأموي في العاصمة قرطبة. ولقد كان لمسيحي إسبانيا - بوجه عام - الحق في الاحتفاظ بكنائسهم وممارسة شعائرهم الدينية فيها، لكن التصريح لهم ببناء كنائس جديدة لم يكن يتم إلا في القليل النادر. ومن جهة أخرى، فقد تم تحويل عدد من الكنائس إلى المساجد، تمشياً مع التقليد المتبع منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب والذي يقضي بتقسيم كنائس المدن المستسلمة - ولو عن طريق الصلح - بين المسلمين والمسيحيين. ويبدو أن اتفاقاً من هذا النوع قد وقع في قرطبة (عاصمة الأندلس) واستمر لعدة عقود من الزمن، وبموجبه تحول نصف كنيسة «سان بيثنتي» (San Vicente) إلى مسجد بينما ظل النصف الباقي في يد المستعربين. وبعد أن كثر عدد المسلمين في العاصمة الأندلسية، أحسَّ عبد الرحمن الأول بالحاجة لتوسيع المسجد فضم إليه الجزء المخصص للكنيسة، وصرح للمستعربين في مقابل هذا ببناء كنائس جديدة في الربض.

لا يمكننا الجزم بأن الأراضي التي استردها ألفونسو الأول ومن بعده «فرويلا الأول» في منتصف القرن الثامن لم يبق فيها مسلم واحد. ما نعرفه هو أن البربر نزحوا عن الأقاليم التي استردها هذان الملكان وتركوها شبه خالية، لكن الأعداد القليلة التي بقيت منهم ارتدت عن الإسلام وعادت لممارسة شعائر دينها القديم. لقد تواجد المسيحيون في إسبانيا خلال كل العصور؛ أما ملوك إسبانيا المستردة (المسيحية) فلم يسمحوا بتواجد جاليات مسلمة على أرضهم إلا بعد مرور ردح طويل من الزمن، ومن ثم فقد كان لزامًا الانتظار حتى نهاية القرن الحادي عشر ومطلع الثاني عشر لتصلنا أول الأخبار عن تواجد بعض التجمعات الموريسكية في الأراضي المسيحية. وعلى خلاف ما تقدم، فإن الجاليات اليهودية النشيطة والغنية كانت متواجدة باستمرار على هذا الجانب أو ذاك من الثغور الحدودية. لن نسترسل الآن في الحديث عن تلك الجاليات اليهودية ولا عن مسيحي الأندلس لأننا سنعود إليهما - وبالتفصيل - عند دراسة النسيج الاجتماعي لخلافة قرطبة والدور الذي لعبه كل فريق في اقتصادها إن فهم المجتمع الإسلامي في الأندلس بشكل صحيح يستلزم دراسة الجالية المسيحية المستعربة (Mozarabs) التي عاشت ضمن إطاره، وخصوصًا بسبب الأهمية التي أعطيت لهذه الجالية في الدراسات التاريخية عن الأقاليم، ودراسة هذا الموضوع هي من عدة نواح يتيح لنا فهمًا أعمق للمسألة. وعلينا في الوقت نفسه الأخذ بالحسبان التطورات الأخيرة في الدراسات المتعلقة بالمستعربين والقائمة على أساس الأفكار الأساسية التي وضعها مؤرخو القرن التاسع عشر. إن هدف هذه الورقة دراسة الجالية المستعربة ككل، وكذلك تطورها التاريخي داخل مجتمع إسلامي محدد، ودون القيام بعملية معالجة تفصيلية لبنيتها الداخلية أو لنشاطاتها.

كيف كان يشار إلى المسيحيين في مجتمع إسلامي؟

يطلق مؤرخو هذه الأيام اسم المستعربين على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الأندلس المسلمة (أي إسبانيا التي تأسلمت منذ بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وكان هؤلاء بغالبهم يعيشون في تجمعات مسيحية تعود بأصولها إلى ما قبل الإسلام، أي إلى أيام سيادة المسيحية والأساقفة الكاثوليك القوط الغربيين. وكلمة "Mozarab" المستعملة مشتقة من كلمة «مستعرب» بالعربية ومعناها «الذي يزعم أنه عربي وليس بذلك» (رغم أن بعض المختصين بالدراسات العربية يعتقدون أن أصلها يعود إلى كلمة «مستعربة» التي كانت تستعمل لوصف «القبائل التي لا ينحدر أصلها من العرب» وعلى أي حال، فإن الأصل الاجتماعي للكلمة ليس واضحًا لأن النصوص العربية التي بحوزتنا لا توظفها لدى الحديث عن المسيحيين، بل إنها ترد في النصوص والمراجع المسيحية بدءًا من القرن الحادي عشر للميلاد كوصف ذي دلالة تحقيرية للمسيحيين الذين هم من أصل عربي ويعيشون في الممالك المسيحية القروسطية، وبخاصة في طليطلة وإن التفحص العميق لأصل هذه الكلمة سيوصلنا - كما سنرى - إلى نتائج طريفة، بل مدهشة. تشير المصادر العربية إلى مسيحي الأندلس من الأسماء المعروفة جيدًا: (نصراني، جمعها نصارى)، رومي (أي رومان، بيزنطيون، والمقصود مسيحيو الإمبراطورية الرومانية الغابرة) مسيحي (أي من أتباع المسيح) أهل الذمة (بمعنى من هم تحت الحماية، أي تحت الحماية القانونية من قبل الدين والسلطات الإسلامية كما كان وضع اليهود والجماعات الموحدة الأخرى)، أو معاهدة (المحافظ على العهد، بمعنى من عمل عهدًا مع السلطات الإسلامية). ولا يرد اسم «أهل الكتاب» الوارد في القرآن إلا لدى الحديث عن المسيحيين

في سياق بحث المسائل الدينية، وذلك في إشارة إلى كتاب اليهودية - المسيحية المقدس الذي أنزل على كل الأنبياء بمن فيهم السيد المسيح. كما كان يشار إلى المسيحيين بحسب الأماكن التي تعود أصولهم إليها، مثل غالسيين وباسكيين وقشتاليين وفرنجة وقطالونيين . . . إلخ. كما نجد أسماء أخرى ذات دلالات سلبية جداً - أصولها دينية وسياسية - كانت تطلق على مسيحيين أفراد من الممالك الإسبانية الشمالية مثل: العدو، عدو الله، الطاغي المتكبر، المستبد، الثائر (وهذه كانت تستعمل أيضًا للإشارة إلى من يثور من المسلمين ضد الحكام في قرطبة)، الكافر، المشرك، أهل الشرك وغيرها. إن التحليل المفصل لهذه الأسماء العربية التقليدية يكشف عن وجود وضعين متميزين للمستعربين على الصعيد الاجتماعي والديني. فمن جهة، عامل المسلمون مسيحيي الأندلس مثلما كانوا يعاملون ردفاءهم في باقي المجتمعات الإسلامية، ومنحوهم (كأفراد وكأعضاء جاليات) المكانة نفسها التي ينص عليها التشريع وطبيعة المجتمع الإسلامي. ومن جهة ثانية، كانت علاقات المسيحيين بالمجتمع الإسلامي تتباين تبعًا لما إذا كانوا يستمرون - أو لا يستمرون - في إظهار ولائهم للسلطة السياسية الإسلامية. فعندما كانوا يعارضون هذه السلطة، كانوا يعتبرون متمردين.

الأصول الاجتماعية للمسيحيين في إسبانيا الإسلامية:

المستعربون، والمستعربون الجدد، والمستعربون المحدثون

أسهمت الدراسات التي أجريت مؤخراً في إيجاد فهم أفضل للأصول الاجتماعية لمسيحيي الأندلس. فقد كان المؤرخون القدامى يعتبرون المستعربين مسيحيين من أصل قوطي غربي انحدروا من أصلاب مسيحيي شبه الجزيرة الأيبيرية في الفترة السابقة على الحكم الإسلامي، وتجمعوا في جاليات

مسيحية تعكس أبرشيات المرحلة الرومانية - القوطية الغربية. وبكلمات أخرى، كان ينظر للكنيسة الإسبانية، حيث كان مقر كرسي أسقفها في طليطلة، على أنها امتداد داخل المجتمع الإسلامي. وقد اندمجت - أو أعيد إدماج - هذه الجاليات جزئيًا في المجتمع المسيحي عن طريق الهجرة (بين القرنين الثاني والسادس الهجريين/ الثامن والثاني عشر الميلاديين) وبخاصة بعد استيلاء ملك قشتالة وليون على طليطلة عام 478 هـ/ 1085 م، وحملات ألفونسو الأول ملك أراغون على الأندلس والمناطق الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية بين عامي (519 و 520 هـ/ 1125 و 1126 م). غير أن الدراسات الحديثة أوضحت أن بعض مسيحيين إسبانيا الإسلامية لم يكونوا من أصول قوطية غربية. فقد كان هناك مسيحيون أصلهم من الشرق الأدنى ورد ذكرهم في المصادر العربية كحرفيين ومهنيين (في الطب والتجارة والعمارة والترجمة وغيرها) كما كان هناك مسيحيون قدموا من الأجزاء الشمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية أو من المناطق الواقعة وراء جبال البيرينية، أو حتى من المغرب فقد جذب ثراء إسبانيا الإسلامية وسهولة النفاذ إلى مجتمعها أعدادًا كبيرة من الأجانب مما مكن المسيحيين وغيرهم من تحصيل مكان لهم بطريقة أو بأخرى في مجتمعها الإسلامي. وقد حظي المسيحيون الأجانب بالمكانة القانونية نفسها التي للمسيحيين ذوي الأصول القوطية الغربية. ومع ذلك، فقد كان لهؤلاء خصائص يجب أخذها بعين الاعتبار. وهي توجب علينا اعتبار هؤلاء مستعربين محدثين (Neo - Mozarabs) إذا أردنا أن نفهم تاريخ التجمعات المسيحية في الأندلس بشكل أفضل. ولا يعني وجود هؤلاء المستعربين المحدثين المنعزلين وذوي الأصول الأجنبية أنه كان هناك تجمعات مسيحية سابقة على الفتح الإسلامي في تلك الأماكن التي عاشوا فيها. كما كان هناك مستعربون من أصل إسلامي تحولوا إلى المسيحية بعد استيلاء ملك قشتالة

وليون على طليطلة، وربما أيضًا بعد حملات ألفونسو الأول ملك أراغون.
وترى ماريا خيسوز روبييرا ماتا، التي عثرت على نصوص عربية ومسيحية مهمة تتعلق بالجماعات التي اندمجت في مجتمع طليطلة المسيحي، أنه يجب أن يطلق على هؤلاء اسم «المستغربين الجدد» أو «المستعربين المتحولين» أو «مسيحيين جدد تحولوا عن الإسلام». وهؤلاء المسيحيون ذوو الأصل الإسلامي الذين تنصروا بالجملة في نهاية القرن الحادي عشر للميلاد، مختلفون تمامًا عن المسلمين الذين عاشوا في شمالي إسبانيا المسيحية (Mude-jares) أو بربر إسبانيا (Moriscos) الذين تحولوا إلى المسيحية بالتدريج بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر للميلاد.

المسلمون من أصل مسيحي

هناك أخيرًا المسلمون من أصل مسيحي الذين كان يطلق عليهم اسم «المسالمة» أو «المولدون»، وهم من أصول إسبانية سابقة على الإسلام. كما كان يطلق عليهم اسم «العلوج» - جمع علج - سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين للدلالة على أن أصلهم غير عربي. وكان يشار أيضًا على أنهم أعجام أو أعاجم أو عجم، للدلالة على أنهم كانوا يتحدثون بلسان أعجمي، أي غير عربي. ومن بين المسلمين ذوي الأصول المسيحية العبيد المعتقون الذين كانوا يلقبون بالصقالبة أو السلافيين. وقد أصبح هؤلاء جماعة ذات نفوذ مهم في إسبانيا الإسلامية خلال القرنين الهجريين الخامس والسادس/ العاشر والحادي عشر الميلاديين وقد حافظ هؤلاء على صلاتهم ببلدانهم الأصلية وأقاربهم المقيمين هناك، رغم إسلامهم. ويوجد فرق جوهري ذو دلالة بين هؤلاء المسلمين ذوي الأصول المسيحية والمستعربين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية في إطار المجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه.

إن المعلومات التاريخيـة عن المستعربين قليلة ومتفرقة. فـالمصادر العربية قلما تتحدث عن مسيحي إسبانيا الإسـلامية. وعندما تشير إليهم فإنها تكتفي غالبًا بإيراد طرائف عنهم أو إيراد تمرداتهم السياسية. أما المصادر اللاتينية فهي تركـز على «ثورة الشهـداء» التي جرت في القـرن الثالث الهـجري/ التـاسع الميلادي أو على المسـائل المتصلة بالطقـوس الدينية والمناظرات المذهبيـة للقرن الثـاني الهجـري/ الثامن الميـلادي. وهي تفـعل ذلك بروح متـحيـزة بشكل واضح. وهذه المعلومات - على قـلتها - يجب ألا تهـمل، بل يتوجب على الباحثين إغناؤها بالتفحص الدقيق للمكانة الاجتماعية العامة لمسيحيي الأندلس في إطار المجتمع الإسلامي الذي شكل إطارًا لحياتهم ونشـاطاتهم الاجتماعية بوصفهم أقلية دينية وسـياسية. لم تكن مكانة المستعربين الاجتـماعية تختلف عن رديفتـها عند بقية المسـيحيين في الإسلام لـذا فنقطة البدء يجب أن تكون دراسة الـقانون الإسلامـي، وتطبيـقه في المشـرق والمغرب العـربي وإسبانـيا الإسلامـية. وفي هذا السيـاق يجب أن نتذكر دومًا أن النـصوص التشريعـية المتعلقة بهـذا الأمر كانت غالبًا ذات طبـيعة نظرية، أو أنها كـتبت في مرحلة لاحقـة، كما هو حال مـؤلفات ابن قيم الجـوزية الموضوعة في القـرن السابع الهجـري/ الثالث عـشر الميـلادي والذي تأثر بمشاكـل الطائفة المسـيحـية في دمـشق، وشدد على المشـاعر المعادية للمسـيـحـيين الناجمـة عن الحمـلات الصليبـية. كما يجـب ألا تغيب عنا لدى التعـامل مع نصوص من هذا النوع الطبيعة الخـاصة للأوضاع الاجتماعية المحـددة في الأندلس. وسنقوم بتفحص مكانة المسيحيين تحت ثلاثة عناوين رئيسية: كيفـية حصولهم عليها في مجتمع إسلامي، وكيف تمت المحافظة عليها، وأخيرًا كيف كان يتم فقدها (بالوفاة أو الهـجرة أو التحـول إلى الإسلام). وقـد تأثرت استـمرارية وجـود الطوائف بدرجـة كبيـرة بمدى المحافظـة على هذه المكانة التي كانت في جـوهرها ذات طبيعة اجتماعية دينية وقانونية سياسية.

حصل المسيحيون على مكانتهم القانونية والاجتماعية والسياسية والدينية من خلال عهود جرى التوصل إليها بين المسلمين والسلطات المعنية كالملوك أو الأساقفة أو رؤساء الجاليات. وهذه العهود لم تكن اتفاقات تم التوصل إليها بين أطراف متكافئة، بل كانت إقرارًا من المسيحيين بقوة الإسلام وسلطته، بما في ذلك القبول بالقانون الإسلامي وبالمكانة المعطاة للمسيحيين في المجتمع الإسلامي الواجبات المترتبة عليهم تجاه ممثلي هذا المجتمع. ولأنهم قبلوا هذه العهود أصبحوا يعرفون بالمعاهدين وأخذوا بتجديدها بشكل منتظم من خلال استمرارهم في الخضوع سياسيًا وعسكريًا وماليًا، وذلك لأن عدم الالتزام بالعهد كان يعني أن يتهموا بالتمرد. عندما كان النظام الإسلامي في إسبانيا الإسلامية في طور التأسيس أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، كان الفاتحون هم الذين يطبقون العهد وذلك بمنحه إلى السلطات المسيحية القوطية الغربية - أي العائلة المالكة والأسر المحلية الحاكمة. وتظهر الرسوم الجدارية في أحد القصور الأموية بالمشرق ملوك الأندلس ومنهم رودريكو (لذريق) ملك إسبانيا، وهم يعربون عن خضوعهم للسلطة الإسلامية الحاكمة. ولم يكن العهد بين الطرفين يكتب دومًا. ومع ذلك، هناك عهد مكتوب وصل إلى أيدينا مُوقعًا من قبل كل من حاكم القيروان نيابة عن السلطات الأموية في دمشق وتودمير حاكم أوريولا وتنص بنود العهد على أن السلطات الإسلامية تقر بحقوق المسيحيين الشخصية والاجتماعية والدينية والثقافية، وكذلك بحقهم في ملكية الأرض مقابل اعتراف المسيحيين - بوصفهم من أهل الذمة - بالسلطات الإسلامية عن طريق دفع الجزية والخضوع لقوة الإسلام العسكرية. وتتحدث كتب التاريخ العربية عن عدد من الشخصيات القوطية الغربية التي قامت بزيارة دمشق للتأكد على العهد أمام الخليفة. وفي العادة كان يتم ذكر العهد الأصلي - ولكن ليس دومًا بشكل صريح - في مجرى

تطورات تاريخية لاحقة مثل تجديده أو إيقاع العقاب بمن ثار عليه. وقد أثر العهد الأصلي على كل أتباع السلطات القوطية الغربية في إسبانيا من الناحيتين السياسية والقانونية. فقد أخذت السلطات الإسلامية تعتبر كل الإسبانيين - أي سكان شبه الجزيرة الأيبيرية والمناطق الأخرى الواقعة وراء جبال البيرينية لغاية ناربون الذين كانوا تحت سلطة القوطيين الغربيين - رعايا لها، وهو نفس ما انطبق على يهود إسبانيا. ولم يكن يهم مسلمي إسبانيا الإسلامية أن هؤلاء السكان وثنيون، أو أنهم ثاروا ضد القوط الغربيين كما حدث في جبال كنتابريا البيرينية. وفي حالات قليلة فقط حيث لم يكن هناك سلطات مسيحية معترف بها، تم اعتبار جزء من السكان مجوسًا بما يعنيه ذلك من اعتبار عهد حمايتهم من الدرجة الثانية وتقدم هذه المكانة القانونية التي أعطيت للمسيحيين الكثير لشرح علاقتهم بالسلطات الإسلامية في إسبانيا الإسلامية، وهي تفسر إلى حد ما أيضًا الطبيعة الخاصة للمسيحية في الممالك الإسبانية في القرون الوسطى. فبموجب العهد أصبح كل سكان إسبانيا التي خضعت للحكم الإسلامي يعاملون رسميًا على أنهم مسيحيون (ما نطلق عليه الآن اسم مستعربين (Mozarabs)، بما يعنيه ذلك مبدئيًا من تمتعهم بحقوق المسيحيين نفسها في أي جزء آخر من الدولة الإسلامية: أي ممارسة شعائرهم الدينية وإدارة شؤونهم الشخصية والخاصة حسب قوانينهم، والاحتفاظ بسلطاتهم والحفاظ على هويتهم الثقافية. لكن من ناحية الوضع العملي وكما سنرى، فإن الكثيرين منهم لم يتمكنوا من الحفاظ على مكانتهم تلك لفترة طويلة.

إن ما يبرر التشديد على المصاعب التي واجهتها الجاليات المسيحية القديمة في الأندلس هو بطبيعة الديانتين المسيحية والإسلامية، ومصاعب كون المرء مسيحيًا وممارسة المسيحية في بيئة إسلامية تظهر بعضًا من خصائص المجتمعين المسيحي والإسلامي. فحسب مبادئ مسيحية القرون الوسطى كان لابد من

وجود المعمودية والقساوسة للحفاظ على المجتمع المسيحي. فالمعمودية كانت ضرورية لضم أعضاء جدد للكنيسة. وهؤلاء كانوا من المسيحيين أو الوثنيين حصراً لأن القانون الإسلامي يمنع التبشير بالمسيحية في أواسط المسلمين، والحالة الوحيدة التي كان يتم فيها إجراء العماد في أوساط المسلمين هي تعميد أطفال - وبخاصة بنات - المسيحيات المتزوجات من مسلمين[1]. وطقس المعمودية يتطلب وجود قسيس واستعمال زيت مقدس مبارك من أسقف وبالتالي كان استمرار وجود الجاليات المسيحية في الأندلس يعتمد على وجود عدد كاف من الأساقفة والقساوسة لتعميد أطفال المسيحيين والمستعربين. فبدون الأساقفة لن يكون هناك زيت مبارك، ولن يكون هناك من يقوم بسيامة القساوسة. كما أن وجود عدد كاف من الأساقفة كان ضرورياً لأداء الوظائف الاجتماعية الموكلة إليهم، والتي يمكن أن ينوب عنهم فيها قساوسة أو أشخاص من خارج سلك الكهنوتية من رعيتهم للقيام بها. وأكثر من هذا، فإن تنصيب أساقفة جدد يحتاج إلى وجود عدد كاف من الأساقفة في البلاد لأن سيامة أسقف جديد تحتاج إلى ثلاثة آخرين يشاركون في السيامة، هذا إلى جانب المرشح نفسه كما كان من المهم أن يكون هناك عدد كاف من الأديرة لإعداد الأساقفة على أداء واجباتهم إذ لم يكن ممكناً اختيار أسقف إلا من بين الرهبان كما هو الحال لغاية الآن في أغلب كنائس المشرق.

وهناك وثيقة وحيدة بأيدينا تدل على وجود أساقفة في فترة الحكم الإسلامي تتعلق بجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية (قرطبة وإشبيلية ومالقة وقادس إلخ) وتشير إلى أن هذه المنطقة أصبحت تحت إشراف الكنيسة البيزنطية لجزر

(1) ميكيل دي إيبالزا، المستعربون - أقلية مسيحية مهمة في الأندلس - الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص 243.

الباليار، وهي تتحدث عن وجود أديرة في جبال قرطبة لغاية أواسط القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، وفي جبال مالقة لغاية أوائل القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، وفي منطقة غرناطة في أوائل القرن الهجري السادس/ الثاني عشر الميلادي. وفي اعتقادي كان مركز قيادة ثورة عمر بن حفصون في بربشتر (Bobastro) أحد أديرة جبال مالقة الذي كان يستعمل لإعداد الأساقفة. ومن الممكن جدًا أنه كان هناك أساقفة مرسمون، أو على الأقل قساوسة مرسمون في المناطق المسيحية الشمالية. ونحن نعلم يقينًا أنه جرت مراسيم ترسيم أسقف لطليطلة في مدينة ليون في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد. لقد كان التركيب الداخلي للجاليات المسيحية يعني أنه من الصعب عليها الحفاظ على نفسها في مجتمع إسلامي، وذلك بسبب صعوبة تأمين أساقفة وقساوسة في تلك الظروف. ولم يكن من السهل تعميد أطفال العائلات المسيحية والذين فقدتهم الكنيسة. فمن وجهة نظر الإسلام، هناك شروط معينة لابد من توافرها كيما يتمكن المسيحيون من المحافظة على مكانتهم. فالمسيحيون واليهود والمجوس لهم - بحسب القوانين الإسلامية - الحق في ممارسة أديانهم دون أن يجبروا على اعتناق الإسلام (على الرغم من وجود ضغوط اجتماعية لدفعهم إلى اعتناقه وبخاصة في حالة المحكومين بالإعدام والذين يخفف حكمهم إن هم أسلموا وبموجب القوانين الإسلامية، يخضع المسيحيون لسلطات طوائفهم الخاضعة بدورها على الصعيدين المالي والسياسي للسلطات الإسلامية. وبالنسبة إلى المستعربين، فقد كانوا يخضعون لسلطة الكنيسة أو الأسقفية، في حين كان يمثل المسيحيون الأجانب أساقفهم أو ملوكهم. وهكذا نلاحظ مرة أخرى أهمية وجود الأساقفة للمحافظة على وجود الجاليات المسيحية المحلية ومكانتها (لأن المستعربين الجدد بوصفهم أجانب ذوي إقامة مؤقتة في ديار الإسلام، لم يكونوا مضطرين للانتماء إلى

الجاليات المسيحية المحلية في الأندلس لأنهم من الناحية النظرية رعايا يتبعون بلدهم المسيحي). وبمعزل عن الجانب القانوني، كانت للسلطات الإسلامية مصلحة سياسية في الإبقاء على المسيحيين في مجتمعاتها. ويعتقد بعضهم أن هذه المصلحة مالية بالأساس، ولكن يجب ملاحظة أن عدد العائلات المسيحية الثرية القادرة على دفع جزية كبيرة كان محدوداً للغاية. كما أن أكثرية هذه العائلات اعتنقت الإسلام للخلاص من الجزية والحفاظ على امتيازاتها، في حين كانت الطبقات الفقيرة في المدن والأرياف محدودة الأهمية فيما يتعلق بمقدار الجزية التي تدفعها. والأمر الأكثر أهمية بالنسبة للأمويين كان الحفاظ على التجمع المسيحي المستعرب كرمز لسياستهم السياسية والدينية، وللتشبه بأسلافهم الأمويين في دمشق، وللاستفادة من المستعربين المسيحيين في حوارهم مع الدول المسيحية الأخرى. وهذا الجانب من السياسة الإسلامية ينطبق بشكل خاص على قرطبة حيث كان الأساقفة المسيحيون يقومون بدور السفراء والمترجمين حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومن الأحداث ذات الدلالة في هذا الخصوص أن مسيحيي قرطبة اتهموا خوستيوجيس (Hosteogis) أسقف مالقة في القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، بأنه وشى إلى السلطات المالية بأسماء الفلاحين المسيحيين في أسقفيته لكي يتم تسجيل أسمائهم على كشوف دفع الجزية. وكان الراهب القرطبي سانسون هو الذي وجه الاتهام إليه وإلى أسقف إلفيرا الواقعة بمنطقة غرناطة.

تدل هذه الاتهامات على مقدار إصرار الأساقفة على إبقاء هؤلاء الفلاحين مسيحيين وأعضاء في الجالية المسيحية التي يرأسها ويمثلها هؤلاء الأساقفة أمام السلطات الإسلامية. فإن عدم تسجيلهم كمسيحيين على الصُعُد

السياسية والدينية والمالية كان سيؤدي إلى فقدان مكانتهم كمسيحيين في المجتمع الإسلامي، وهو تقريبًا ما حصل بالضبط في المناطق كافة التي كانت تحت الحكم الإسلامي، بما في ذلك المناطق المسيحية الشمالية. وهناك نقطتان أخريان تؤكدان «نجاح» خوستيوجيس أسقف مالقة في هذا الخصوص. ويوجد بين أيدينا أدلة موثقة تعود إلى القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، وتشير إلى وجود نواتين فقط للمستعربين أولاهما في مالقة (وهم مؤيدو عمر بن حفصون وثورته)، وثانيتهما في قرطبة جاء ذكرها في سياق الحديث عن نشاطات قصر الإمارة. والنقطة الأخرى هي أننا لا نجد أثرًا لوجود مسيحي في القرنين الهجريين الخامس والسادس/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين إلا في مالقة حيث جاء ذكره في وثائق كنيسة كاثوليكية تتعلق بخلافات داخلية حول انتخاب أسقف وترسيمه. وعندما قام ألفونسو الأول بحملته العسكرية لتجنيد مسيحيين من إسبانيا الإسلامية لإحكام سيطرته على المناطق الجديدة التي استولى عليها في وادي إيبرو، نجح في ذلك في المناطق الريفية التي جند الكثير من سكانها. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من نسل الفلاحين المسيحيين الذين وردت أسماؤهم في سجلات الجزية والضريبة، أو من نسل مسيحيين لم يتمكنوا من الحفاظ على مكانتهم القانونية نتيجة لعدم وجود قساوسة، رغم محافظتهم على تقاليدهم المسيحية. وقد أكد المجندون من غرناطة أنهم عمدوا. وبسبب وجود قساوسة ودير واحد على الأقل في مالقة وغرناطة، أمكن الحفاظ على استمرارية وجود تجمعات مسيحية. وفي هاتين المنطقتين على وجه التحديد، قام الأسقفان بتسجيل المسيحيين في سجلات الجزية والضريبة في القرن الهجري الثالث/ الميلادي التاسع.

غير أنه لا يمكننا اعتبار سكان ريف هذه المناطق والذين لم يجر تعميدهم، مسيحيين، رغم أنه كانت لديهم تقاليد سابقة على الإسلام. كما

أن أحدًا من المسلمين أو المسيحيين لم يعتبرهم في حينه كذلك. لقد فقد هؤلاء مكانتهم القانونية كمسيحيين نتيجة عدم قدرة الكنيسة على إيجاد وسيلة بديلة لاعتمادهم كمسيحيين (غير التعميد)، ونتيجة لطبيعة وبنية السلطة الكنسية التي تشترط وجود رجال دين مرسومين، وبالأخص أساقفة. وإذا كان من الصعب على المستعربين من نسل القوط الغربيين المسيحيين أن يحافظوا على مكانتهم كمسيحيين، فلابد أنه كان من الصعب أيضًا على المستعربين الجدد، أي الأجانب القادمين إلى إسبانيا الإسلامية من خارجها، أن يفعلوا الشيء ذاته. ورغم معرفتنا بأن بعضهم اندمج في تجمعات المستعربين، مثل العسكري القرطبي الذي اعتبر شهيدًا في أواسط القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، إلا أن الآخرين منهم تكبدوا مشاق كبيرة للحفاظ على وضعهم كجالية مسيحية أجنبية (مثل مسيحيي - وكذلك يهود - دانية الذين كانوا في القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي يعتبرون برشلونة قيادتهم الروحية، أو مسيحيي طرطوشة الذين كانت لهم صلات مع برشلونة، أو مسيحيي سرقسطة ووشقة ولاردة الذين حاولوا إقامة صلات أوثق مع المناطق المسيحية في جبال البرينية، أو مسيحيي طليطلة في القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي، أو مسيحيي ليون، أو مسيحيي بلنسية في القرن الهجري السابع/ الثالث عشر الميلادي وغيرهم). غير أن هؤلاء المستعربين الجدد سرعان ما اعتنقوا الإسلام (كما هو حال الصقالبة)، أو عادوا إلى مواطنهم الأصلية كما فعل سيناندو وافيدير ومسيحيو سدّ في بلنسية (الذين عادوا مع أسقفهم الفرنسي الذي كان عند وفاته أسقفًا لسالامنكا (شلمنقة). ولم يكن حفاظ هؤلاء على نصرانيتهم ووضعهم القانوني كمسيحيين مختلفًا - في صعوبته أو سهولته - عما لاقاه أبناء دينهم من أسلاف القوط الغربيين.

إن الصعوبة التي لاقاها المسيحيون في الحفاظ على وضعهم القانوني كمسيحيين داخل المجتمع الإسلامي هي التي تشكل المسألة الأساسية لدى الباحثين عند دراسة اعتناق مستعربي الأندلس، أي المسيحيين، الإسلام[1].

اعتناق سكان إسبانيا الإسلام:

يقول ليفي بروفنسال: بعد فتح العرب لإسبانيا لم يفكروا إطلاقًا في فرض عقيدتهم الإسلامية على الشعوب الخاضعة لهم، لأنها تنتسب لما يسميه المسلمون «بأهل الكتاب»: أي أصحاب نصوص نزل بها الوحي من السماء. ولما كان الإسلام يمنح «أهل الكتاب» معاملة مفضلة، فقد كان من حق يهود إسبانيا ومسيحييها التمسك بدينهم وممارسة شعائره في حرية تامة. ويكفي للتدليل على هذا بنص الصلح - الذي قدمناه آنفًا - بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وبين الأمير القوطي «تدمير» عام 713 م (94 هـ) والذي يضمن فيه عبد العزيز لتدمير ولرعاياه عدم التعرض لممارسة شعائرهم الدينية أو المساس بدور عبادتهم. وعلى هذا الأساس، فقد كان من حق جميع الرعايا الجدد للمسلمين المتنصرين الاختيار بين: اعتناق الإسلام أو البقاء على ديانتهم الأصلية. بالاختيار الأول يتمتعون - سادة وعبيدًا - بكل ما للمسلم الأصلي النشأة من حقوق وواجبات، وبالاختيار الثاني يتحولون إلى «ذميين» عليهم الوفاء ببعض الالتزامات ومنها سداد ضريبة سنوية (جزية). وعلى ضوء هذا اختار كثير من الإسبان دون تردد - وخاصة هؤلاء الذين كانوا يشعرون بغبن في ظل النظام القوطي - الدخول في الإسلام، ومن جانبنا، نظن أن المسلمين المنتصرين ربما لم يستهوهم هذا التحول الجماعي للإسلام من جانب سكان شبه جزيرة أيبيريا نظرًا للعوائد الضريبية الكبيرة التي كانت ستحصل منهم لو

(1) ميكيل دي إيبالزا، نفس المرجع، ص 248.

استمر معظمهم على ديانته الأصلية نسي ليفي أن المسلمين كانوا يؤدون الزكاة للدولة، وهي الضريبة التي كانت تقابل جزية الذميين. لكن علينا - في ذات الوقت - أن نأخذ في الحسبان أن دواعي الأمن والسياسة الفطنة لم يكن يناسبهما زيادة عدد «الذميين» على عدد المسلمين. على أية حال، فلم يكن دخول الرعايا الجدد في الإسلام يمثل مشكلة في الأندلس خلال القرن الثامن لأنه جاء نتيجة لاختيارهم الحر ولم يفرضه أحد عليهم. ومن الآن فصاعدًا سيمثل هؤلاء الإسبان المتحولون إلى الإسلام غالبية الشعب الأندلسي المسلم وخاصة في الأقاليم الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة. ولن يغادر معظم أحفادهم بعد عدة قرون - مثلهم في هذا مثل أحفاد العرب والبربر المستقرين منذ زمن طويل - أرض إسبانيا عندما آلت بكاملها إلى المسيحية. وقد أطلق قديمًا على المسلمين الجدد لفظ «مسالمة» أو «مولدين» (مفردها «مولد». وفي الإسباني القديم «مولاي» (Muladi): ويبدو أن كلمة «مسالمة» كانت تطلق على الإسبان المتحولين إلى الإسلام. أما الكلمة الثانية (مولدون) فكانت تطلق على ذراريهم (أبنائهم وحفدتهم). كما يبدو أن تحول الإسبان الأوائل إلى الإسلام (أو المسلمون الجدد، الذين سنطلق عليهم من الآن لفظ «المولدين») قد تم سريعًا وفي زمن قصير، وأنه بعد عدة أجيال كان من الصعب التمييز بين أحفادهم وأحفاد المسلمين القادمين من خارج شبه جزيرة أيبيريا. ومما لا شك فيه أن أعداد هؤلاء المسلمين الإسبان قد تضاعف خلال القرن التاسع نظرًا لتحول جماعات جديدة للإسلام نتيجة لحزم وصرامة بعض أمراء قرطبة الأموية ولتعصب الأقلية المستعربة النشطة.

تلقب الكثيرون من المولدين الأحرار والعبيد، والمتبنين بألقاب أسيادهم ونسوا بالتدريج أصولهم، كما أصبح العديدون من المنحدرين عن هؤلاء المسلمين الجدد برجوازيين أثرياء بل وأعيان أقوياء جمعوا ثروات طائلة من

الاشتغـال بالتجارة أو الزراعة وتناسوا بمرور الزمن أن أسـلافهم كانوا يقطنون إسبانيـا قبل أن يدخلها الإسلام. وبعـضهم الآخر اشترى بـالذهب الانتساب لعائلات كريمة لـكي يتمكن من التباهي بأصـوله العربية. كما فـضل البعض الاحتفاظ بأسماء عائلاتهم الرومانيـة للتميز عن غيرهم، مثل بني «أنخيلينو»، بني «سارباريكو»، بني «لونجو»، بني «كابتورنو» . . . إلخ. وكان ابن القوطية نفسه (وهو أحد المؤرخـين العرب) يفتخر في القرن العاشـر بأصوله التي تمتد لعائلة الملك غيطشة وبلقبه (الـقوطي) الذي يعكس هذا الانتساب. وبالإضافة إلى ما تقـدم، فإن المصـاهرة المستـمرة بين المولدين والمسلمين «الداخـلين» قد محت من ذاكرة هؤلاء المولدين أصولهم الإسبانية البـعيدة. لقد حدث امتزاج قوي وسريـع بين الشعوب الأندلسيـة يصعب من خلاله، وخاصـة كلما طال الأمد، التمييـز بين العناصر الوافدة وأبناء البلد الأصليين. وبالرغـم من هذا، فلم يفقد المولدون أبدًا - دون بقية من ترك دين أسلافه وتبنى النموذج الحياتي للمسلمين الداخلين وتقاليدهم - شخصيـتهم الإسبانية. وبفضل هذا الامتزاج غير العادي تمتعت الأندلس بملامح ذاتية خاصة داخل العالم الإسلامي، سواء بالنسبـة لحياتها السـياسية أو وعيـها الثقافي والحـضاري. ومن المهـم ألا ننسى كذلك أن اللغة العربية لم تكن هي اللغة الوحيـدة المستخدمة منذ القرن الثامن وحتى الخـامس عشـر، ذلك لأن عددًا لا بأس به من السكان كـان يستـخدم أيضًا في الحـديث اللهجات الرومـانية المشـتقة أساسًـا من اللاتينية والمطعـمة بمفردات عـربية وأيبـيرية. ولا يوجـد ما يمنع من التـأكيد بتـفوق اللهـجات الرومانية - حتى عصر متأخر من تاريخ إسبانيا الإسلامية - على اللغة العربية (ومن باب أولى على اللغة البـربرية) خاصة في المناطق الريفيـة والزراعية[1].

---

(1) ليفي بروفنسال، الحضارة العربية الإسبانية في الأندلس، ص 81.

لقد كان اعتناق أغلب سكان إسبانيا الإسلامية الإسلام خلال فترة تربو على ثلاثة قرون إحدى أكثر المسائل إثارة للاهتمام لدى دراسي التاريخ الأندلسي. فإسبانيا كانت بلادًا مسيحية عند الفتح الإسلامي أوائل القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، غير أنه بحلول القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي أصبحت بلدًا إسلاميًا بأغلبيته الساحقة لا تذكر المراجع المتوفرة عنه المسيحيين إلا بشكل مبعثر تمامًا. فالمراجع العربية والمسيحية، على حد سواء، تحيط اعتناق الجماهير الإسبانية الإسلام بجدار من الصمت الذي لا يمكن تفسيره. والنصوص اللاتينية المتوفرة لدينا والتي تعود إلى القرنين الهجريين الثاني والثالث/ الثامن والتاسع الميلاديين، لا تأتي على ذكر هذا الفقدان الهائل للمسيحيين. ومع أن بعضهم يشكون من أن المسيحيين أصبحوا يفقدون لغتهم، إلا أن أيًا منهم لا يتحدث عن فقدهم دينهم. ولا يعثر المرء في النصوص المتوفرة على أية أمثلة للأزمة الدينية، باستثناء ما نجده عن شهداء قرطبة وعائلاتهم في أواسط القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي. وهذه الأمثلة تتعلق غالبًا إما بأطفال الزيجات المختلطة، أو المسيحيين الذين يحكمون بالإعدام لأنهم جدفوا ضد الإسلام، والذين يمنحون فرصة الحفاظ على حياتهم إن هم أسلموا. وهناك أيضًا إشارات غير مباشرة إلى اعتناق بعض سلالات عائلات قوطية غربية نبيلة الإسلام مثل (بنو قاسي) في وادي إيبرو، أو الذين أطلق عليهم اسم المسالمة والصقالبة الذين تجيء المصادر العربية على ذكرهم أحيانًا. وتورد المراجع القانونية الإسلامية صيغًا مختلفة لاعتناق المسيحيين الإسلام، لكن هذه الصيغ تنطبق على الأفراد وقد تكون استعملت على امتداد تاريخ الأندلس لدى قبول المسلمين مستعربًا جديدًا أسلم، ومن غير المرجح أن تكون لهذه الصيغ علاقة بالمسيحيين الذين أسلموا في فترة مبكرة في القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي. لقد أدى عدم وجود

إشارات مباشرة بشأن اعتناق المسيحيين الإسلام إلى ظهور ثلاث مقاربات منهجية متميزة تستهدف التوصل بشكل غير مباشر إلى فهم كيفية اختفاء المستعربين. وأول هذه المقاربات التي يمكن أن نطلق عليها اسم «الاقتراب المتواصل» والمفضلة تقليديًا من قبل علم التاريخ الإسباني بداية من العمل الهائل لسيمفونية وبحسب هذه المدرسة الفكرية فإن عملية اعتناق المسيحيين الإسلام كانت بطيئة للغاية إذ بقي في الأندلس عدد مهم من المستعربين لغاية القرن الهجري السادس/ الثاني عشر الميلادي. ومن الدعائم الرئيسية لهذه النظرية استمرار وجود تجمع مهم للمستعربين في طليطلة المسيحية في نهاية القرن الحادي عشر للميلاد، (رغم أنه أصبح معروفًا لدينا الآن أن التمردات التي وقعت فيها في القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، لا تعني أنه كان فيها وجود مسيحي. ورغم أن روبييرا أثبت أن كثرة من مستعربي القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي كانوا من أصول إسلامية وليس من أخلاف المسيحيين المحليين. وبموجب هذه النظرية فإن سبب عدم تكرار ذكر المسيحيين في الوثائق العربية واللاتينية الباقية إلى الآن يعود إلى ثانوية مكانتهم في المجتمع الإسلامي، أما الإشارات النادرة إليهم فهي تتعلق بالشخصيات البارزة من المستعربين (وليس من المستعربين الجدد). وبموجب هذه النظرية فإن هجرة الرهبان والأساقفة إلى المناطق المسيحية الشمالية (وبخاصة في القرنين الهجريين الثاني والثالث/ الثامن والتاسع الميلاديين) هي دليل على أهمية الكنيسة المسيحية في إسبانيا الإسلامية. وحتى بعد الأخذ بعين الاعتبار قيام بعض مؤرخي الفترة السابقة على القرن الثامن عشر الميلادي بتزوير بعض الوثائق، فإن الكتب الموضوعة عن سير حياة بعض أساقفة الأبرشيات القوطية الغربية القديمة توفر دليلاً على استمرار جود هذه الأبرشيات، على رغم أن بعض أسماء هؤلاء الأساقفة قد لا يكون قد حفظ. وبحسب هذه المدرسة،

فإن انتهاء وجود المستعربين المسيحيين جاء نتيجة اضطهاد المرابطين والموحدين في القرن الهجري السادس/ الثاني عشر الميلادي. وبالتالي، ترى هذه المدرسة أن عدم ورود ذكر المستعربين في المصادر العربية يعود إلى قصورها، حيث لم يكن لدى واضعيها أي اهتمام بالمستعربين كما هو موقفهم تجاه مظاهر كثيرة أخرى من الحياة الاجتماعية. أما المقاربة الثانية من موضوع اعتناق المستعربين الإسبان للإسلام فهي «الاسمية» القائمة على أساس أسماء الأعلام، والتي كانت مفضلة من قبل العلامة الأمريكي الشمالي ر. بولييت وعدد من مؤرخي الأندلس اللاحقين، وإن كان مع بعض التحفظات. وتستهدف هذه المقاربة المبتكرة تجاوز عقبة صمت المصادر عن تحول المستعربين إلى الإسلام باللجوء إلى المعطيات التي توفرها المصادر العربية عن أسماء الأعلام وتسلسل نسبهم. وبحسب هذه المدرسة البحثية، فإنه بإمكاننا في حال العثور على اسم عائلة له وقع إسباني أن نستنتج أن أول شخص اعتنق الإسلام منها هو ذلك الذي يحمل أول اسم إسلامي في تسلسل نسبها. وإذا قمنا بمتابعة هذه المعلومات إحصائيًا، يكون بإمكاننا تطبيق النتائج التي نتوصل إليها على كل الجالية المسيحية في إسبانيا الإسلامية - كما في بقية البلدان الإسلامية - من أجل رسم (منحنى بياني لاعتناق الإسلام). وعلى أساس هذه المنهاجية، توصل بولييت إلى استنتاج مفاده أن ذروة هذا المنحنى - فيما يتعلق بإسبانيا الإسلامية - كانت في القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي الذي كان نصف سكان إسبانيا الإسلامية قبل منتصفه ما زالوا على مسيحيتهم. إن القيمة الرئيسية لهذه المقاربة تكمن في وسائلها المبتدعة لتناول موضوع اعتناق المستعربين الإسلام، ذلك لأن الاستنتاجات التي تتوصل إليها ليست مفاجئة إطلاقًا، كما أنها في ذاتها (أي المقاربة) أكثر ملاءمة لدراسة الجاليات المسيحية في الشرق الأوسط - والتي لأجلها وضعت أصلاً - منها لدراسة الأندلس

حيث تبدو تصوراتها واضحة. فهذه المقاربة لا تأخذ في الاعتبار ضعف البنى الكنسية اللازمة للحفاظ على مكانة المسيحيين على الصعيدين الديني والقانوني. وفيما يتعلق بتحليل الأسماء الإسلامية، فإنه من غير المؤكد أن اتخاذها يعني بالضرورة اعتناق الإسلام، ذلك لأن بعضهم قد يغير اسمه استجابة لضغوط اجتماعية أو لمجاراة العرف السائد. ورغم أنه يمكن قبول فكرة أن هزيمة عمر بن حفصون وسيادة الثقافة العربية الإسلامية أدتا إلى ظهور رد فعل ضد كل ما له علاقة بالثقافة اللاتينية في القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، إلا أنه ليس من الحكمة ربط استعمال كلمات أو أسماء لاتينية بالمكانة الدينية للمسيحيين. فمن الممكن جدًا أن يكون مسلمو إسبانيا الإسلامية قد حافظوا على هذه التقاليد اللاتينية وظلوا مع ذلك معتبرين مسلمين من الناحية الدينية والاجتماعية. ومن الجهة الثانية، فإن تفسير انقطاع تسلسل الأسماء بوجود تحول إلى دين آخر ليس مقنعًا بما فيه الكفاية. فبحسب نظام النسب لدى العرب، يمكن أن تنشأ هذه الانقطاعات لأسباب أخرى كثيرة مما يجعل تحديد تاريخ اعتناق الإسلام يتغير بالضرورة. وأخيرًا، فإن عينة الأسماء التي درست لم تكن كبيرة (154 تسلسل نسب فقط)، وانحصرت أساسًا في مجموعات اجتماعية ذات أصول قرطبية. لذلك، لم يكن من المفاجئ أن أيًا من المصادر الإسلامية أو المسيحية أو الأجنبية أو من مصادر المستعربين لم يشر البتة إلى حقيقة أن نصف سكان إسبانيا الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كانوا من المسيحيين. أما المقاربة الثالثة (وهي التي يقترحها كاتب هذا الفصل، فيمكن تسميتها «مقاربة قانون المسيحي والمسلم»). وعلى الرغم أنه من الصحيح أن المجتمع القوطي الغربي كان مسيحيًا، غير أنه يجب عدم تجاهل حقيقة أن البنية الكنسية لذلك المجتمع كانت عاجزة عن تلبية متطلبات السواد الأعظم للسكان والذي كان يعتبر

مسيحيًا من الناحية الرسمية عند الفتح الإسلامي. وتجلت أبرز مظاهر هذا العجز في مجالين رئيسيين لهما أهمية دينية وسياسية هما أولاً إجراء مراسم التعميد بوصفه الوسيلة لإدخال أعضاء جدد إلى الجاليات المسيحية، وثانيًا دور الأبرشيات كمؤسسات لتعزيز قوة هذه الجاليات وتمثيلها أمام السلطات الإسلامية الحاكمة. ونتيجة لذلك خسرت الكنيسة المستعربة القسم الأكبر من سكان شبه الجزيرة الأيبيرية لصالح الإسلام، إذا لم يعد بإمكانهم التحول إلى الوثنية أو البقاء على مسيحيتهم. كما أن العملية نفسها جرت في مناطق الشمال الجبلية التي كان سكانها الأصليون قد تنصروا عندما وقعت مناطقهم تحت سلطة حكومة مسيحية. ولم تبق مسيحية إسبانيا الإسلامية منظمة إلا في بعض المناطق الحضرية وشبه الحضرية الصغيرة التي تمكنت من الحفاظ على تسلسل الأساقفة كما كان الحال في بعض الجاليات المسيحية ذات الأهمية الرمزية، وبخاصة في إقليم إسبانيا الإسلامية بالنسبة إلى السلطة السياسية في قرطبة، والتي وفرت لها الحماية رغم وجود أسباب قوية تدفعها إلى اعتناق الإسلام مثل الضغوط الاجتماعية من المسلمين وفقدان العالم المسيحي مكانته الحضارية. وقد تعززت قوة هذه الجاليات عندما تم في وقت لاحق تسجيل فلاحي منطقة مالقة وغرناطة (وربما قرطبة وقادس) على أنهم مسيحيون. وبالنسبة إلى المجتمعات الريفية التي اعتنقت الإسلام اسميًا، فقد حافظ القسم الأكبر على هويته الثقافية التقليدية مما جعل عودتها إلى المسيحية أكثر سهولة بعد الاستيلاء على طليطلة والجزء الشرقي من شبه الجزيرة. لذا، ولكل هذه الأسباب، فإني مقتنع بأن اعتناق مسيحيي أيبيريا الإسلام كان ظاهرة جماعية لها أسباب بنوية دينية وسياسية، وأن عملية التحول إلى الإسلام جرت على نطاق واسع خلال القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي. ومع ذلك استمر وجود أنوية مسيحية صغيرة وحسنة التنظيم خلال الحكم الأموي (بين القرنين

الهجريين الثاني والخامس/ الثامن والحادي عشر الميلاديين في مدن إسبانيا الإسلامية وبعض المناطق الريفية الجنوبية. وقد ازداد عدد هذه التجمعات بفعل انضمام مستعربين جدد أجانب إليهم. لذا يجب اعتبار عملية «أسلمية» شبه الجزيرة الأيبيرية مشكلة من مرحلتين: في الأولى منهما جرت عملية الأسلمة على نطاق جماهيري واسع خلال عدة أجيال بعد الفتح، وفي الثانية جرت عملية الأسلمة الحقيقية للحياة الاجتماعية. وعملية الأسلمة هذه كانت بطيئة وذات آثار محدودة نسبيًا على المسيحيين، إذ كانت تتعلق أساسًا بالسكان المسلمين الذين كانت لهم صلات عامة بالمسيحيين الذين عاشوا معهم في مجتمع كانت ما تزال له خصائص إسبانية. ومن وجهة نظر التجمعات المسيحية، فإن هاتين المرحلتين تتطابقان أولاً مع المسيحية الرسمية للمجتمع القوطي الغربي الذي هزمه المسلمون، وثانيًا مع «التنصير» الفعلي الذي جرى بعد الفتح، والذي تحقق عبر تجمعات مسيحية صغيرة أصبحت وريثة الكنيسة الغربية. فاعتناق الإسلام كان «رسميًا» بشكل رئيسي: الجماهير المسيحية من الناحية الرسمية (أي المسيحية لأن سلطاتها كانت كذلك) أصبحت مسلمة رسميًا لأن هذه السلطات طلبت منها أن تكون مسيحية بطريقة محددة كي تستطيع المحافظة على مكانتها المسيحية. وفي الشرق الأوسط أمكن تحقيق هذا الشرط لغاية الوقت الحالي بفضل إمكانية بقاء المسيحي مسيحيًا بموجب هذا الترتيب المحدد[1].

العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة:

كان فتح المسلمين لشبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) فاتحة عصر جديد، وبداية تطور هام بالنسبة لها، فقد كانت تعاني قبل الفتح الإسلامي لها من

(1) ميكيل دي إيبالزا، نفس المرجع، ص 253.

كثير من مظاهر الجور والعسف والاستبداد تحت حكم القوط، حيث كانت أقلية من الحكام والأمراء والنبلاء تتمتع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب أغلبية فرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال، فلما جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله، وأشاع مبادئ العدالة والمساواة والحرية. وأقبل عليه الكثير من أهل البلاد، لما لمسوه فيه من قيم ومبادئ نبيلة خلصتهم مما كانوا فيه. أما من بقي على دينه منهم: فقد ترك لهم المسلمون الفاتحون الحرية الكاملة في ممارسة شعائر عقائدهم الدينية، وضربوا بذلك مثلاً أعلى في التسامح. كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة عليهم، واكتفوا منهم بأداء الجزية التي كانت تتراوح قلة أو كثرة على حسب مقدرة الشخص المالية.

وكان الخراج يفرض بالتساوي على من يجوز الأرض سواء كان مسلمًا أو ذميًا. وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الإقطاع والرق القديم، وتملكوا الأراضي وأصبح لهم حق التصرف فيها. ولم يكن لهم هذا قبل الفتح. وقد عومل أهل الذمة في إسبانيا الإسلامية بمقتضى معاهدات تنظم ذلك، ويعتبر العهد الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حاكم شرق إسبانيا الإسلامية خير مثال لذلك. وهذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير ابن غندر يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه، وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل، وذمة محمد صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له وألا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن، وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتمنا خبرًا علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية

من ذلك على كل حر دينار وأربعة أمداد من قمح، وأربعة أمداد من شعير، وأربعة أقساط خل وقسطًا عسل وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف هذا - شهد على ذلك عثمان بن عبد الله القرشي، وسليمان بن قيس التجيبي، ويحيى بن يعمر السهمي، وبشير بن قيس اللخمي، ويعيش بن عبد الله الأزدي، وأبو الأصم الهذلي، وكتب في رجب سنة أربع وتسعين». ولقد استطاع المسلمون الفاتحون أن يقضوا في أعوام قليلة على الكثير من عناصر القلق والاضطراب، وأن ينظموا إدارة البلاد، فقد أبقوا أهل الذمة شرائعهم وقضائهم، وعينوا لهم حكامًا من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعون الضرائب المقررة منهم، ويفصلون بينهم في الأحكام، كما عينوا الكثير من الأكفاء منهم في مناصب هامة في الدولة مثل أرطباس الذي عينه عبد الرحمن الداخل أول قومس للنصارى بإسبانيا الإسلامية، وجيزون قاضي النصارى بقرطبة الذي عينه الحكم المستنصر واتخذه إلى جانب ذلك مترجمًا له، وحسداي بن شبروط اليهودي الذي اتخذه الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبًا خاصًا له وغدا من أصحاب النفوذ والثراء في عهد المستنصر. وهكذا تمتع أهل الذمة بالكثير من الحقوق في ظل الحكم الإسلامي، وكان لهذا التسامح أثره في رضائهم بالنظام الجديد، واعترافهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقوط كما يقول لين بول. ويعترف بهذه الحقائق بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين المعتدلين فيقول دوزي مثلاً: «لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحدًا في شؤون الدين، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج. ويقول معترفًا بآثار الفتح الإسلامي الإيجابية «كان الفتح العربي نعمة لإسبانيا، فقد أحدث

ثورة اجتماعية هامة، وقضى على الكثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد من قرون . . إلخ». ويقول لين بول: «يجب ألا يخطر ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم، فإن إسبانيا الإسلامية لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين». ويقول أيضًا «وكان للإسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات، ويجمعون الضرائب، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف. وكان التسامح الديني سائدًا فلم يدع للإسبان سببًا للشكوى».

يقول المؤرخ الأمريكي سكوت: «كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يهاجر بآرائه دون خشية، والأحبار يزاولون شؤونهم في سلام. أما أقوال الكتاب النصارى التي ينسبون للعرب فيها أفظع المثالب فهي محض مبالغة وافتراء». وإن كنا لا نوافقه في أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بآرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التي سيأتي ذكرها. وينوه المؤرخ الأمريكي الدكتور (لي) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية، وعن بعض الأجناس والتفرقة بينها[1]. ويذكر المستشرق (التاميرا) أن أغلبية الشعب الإسباني بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضاتها وأساقفتها، وكنائسها، بالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل، وقنع الولاة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية. وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصًا من الاعتراف بذلك مثل

(1) حسن يوسف، المرجع السابق، ص 139.

المستشرق الإسباني سيمونت الذي يقول «إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة. انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقتهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض، أو للخلاص من دفع الجزية، أو لرفع مكانته الاجتماعية. ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين - وسموا بالمسالمة - أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقلون شيئًا فشيئًا وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم. وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم - برغم بقائهم على دينهم - فأخذوا يقلدونهم في كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموا بالمستعربين. وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضًا من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت في فتحهم لإسبانيا خلاصًا لها من الجور والاضطهاد الذي كانت ترزح تحته أثناء حكم القوط. وبالرغم من هذا التسامح التام الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى، إلا أن فريقًا من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مغتصبون، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمروق والخيانة للدين والوطن. وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعامته، يبذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها، وكانوا يبغضون المسلمين، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسلمين من إسبانيا. وكان تغلغل

حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد أحدث رد فعل قوي لديهم فأخذوا يبدون أسفهم الشديد وتحسرهم لذلك. وحاولوا عبثًا وقف هذه الحركة دون جدوى، فلم يجدوا أمامهم سبيلا إلا الطعن في الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيهم معتمدين على طائفة من الخرافات والأباطيل التي يروجها رجال الكنيسة. ولم تكن العوامل الدينية هي وحدها مبعث ذلك التعصب، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضًا دور في ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير قلوبهم ما يحيط بالحكم الإسلامي في إسبانيا الإسلامية من مظاهر العز والسؤدد، وما يظهر به الحكام المسلمون من مظاهر الفخامة والعظمة، وما ينعم به المجتمع الأندلسي من حياة رغدة آمنة مستقرة. وكان يذكي هذا الحقد في نفوسهم ما يتعرضون له - نتيجة لتعصبهم - من معاملة خشنة وخاصة من العامة. وبلغ هذا التعصب مداه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي بدأت حضارة إسبانيا الإسلامية في عهده في التألق، وأصبحت إسبانيا الإسلامية في عداد الدول العظمى في العالم الإسلامي والمسيحي على السواء. وكان في وسع هؤلاء المتعصبين في طليطلة وغيرها من المدن البعيدة عن العاصمة «قرطبة» أن يرفعوا علم الثورة أو ينضموا إلى الثورات التي تقوم ضد الأمويين، ولكنهم في قرطبة قاموا بحركة دينية خطيرة 237 هـ حيث عمدوا إلى تحقيق أهدافهم بوسيلة بسيطة وخطيرة في نفس الوقت وهي المجاهرة بسبب الإسلام ونبيه في الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا على ذلك، وأن تلك جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة القتل، غير أنهم انزلقوا في هذا المنحدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين فيؤدي ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة. يذكر أن هذه الفتنة التي سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحوار دار بين قسيس من قرطبة يدعى برفكتوس مع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعيسى، وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس في الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم مما أدى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استغلال ذلك وعلى رأسهم يولوخيوس للقيام بدعاياتهم ضد الإسلام. وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولخيوس أو (إيلوج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الإسبان الذين اعتنقوه، ويحبب لأتباعه الاستشهاد في سبيل نصرة المسيحية ضد الإسلام، وكان يساعده في ذلك شاب مسيحي من أغنياء قرطبة يدعى (الفارو) أخذ ينتقد الإسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وآدابها ويتركون اللاتينية وشروحها. وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى (برفكتوس)، وفتاة إسبانية تدعى (فلورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت. وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معًا، فاستدعى مجلسًا من الأساقفة عقد في قرطبة برئاسة (ريكفارد) مطران إشبيلية، ومثل الأمير في هذا المجلس كاتبه النصراني جوميز بن أنطونيان بن جوليان عامل أهل الذمة يسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانه وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وسمي بحمامة المسجد. وتم في هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الغلاة من عواقب خطيرة، وأصدر المجلس قرارًا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين، ويحذر باقي النصارى من الانضمام إليهم، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك. غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة، فقد تمادى هؤلاء في غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم في السجون، وقدموا للمحاكمة فأخذوا يطلقون ألسنتهم بالسب والقذف في الإسلام ونبيه، وحاول القضاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجد نفعًا، عند ذلك أخذوا يحكمون عليهم بالقتل جزاء ما يصنعون، وكان الأحبار يكرمون رفات هؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضرامًا، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فرأوا عدم مقابلتها

بالعنف حتى لا تزداد اشتعالا فأخذوا في مراجعة هؤلاء المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتل ولكنهم كانوا يطالبون بالموت حتى يلحقوا بإخوانهم الشهداء، حتى أن القاضي الذي حاكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن أخذت تطالبه بالحكم عليها بالإعدام وتمادت في السب والقذف أمامه حتى حكم عليها بالموت، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحو أحد عشر متعصبًا في شهرين. واعتقل يولوخيوس وغيره من زعماء الحركة، ورغم ذلك استمرت الفتنة، ولما توفى الأمير عبد الرحمن أفرج عنه وعين أسقفًا لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هذه الفتنة فهدأت قليلا، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبض عليه وأعدم في مارس 245 هـ/ 859 م بأمر من الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن، وبقتله أخذت الفتنة تضعف شيئًا فشيئًا حتى زالت، وهكذا انتهت هذه الفتنة الخطيرة التي استمرت ما يقرب من ثماني سنوات 237 هـ/ 851 م - 245 هـ/ 859 م ولم تحقق شيئًا من أهدافها بل على العكس أدت إلى مقتل نحو أربعة وأربعين من المتعصبين، وإلى إثارة السخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يقدرون تسامح المسلمين[1].

* * *

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 134.

الحياة الاجتماعية للطبقات العامة

أطنبت الدراسات المعاصرة في الحديث عن تعدد العناصر الأثنية بالأندلس. منها ما ركز على إبراز الاندماج العميق الذي حدث فيما بينها خلال عصر الخلافة، في اتجاه خلق نوع من «الوعي الوطني والتجانس الاجتماعي» وأخرى على العكس، تشددت في الإقرار باستمرار الانقسام بين الأهالي والدخلاء. في حين اختار البعض موقفًا وسطًا بين الطرفين. وتكمن أسباب الاندماج بالنسبة لدعاته في انتماء أغلب الطوائف للعقيدة الإسلامية واشتراكها في كراهية العباسيين إضافة لانسجام الوسط الجغرافي بينما علل الآخرون موقفهم، بحفاظ الدخلاء على تماسكهم القبلي - العشائري دون أن يجبرهم الاعتراف بشح المادة التاريخية عن الحذر من تعميم هذا الاعتقاد على عصر الخلافة على أن ما يجمع بين هؤلاء وأولئك هو، النظر إلى البناء الاجتماعي بمعزل عن تلك التحولات الاقتصادية العميقة التي شهدتها البلاد خلال القرن الرابع الهجري. ولعل في رصد العناصر المكونة لمجتمع إسبانيا الإسلامية في بنيتها الداخلية، في علاقاتها مع بعضها البعض ومع الدولة، ما يكشف عن التركيب الأثني - الطائفي لطبقات العامة. بالغ الدارسون في التقليل من الأهمية العددية للعرب بإسبانيا الإسلامية ولم يتورع أحدهم عن إجراء تحليل كيميائي بالأرقام، لنسبة الدم العربي، ليخلص إلى إقصاء العرب من الخريطة الأثنية. ولا غرو، فقد أغفلوا أهمية الهجرة العربية المدنية المستمرة، والتي تكشف عن بعض خيوطها كتب الطبقات واقتصروا على إحصاء الجماعات العسكرية. كما استندوا على الاعتقاد الشائع بأن العرب دخلوا الأندلس رجالا محاربين، مما اضطرهم إلى اتخاذ نساء إسبانيات. وهو ما فنده مؤرخ إيطالي من أهل القرن الثامن، في إقراره بأن العرب الذين فتحوا جنوب فرنسا «استقروا فيها بنسائهم وأطفالهم». نجد تأكيد ذلك، فيما

أورده الخشني عن عبد الرحمن بن معاوية، الذي بعث رسولاً «إلى الشام ليأتيه بأخته أم الأصبغ فأبت الانتقال وقالت: كبرت سني، وأشرفت على انقضاء أجلي ولا طاقة لي على شق البحار والقفار». بما لا يدع مجالاً للشك في ترحيل أغلبية الداخلين إلى إسبانيا الإسلامية لعائلاتهم. فكم من عربي دخل «الأندلس في عصابة من ولده» بل ومن النساء العربيات، من تبوأ مراكز قيادية. فقد عقد الأمير محمد لأحدهم «على إشبيلية وعقد أيضًا لإمارته عليهم تعصبًا للمضرية، إذ فخر عليها رجل يماني باليمانية وكثرتها». ولدينا من القرائن ما يدل على تفوق نسبة العرب بقرطبة. فبالإضافة إلى ما هو معروف عن استقرار أكثرهم في الحواضر يقول ابن بسام «أكثر أهل بلاد هذا الأفق أشراف عرب». أكد ذلك غيره بالقول: «ففيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية». ولا غرو، فخلال ولاية أبي الخطار «كثر أهل الشام عنده، ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد» وعند قيام ثورة الخوارج انضم عرب الأطراف إليها. وفي عصر الخلافة، ازدادت الهجرة العربية الداخلية، من أطراف إلى العاصمة، في إطار التحولات الاقتصادية التي شهدتها البلاد. يكشف عن ذلك ابن حزم وغيره فيما ذكروه عن تفرق البيوتات العربية لتتخذ من العاصمة مقرًا نهائيًا لها. تضاربت المعلومات الواردة في المصادر القديمة، بصدد تحديد وضعية العرب في البنية الاجتماعية للدولة الإسلامية. فابن رستم قدم لائحة بأسماء عديد من الصحابة والأشراف الذين مارسوا مهنًا عامية، كالحدادة والنجارة والحجامة والقصابة وغيرها. في حين أكد الجاحظ بأن «العرب لم يكونوا تجارًا ولا صناعًا ولا أصحاب فلاحة ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل». ومن الشائع لدى الدارسين أنهم في إسبانيا الإسلامية كانوا بالمثل، يتربعون على قمة الهرم الاجتماعي، و «يأنفون من القيام بالأعمال الزراعية الاقتصادية» ربما انطبق ذلك على الفترة السابقة

للخلافة. فالمصادر ركزت على إبراز تنظيم العرب في إطار «القبائل والعمائر والبطون والأفخاذ» كما أنه عندما «تسمى جماعة من موالي الخلفاء بأسماء العرب، فأنكر ذلك عليهم الأمير بفضل أنفته، وأكد فيه نهيه» وما ورد عن الصراعات المريرة فيما بين الحجازية القيسية واليمانية كاف للدلالة عن أهمية النسب والتماسك القبلي - العشائري، في تحديد الانتماءات الطبقية. غير أن تعميم هذا الاعتقاد على عصر الخلافة، دون مراعاة طبيعة المرحلة التاريخية، وحجم التحولات الاقتصادية، ينم عن مجازفات. من الطبيعي أن تسفر التطورات الاقتصادية السالفة الذكر، عن انحلال المنظومة القبلية العربية، وتراجع أهمية النسب. حتى كادت الخلافات العنصرية القديمة تصبح من ذكريات الماضي وهو ما أكده ابن خلدون بقوله: «إن الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل». ففي أواخر الدولة العامرية استعطف الشاعر أبو العلاء صاعد أحد الفرسان بالقول: وأنا ابن عمك من ربيعة، إذ هي وسليم أحلاف، فالعدنانية تلفنا والنسب يضم شعبنا فما انتفع من ذلك. «وأيس ذوو الأحساب، فتفرقوا شذر مذر» وقد كان ابن عباد أكثر وضوحًا في إبراز هذه الظاهرة بالقول: «فإنا نحن العرب في هذه إسبانيا الإسلامية قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا فصرنا فيها شعوبًا لا قبائل وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر». كان الانحلال من القوة والسرعة، أن اضطر الحكم المستنصر إلى «تأليف قبائل العرب وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته» كما كلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أخمل ذكره ويرد كل ذي نسب إلى نسبه بما يكشف عن شمولية الظاهرة لكل البلاد. من ثم فالاهتمام البالغ بالأنساب خلال عصر الخلافة، ليس تأكيدًا على التماسك القبلي، كما اعتقد البعض بل محاولة للوقوف في وجه الانحلال الجارف.

ومن مظاهر تفسخ العلاقات القبلية، تشتت الأسرة الواحدة جغرافيًا. بحيث أصبحت أغلبيتها على شكل بيوت متفرقة، ليست لهم دار جامعة حتى غدت الأخطاء لدى النسابة من الأمور العادية في ظل هذا الوضع أصبح بإمكان المرء أن يدعى «أشرف الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذبًا» ومن المفيد إثبات نص لابن حزم بالغ الوضوح في الكشف عن صحة هذا الاعتقاد، إذ قال: «ودار بلى بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، وهم هناك على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط، نسائهم ورجالهم، ويقرون الضيف». يحمل هذا النص عدة معان. فهو من جهة، يؤكد صحة الاعتقاد السابق بأن العرب هاجروا إلى إسبانيا الإسلامية بعائلاتهم. ومن جهة أخرى يوضح أن الحفاظ على الأنساب تعتبر ظاهرة شاذة. مع ذلك، فاستمرارها يعني أن التحولات الاقتصادية لم تكن في مستوى أبطال مفعول النسب والتنظيم القبلي بصفة نهائية. ومن القرائن ما يدل على ذلك، فإلى جانب استمرار فعالية «ديوان قريش» بقرطبة، حافظت الأجناد الشامية الستة السالفة الذكر على تماسكها القبلي بالكور المجندة كما استمرت المصادر تتحدث عن جلة قريش وخاصتهم ووجوه الموالي وأهل البيوتات ولعل في هذا ما يفسر قول المقري بأن «عرب إسبانيا الإسلامية يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر». طبعًا لم يكن التفسخ القبلي نتيجة لقرار سياسي. مع ذلك، يكشف هذا النص على أن العملية تمت تدريجيًا. بما يؤكد ارتباطها بتحول الهياكل العقارية والنظام الاقتصادي، الذي ترسخ هو الآخر تدريجيًا. ويبدو أن الانحلال القبلي كان أقوى بقرطبة وبقية المدن عنها بالبوادي والهوامش. فقد تحدث ابن بسام عن «بقاء شؤم العصبية بين العرب والمولدين إلى آخر الأيام» بقصبة باجة. ينطبق نفس الشيء على شلب التي كان أهلها وسكان

قراها عرب اليمن وغيرها، وهم يتكلمون بالكلام العربي الصريح، ويقولون الشعر لذلك، فليس غريبًا أن نجد من «يتعصب للقحطانية ولغيرها في مثل هذه المناطق. أفضى انفراط التماسك في إطار القبيلة والعشيرة والأسرة إلى انحدار عديد من العرب إلى أسفل الدرك الاجتماعي. فقد ذكر ابن حزم بنو خصفة ابن قيس عيلان، باعتبارهم «أذل قبائل قيس بالبادية». كما ميز الإدريسي عرب مدينة شلب «خاصتهم (عن) عامتهم». ينسحب نفس الشيء على الأمويين، الذين كانت «بقرطبة منهم طائفة غامضة الشخوص، بارزو الهيبة، عارمة الأدب والمروءة، متطبعة بأخلاق العوام وهو ما أكده ابن بسام بقوله: «ودخلوا غمار الناس، وامتهنوا واستهينوا». بلغت الظاهرة من الشمولية، أن عجزت المصادر القديمة عن حصر البيوتات العريقة التي اندمجت في «غمار العامة». ولا غرو، فالمعلومات بصدد العرب الذين مارسوا المهن التي أنفوا منها سلفًا، مثل «عمل الفخار والبيازة والخرازة والهراية وغيرها تتجاوز الحصر. حتى غدت هذه الظاهرة من الأمور العادية، كما يفهم من نص لابن خلدون إذ قال: «تجد كثيرًا من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار، منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما يفسد أخلاقهم، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة». تحدث المؤرخ الأندلسي المجهول عن العرب، بما لا يدع مجالا للشك في اندماج أغلبيتهم في صفوف العامة. إذ قال: «ومن احترف منهم فاحترف بفلاحة وخدمة أجنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطرفه وبيع بز وتسبب بجلبه وبيع عطر وسبط شماع وبيعه ونسج وغزل الكتان وبيع لبن البقر لمن يمخضه.

وبالمثل اختلف الدارسون حول مدى حفاظ البربر على تنظيماتهم القبلية. فبينما يصر كيشار على أنها، كانت أكثر متانة وتماسكًا من نظيراتها

العربيــة، يتفق الأغلبيــة على اندماجهم الســريع في الوسط الجديد. في حين تحـفظ البعض عن الحـسم في القـضيـة. ومما زاد الأمر تعـقيـداً، شح المادة التـاريخـيـة، مما يجـعل هذه الآراء مـجرد تـخمـينات نظـرية. على أنه من الضروري التـميز هنا، بين العــرب العاربة البـربر الذين هاجروا إلى إسبـانيا الإسلامية قبل عصر الخلافة، والقـبائل العسكرية التي التحقت مؤخراً بخدمة الخلافة الأموية. وعلى عكس موقفهم من العرب، أجمع الدارسون على إبراز أهمية العــرب العاربة البربر العددية. لم تعوزهم في ذلك، المادة التـاريخية. فبصرف الـنظر عن الإحصائيات الواردة في المصادر، كثـيرة هي القرائن التي تؤكد ذلك. فـقد تحدث المؤرخ المجهـول على سبيل المثـال، عن ثورة العرب العــاربة البــربر، قــائلا: «وانضم عـرب الأطراف كلهــا إلى وسط إســبــانيــا الإسلامية، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهم كانوا أكثر من العرب العاربة البربر». وبرغم تركيزهم على الجماعات العسكرية الفاتحة واللاحقة لم يحل ذلك دون الهجرة المستمرة من شمال إفـريقيا للبحث عن شروط معاشية أفضل. حقـيقة تحدث الأصطخري عن المناطـق الجغرافية التي شـغلتها بعض القبائل البربرية. فـ «نفزة ومكناسة منهم بإسبـانيا الإسلامية بين الجلالقة وبين مدينة قرطبـة. وأما هوارة ومديونة فهم سكان شنتبرية». كـما أورد ابن حزم معلومات أكثر دقة وتفصيلا بهذا الصدد. على أن من شأن ما تعرفنا عليه من ازدهار مديني، وانحلال للعلاقات الإقطاعية، أن تؤثر في اتجاه خلخلة ارتباط هؤلاء بالأرض أولا، وببعضهم البعض في إطار العشيرة والقبيلة.

ولعل في اتساع ظاهرة الهــجرة من البوادي نحــو المدن، ومن الهوامش إلى قـرطبة، مــا يكشف عن ذلك. فعـديدة هي الأسر التي تنتـمي لفــخذة هوارة، انتقلت للاستقرار في الجانب الغربي من العاصمة. وبالمثل، فبنو رزين البربر «كان نفر منهم بقرطبة» ينسحب نفس الشيء على الزجالين الذين تسبهم

ابن حيان في «عامة البتر»، فقد هاجروا من ناحية تاكرنا للاستقرار بقرطبة. وكم من أسرة أصبحت مشتتة بين عدة مناطق[1]. أكدت كتب الطبقات على صحة الاعتقاد باتساع الهجرة البربرية العرب العاربة من الكور نحو قرطبة، واندماجهم في الحياة الاجتماعية والثقافية بها، فيما أوردته من تراجم لأعلامهم ولعل في نعتهم بـ «الأندلسيين» وبـ «أهل قرطبة» ما يدل على تفسخ انتماءاتهم القبلية. ولا غرو، فخلال ثورة العامة، لم تمنعهم أصولهم البربرية من المشاركة مع بقية القرطبيين في الدفاع عن العاصمة ضد الهجومات البربرية. وفي حديث الرازي عن الكور خص فحص البلوط وحده بالقول: «وكان يسكنه البربر من العرب العاربة». ولم يخف ابن حزم تعجبه من هذه الظاهرة، حيث قال: «ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة»، مما يكشف عن شذوذ مثل هذه الحالات عن القاعدة العامة. مع ذلك، يبدو أن انحلال الروابط القبلية، لم يكن شاملا لكل المناطق، وبالخصوص الهامشية منها. فقد ترجم ابن الفرضي لشخص «من أهل استجة من ساكن باديتها وسط قبيلة من قبائل البربر العرب العاربة». فأغلبهم كانوا يمارسون «مهنًا حقيرة» مع ذلك، فقد أصرت على أن أقلية فقط هي التي اختارت الحياة المدنية لتشغل بعض الوظائف في الدولة بمعنى أن عامة المدن لم تحتضن طائفة بربرية. غير أن كتب الطبقات التي اعتمد عليها هؤلاء، نفسها تفند هذا الزعم، فمن العرب العاربة البربر، من كان «عطارًا» «وبزازًا» ومؤدبًا ومن أمثال العامة ما يؤكد اشتغالهم كحراس وباعة بالأسواق. وليس أدل على ذلك من ارتفاع أعدادهم بالمدن، التي احتضنت «من البربر والمهاجرة كثير». باستثناء بعض الإشارات القبلية، يبدو أن المصادر القديمة، عربية كانت أم

---

(1) أحمد الطاهري، الحياة الاجتماعية ص 146.

لاتينية سكتت عن الطائفة التي عرفت بالمستعربين. لذلك فأغلب ما كتب عنهم لا يتعدى أن يكون مجرد افتراضات تنقصها الدلائل التاريخية. من ثم وجاهة نصيحة الدارسين بالتزام الحذر عند التجرد للحديث عنهم. استغل البعض هذا الوضع للإقرار بدور المستعربين في الحفاظ على استمرارية الحضارة الرومانية - القوطية - المسيحية، من مخاطر حضارة عربية إسلامية دخيلة وعابرة، وفق نظرة متعصبة لا ترى التناقض بإسبانيا الإسلامية إلا فيما بين الإسلام والمسيحية.

ليست هناك معلومات دقيقة يمكن الاستناد عليها، لتقدير نسبة المستعربين في مجتمع إسبانيا الإسلامية. مع ذلك، فمن المرجح أنهم استمروا يشكلون عدداً لا يستهان به. وهو ما ذهب إليه كل من بلباس وبروفنسال يدعم هذا الاعتقاد، ما أورده ابن حوقل وبإسبانيا الإسلامية غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن، وهم على دين النصرانية روم. ينطبق نفس الشيء على المدن التي ضمت هي الأخرى جماعات متفاوتة الأهمية. ولعل في وجود أسقفيات بها ما يدل على ذلك. قال ابن حيان: «أمر الناصر لدين الله بإحضار عباس بن المنذر جاثليق، أسقف إشبيلية، ويعقوب بن مهران أسقف بجانة، وعبد الملك بن حسان أسقف البيرة». وعلى عكس ما ذهب إليه بروفنسال وكاجيكاس يبدو أن نسبتهم بقرطبة وضواحيها كانت متفوقة. يشهد على ذلك، كثرة ما كان بها من كنائس وأديرة. ولقد كانوا من الكثرة أن رفعت إلى القاضي شكاية في نهي العجم عن المرور على مقابر المسلمين مع ذلك، فمما لا شك فيه أن عددهم تقلص بشكل ملحوظ، خلال عصر الخلافة، نتيجة لتزايد ظاهرة التحول إلى الإسلام في صفوفهم.

تحدث البعض عنهم، باعتبارهم «طبقة اجتماعية» متجانسة. في حين ميزت المصادر القديمة «كبار النصارى» ووجودهم عن عامة «أهل الذمة

وغمارهم». ولا غرو، فعند الفتح، تم تمييز أهل الصلح الذين حافظوا «على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم» عن غيرهم. مع العلم أن الأندلس أكثرها إنما فتح صلحًا كما عوملت الطبقة الإقطاعية بشكل مختلف عن عامة الناس. فمن المتعارف عليه أن أبناء آخر ملوك القوط حافظوا على «ثلاث آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك» ولم تصل المضايقات التي تعرضوا لها لاحقًا، في إطار سيدة البنى القبلية - العشائرية، والتعصب الديني - الطائفي، إلى حد تحويلهم جميعًا متنجين فقراء. بمعنى أنه لا الفتح الإسلامي، ولا التطورات اللاحقة، لم تفض إلى إحداث تغيير جذري في البنية الاجتماعية القائمة. لذلك استمر المستعربون يشكلون طائفة، لا طبقة داخل مجتمع إسبانيا الإسلامية. ورغبةً من الدولة في احتوائها، وتفاديًا للصراعات التي قد تنجم عن عدم مراعاة خصوصياتها، لم تجد غضاضة في الاحتفاظ لها بنظمها الخاصة. هكذا، خلق منصب «القماسة» الذي يتولاه «زعيم عجم الذمة» وقد احتفظت لنا المصادر العربية على أسماء بعض من شغل هذا المنصب خلال عصر الخلافة، منهم «أبو صاعد» و«معاوية بن لب» ويبدو أن القومس، كان يترأس جهازًا إداريًا كاملا، مركزه في قرطبة، وفروعه في الكور. فقد ذكر ابن الخطيب أن أهل الذمة بمختلف مدن وكور البلاد، كان «يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولو حنكة ودهاء ومداراة، ومعرفة بالجباية اللازمة لرءوسهم». كما توفرت الطائفة على محاكمتها الخاصة. فمن قضاة النصارى بقرطبة، ذكرت المصادر «أصبغ بن نبيل» و«وليد بن خيزران» و«حفص بن البر» ومن جهة أخرى، استمرت طليطلة، مركزًا لرئاسة الأساقفة. وقد شغل هذا المنصب خلال خلافة الحكم المستنصر، المطران «عبيد الله بن قاسم إضافة لمطرانيتي «إشبيلية وماردة». تناقل المؤرخون نص رسالة بعثها نصارى أهل الشام لعمر بن الخطاب، تتضمن بنود الاتفاق

بين الطرفين، حول شروط إقامة أهل الذمة بأمان في الدولة الإسلامية. أشير فيها إلى منعهم من إقامة كنائس جديدة، ومن التشبيه في الملبس والمظهر بالمسلمين، والتجرد من السلاح، وغير ذلك. مع العلم بأن تطبيق التوصيات الفقهية بصدد أهل الذمة، اختلف باختلاف طبيعة الجهاز الحاكم. ومن الفقهاء من بالغ في وضع القيود المميزة لهذه الطائفة، والحث على ضرورة إذلالها. وبديهي أن تعمل مثل هذه الممارسات على تمتين التماسك في صفوفها. وليس أدل على ذلك بالنسبة للأندلس، من اتساع حركة العصيان و«الاستخفاف» في أوساط مستعربي قرطبة خلال القرن التاسع فهل كانت لتلك التطورات التي شهدتها إسبانيا الإسلامية من دور في تغيير هذه الوضعية. ليس هناك، على ما يبدو، من ينكر التسامح الذي حظي به المستعربون خلال عصر الخلافة. فبروفنسال لم يجد أي مظهر للكراهية والتعصب تجاههم. ولم يكن شح المادة التاريخية، ليمنع بالنشيا من الإقرار بشيوع علاقات الأخوة بين المسيحيين والمسلمين، بل وحتى متعصبي المدرسة الإسبانية التقليدية سايروا هذا الاعتقاد. فسيمونيت يعترف بمساواة المستعربين لغيرهم من الطوائف والإثبات، في الحقوق. على غراره عبر كاجيكاس عن اندهاشه الكبير من العدالة التي نعموا بها، وتفوق حرياتهم بإسبانيا الإسلامية عنها بالممالك المسيحية لم يكن دوزي إذًا مبالغًا في إقراره بأن التساهل مع المستعربين «لم يكن له حدود».

تجلى التسامح في عدة مظاهر. فالناصر، لم يتردد عن إشراك بعض زعمائهم في الحكم. فعندما استرجع مدينة أبذة، أسند ولايتها لـ «عريف من العجم» وكذلك فعل باستجة التي ولي عليها «حمدون بن سبيل» المستعربي. ولا حاجة لذكر الدور الفعال الذي لعبه ربيع بن زيد، صاحب يومية قرطبة في القصر الخلافي، ولا لمكانة وجوه نصارى أهل الذمة في النشاط الدبلوماسي ينطبق نفس الشيء على علاقة الدولة بعامتهم. إلى درجة أنه «إذا

تشاجر مسيحي مع مسلم، أعطى الحق دائمًا للأول». ويبدو أن الخلفاء أبطلوا عمليًا مفعول التشريعات المقيدة لممارسة الشعائر الدينية. وليس أدل على ذلك، مما أورده ابن خاقان بأن «قرع النواقيس يبهج سمع أهل قرطبة، على الرغم من تشدد الفقهاء في منع ذلك «ببلاد الإسلام كما أطنب عريب بن سعد في ذكر ممارسة العجم بكل حرية لأعيادهم الدينية وطقوسهم بمختلف مدن وقرى البلاد، بما في ذلك إحياء ذكرى «الشهداء المقتولين بقرطبة» خلال العصر السابق. وبالمثل، أبدت الدولة مرونة في تطبيق النصوص المانعة لاستصلاح الكنائس وتوسيعها، وإقامة أخرى جديدة. فقد اشتهرت العاصمة بكثرة كنائسها، مصدق ذلك، ما أورده ابن خاقان بالقول: بات أحدهم «ليلة بإحدى كنائس قرطبة». وحظيت منها «كنيسة الأسرى» باهتمام خاص، باعتبارها «الكنيسة المعظمة بين النصارى» كثيراً ما أثارت هذه الإجراءات تحفظ الفقهاء، الذين تجردوا لتذكير الدولة بأنه «ليس في شرائع الإسلام إحداث أهل الذمة من اليهود والنصارى كنائس ولا شنوعات في مدائن المسلمين» وطالبوا بـ «تهديمها بعد الاعتذار إلى أهلها». تحدث الإدريسي عن إحدى كنائس الأندلس قائلا: «ولا سبيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج حتى يأكل في ضيافة الكنيسة، ضريبة لازمة وسيرة دائمة، لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها، وورثها الخلف عن السلف، أمر معتاد متعارف دائم، والكنيسة ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرهبان، وبها أموال مدخرة، وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب وبلاده وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلوذ بها مع ما يكرم به الأضياف الواردون».

يؤكد هذا النص، مدى الرعاية التي حظي بها المستعربون. على أن أهم ما يكشف عنه هو عدم اقتصار دور الكنيسة على النشاط الديني، بل تجاوزته إلى الفعل في المجال الاقتصادي، بتسهيل مأمورية التجار، وتقديم الخدمات لهم.

فمن الطبيعي إذًا، أن تتغاضى النظم المتبرجزة الطرف عن تلك النصوص التشريعية المقيدة لنشاطها. لذلك، فدوافع التسامح، لم تكن كلها سياسية، كما هو شائع. كما أبدت المحاكم الإسلامية مرونة قصوى في مواجهة المستخفين بالنبي، على عكس العصر السابق: فقد ورد على القاضي «رجل من النصارى مستقتلا لنفسه، فوبخه أسلم وقال له: ويلك من أغراك بنفسه أن تقتلها بلا ذنب» واكتفى بتلقينه درسًا في الدين المسيحي. ومن المفيد، إثبات نص بالغ الدلالة في الكشف عن شيوع حرية الاعتقاد. قال أحد قضاة قرطبة: «أتاني غلام من النصارى يريد الإسلام فأسلم على يدي وكتبت إسلامه وأشهدت عليه. فلما كان بعد أيام أتاني فذكر أنه بدا له عن الإسلام فامتحنته فوجدته مصرًا على ما قال» فأشار عليه الفقهاء بالقول: «فإن أصر خليته في سخط الله عز وجل، فليس بأول من أغواه الشيطان» كما أصبح بإمكان النصارى أن يتزوجوا بالمسلمات. قال الخشني «كان بقرطبة رجل أعجمي ممن استنزل من الحصون المخالفة، وكانت له امرأة حرة مسلمة».

أسفر هذا التسامح، عن انفراط تماسك المستعربين في إطار الطائفة وعبّر عن ذلك عديد من الدارسين بالقول: «أنهم فقدوا شعورهم الوطني، وتراجعوا عن مشروع تحقيق الاستقلال»، مع ما ينم عليه مصطلحا الوطنية والاستقلال هنا من مجازفات. على أي، لم تسجل المصادر القديمة، عربية كانت أم لاتينية، أي تحرك لهؤلاء في الإطار الطائفي، طوال عصر الخلافة. وعلى الرغم من دقة رصده للأحداث، لم يعثر لهم سيمونت ولا غيره على أثر في النشاط السياسي والمعارضة. كما تحسر كاجيكاس عن انعدام المادة التاريخية، لتتبع تطورات المعارضة المستعربية خلال عصر الخلافة. دون أن يثير ذلك أدنى شك لديه في وجودها. وبالمثل، لم يخف سيمونت أسفه الشديد لعدم احتفال المستعربين بسقوط الخلافة. لقد فات هؤلاء جميعًا، إدراك تحول إطار

المعارضة ليصبح طبقيًا، لا طائفيًا. بديهي أن ينصهر المستعربون في المجتمع الجديد، ويفقدوا كثيرًا من خصائصهم المميزة. وهو ما وضحه كثير من الدارسين وإن اختلفوا في تحديد درجة عمقه. ومنهم من أشار إلى التحولات التي طرأت على المسيحية الأندلسية، في اتجاه التراجع عن الاعتقاد بالثالوث، والإقرار بوحدانية الله. أن تأثر الجانب العقائدي - باعتباره الثابت الأقوى - لا يترك مجالا للشك في عمق انحلال العناصر الأخرى: من عادات وتقاليد ولغة وعلاقات اجتماعية. ومن مظاهر ذلك، اختلاط سكان المستعربين ببقية عناصر المجتمع. فقد أورد الطرطوشي أن «الفقيه بن الحصار بقرطبة له جار نصراني يقتضي حوائجه وينفعه». بما يسقط زعم البعض بأنهم «عاشوا معزولين في أحياء خاصة بهم». ومن أمثال العامة ما يكشف عن دور التجارة في اندماج العناصر الأثنية والطائفية. ومن المفيد إثبات نص لآلبرو القرطبي، بالغ الأهمية في الكشف عن مدى انحلال العلاقات الطائفية في صفوف المستعربين، إذ قال: «إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، ولا يردوا عليها وينقضونها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًا جميلا صحيحًا. وأين تجد الآن واحدًا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة. يا للحسرة إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها! في ظل هذه الظروف، ومع تزايد ارتباط وجوه المستعربين بالأرستقراطية الحاكمة لا يسع عامتهم، إلا التخلي عن الاستيلاب الطائفي، للارتباط بقوة مع الذين تجمعهم بهم نفس الظروف المعاشية والاقتصادية والطبقية. من المتعارف عليه، أن أعدادًا هامة من سكان إسبانيا الإسلامية الأصليين، تحولوا إلى الإسلام وهم الذين عرفوا في المصادر القديمة باسم أسالمة أهل الذمة أو المولدين. وقد أكد

المؤرخ الأندلسي المجهول على استمرارية هذه الظاهرة طوال الحكم العربي - الإسلامي، بالقول: «منهم من أسلم واستقر بموضعه ومنهم من أسلم بعد الفتح». في حين أشار البعض إلى أنها أصبحت أكثر اتساعًا وكثافةً خلال عصر الخلافة. ولعل فيما أورده ابن سهل عن «غلام من النصارى يريد الإسلام»، ما يؤكد ذلك. حتى غدا المولون يشكلون «أغلبية سكان إسبانيا الإسلامية». حقيقة، تم إلحاق كثير من المولدين بخطط الدولة، منذ عصر الولاة. فعقبة بن حجاج السلولي مثلا، استقضى «مهدي بن مسلم وهو من أبناء المسالمة» على قرطبة. كما استقضى الحكم الربضي، «أيوب بن عيد ربه من مسالمة الذمة، على إشبيلية. وفي عهد الأمير محمد، كان «صاحب قلم بني أمية الأعلى وكاتبهم العظيم قومس النصراني بن أنتيان» ويبدو أن هذه السياسة طمحت إلى امتصاص سخط هذه الطائفة، كما يستفاد من نص لابن القوطية إذ قال: إن الحكم الربضي «استقدم عمروس المعروف بالمولد من وشقة فاختصه وقرب مكانه وكتب إلى أهلها كتابًا يخدعهم عن عقولهم ويقول إني اخترت لكم رجلا من أهلكم وأعقابكم». مع ذلك عجزت مثل هذه الإجراءات، على خلخلة التماسك الطائفي للمولدين. وليس أدل على ذلك، من اشتداد ثوراتهم ضد السلطة المركزية عشية ظهور الخلافة بما يكشف على أن الانتماء للعقيدة الإسلامية، واندماج النخبة العليا من المولدين في الطبقة الحاكمة، لم يكن كافيًا لإبطال مفعول الطائفية. من ثم تبدو أهمية التحولات التي طرأت على البنيات الاجتماعية، والتوجهات الاقتصادية للخلافة الأموية في انهيار ركائز التماسك الطائفي. فخلال هذا العصر «أصبح من الصعب تمييزهم عن المسلمين الدخلاء فاندماجهم «في الجماعة» كان شاملا وعميقًا. وليس أدل على ذلك مما أوردته كتب الطبقات عن أهل القلم المولدين. بحيث لم تعد تحركهم بتاتًا انتماءاتهم الأثنية - الطائفية. وحسبما استحضار أمثال

ابن حزم وابن القوطية لتأكيد ذلك. على أي، فمن القرائن ما يدل على أن الانحلال لم يكن جذريًا. فمن قضاة الناصر على وشقة، من كان منسوبًا إلى الكبر، مزهوًا شديد العصبية للمولدين، منتقضًا للعرب، حافظًا لمثالبها كما تكشف جمهرة ابن حزم عن استمرار الصبغة الطائفية لدى المولدين بالثغور. أكد ذلك فقيه ورع من أهل طليطلة «كان يقول إذا سئل عن من لا يحسن العربية، إذا أعربتم أعمالكم ما ضركم كلامكم» يفهم من هذه النصوص، أن الانحلال كان أقوى بالمدن وضواحيها، عنها بالبوادي والهوامش.

وسواء بالبوادي أو بالمدن، اندمج معظم المولدين في القطاعات الاقتصادية المختلفة، منتجة كانت أم غير منتجة. وقد كفانا المؤرخ الأندلسي المجهول مؤونة تأكيد ذلك، إذ قال: «وأما من أسلم من أهلها، فمن كان منهم بالبادية فاكتسبوا البقر والغنم الحرث والعسل وأهل الجبال منهم فكانوا يغرسون الأجنات والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم ومن ولي البحر منهم فكانوا يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وآلاتهم إلى غير ذلك فأما من كان منهم بالحاضرة فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخزارة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلاليب ونسجهم والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتى وبيتة الأسواق بالليل وحرص الفنادق وتعمير البهائم وحمل السلوع من بلد إلى بلد». تحدث صاحب أخبار مجموعة عن الطائفة اليهودية، التي كانت عند الفتح قائلا: بأن الفاتحين «إذا لقوا اليهود ببلدة ضموهم إلى مدينة البلد ولم يفعلوا ذلك بمالقة لأنهم لم يجدوا بها يهودا». وبالمثل، جمع مغيث «يهود قرطبة فضمهم إليها ولعل في غلبة الطابع المديني عليهم، ما يؤكد الاعتقاد الشائع، بأنهم كانوا يمارسون تجارة الكماليات وأعمال الصيرفة والصياغة. من ثم تماسكهم الاجتماعي وانعزالهم في أحياء خاصة بهم. وقد اتسعت هذه الطائفة بعدئذ بشكل ملحوظ، نتيجة لتزايد

الهجرة اليهودية من مختلف المناطق للاستقرار بإسبانيا الإسلامية. فمنذ الفتح «صرف اليهود هممهم للحلول بها» حتى غدوا يشكلون نسبة مهمة في سكان بعض «مدن إسبانيا الإسلامية» خلال عصر الخلافة، وبالخصوص اليسانة، التي وصفها الإدريسي بأنها «مدينة اليهود». وهي نفس الصفة التي نعت بها «مدينة طركونة» وكثيرة هي القرائن التي تدل على أهميتهم بالعاصمة، والتي احتضنت حسب بروفنسال أكبر تجمع لهم بالبلاد. وعلى العكس بقية الطوائف، استمر اليهود بقرطبة منعزلين في أحياء خاصة بهم وليس أدل على ذلك، من إقدام القاضي على «بيع دار يتيم لعزلها من دور اليهود وإخراج اليتيم من مجتمع اليهود إلى مجتمع الإسلام» وهو ما أكده الإدريسي بالقول: «واليهود يسكنون بجوف المدينة، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة وأهلها مياسر». فهل في هذا، ما يدفع إلى مجاراة ما أجمع عليه معظم الدارسين بأن الدور الاقتصادي لليهود استمر مقتصراً على التجارة بمواد الترف والعبيد عبر المسافات البعيدة.

حقيقة ركزت المصادر القديمة على إبراز هذه المسألة. فابن حوقل على سبيل المثال أورد بأن «جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب إسبانيا الإسلامية ويفعل ذلك بهم تجار اليهود. وهو ما يستشف من أغلبية أمثال العامة التي تناولتهم. فهل هذا يعني، بأن تماسك اليهود الطائفي كان أقوى من أن تزعزعه التطورات الجديدة؟. على غرار بقية أهل الذمة، نَعِمَ اليهود بحرية واسعة خلال عصر الخلافة. وليس أدل على ذلك، من إشراك خاصتهم في الحكم. فالناصر، استوزر «حسداي بن إسحاق الإسرائيلي» الذي لعب دوراً هامًا في سفاراته إلى الممالك النصرانية كما كلف «بروخ اليهودي» بعدة مهام دبلوماسية مماثلة. ومن المفيد، إثبات نص لصاعد الأندلسي، بالغ الدلالة عن التسامح الذي حظي به اليهود، إذا قال أن

«حسداي بن إسحاق خادم الحكم بن عبد الرحمن الناصر هو أول من فتح لأهل إسبانيا الإسلامية منهم باب عملهم في الفقه والتاريخ وغير ذلك، وكانوا قبله يضطرون في دينهم وسني تاريخهم ومواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد، فلما اتصل حسداي بالحكم نال عنده نهاية الحظوة بفضل دربته ونهاية براعته وأدبه وتوصل به إلى استحلال ما شاء من تواليف اليهود». إن من شأن هذه السياسة، أن تقلل من روابط التضامن بين اليهود على أساس طائفي، وتشجعهم على مزيد من الاندماج في الحياة الاجتماعية. ومن مظاهر ذلك، مشاركتهم في الحياة الثقافية بإسبانيا الإسلامية. فقد أورد المقري وغيره أسماء عديد من شعرائهم الذين تباروا مع غيرهم في النظم باللغة العربية. ومنهم من «أحكم لسان العرب، وبلغ الرتبة العليا من البلاغة والشعر» ولعل أشهرهم على الإطلاق «مروان بن جناح» اللغوي. ولعل في تحول العديد منهم إلى الإسلام ما يؤكد صحة هذا الاعتقاد. لم تنحصر الظاهرة في صفوف أهل القلم، بل شملت جماهير عريضة من مختلف الطبقات، كما يستفاد مما أورده المؤرخ الأندلسي المجهول عن «من أسلم من اليهود».

ولا غرو، فمن التلاميذ اليهود من كان يتلقى العلم، جنبًا إلى جنب مع أبناء المسلمين. من الطبيعي، أن يتخلى اليهود، ولو نسبيًا عن انعزالهم، ويندمجوا بالتدريج مع بقية العناصر، وليس أدل على ذلك من أن اليسانة كان لها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود، ومن شأن التحول الذي طرأ على طبيعة التجارة البعيدة المدى، وتراجع الربا، والوراثة العائلية للحرف، أن تعمل على اختراق البنيات الطائفية لليهود، في اتجاه تكريس الانقسام والشعور الطبقيين لديهم. عكست المصادر القديمة هذه المسألة، بتمييزها الخاصة عن «عامة اليهود» أكّد ذلك ابن سهل في حديثه عن فلاحين يهود يملكون جنابًا بقرطبة، وعن «اليهودي» الذي يسقط سلع أحد الدلالين. ولا يترك المؤرخ

الأندلسي المجهـول مجالا للشك في صحـة هذا الاعتقاد، بقـوله: «وأما من أسلم من اليهود، فاحترف خياطة الحلف والثياب، وظفر الخيصان الذي يخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينهم وصبـغهم وتصفيفهم وحجامة وبلاجة ودلالين أسواق وبـيع مخوض وبيع بقل وإصلاح نعل مـخروز». أما الصقالبة، فعلى الرغم من إسهام بعضهم في الإنتاج الأدبي والفني، استمروا طائفة مميـزة داخل مجتمع إسـبانيا الإسـلامية. نظرًا لاقتـصارهم - في إطار علاقـات العبـودية - على تقديم الخدمـات الإدارية والعسكرية والمنـزلية. مما عرقل عملية اندماجهم. وهو نفس ما ينطبق على الخدم السود. عبَّر ابن حيان عن هذا الخليط من العناصـر والأثنيـات الذي تشكلت منه عامـة قرطبـة في وصفـه لأحدهم بالقول: «كـان من العامـية وخمـول الأصل، ونذالة الفرع، ولؤم الأطراف ودخلة الأعراق، على ثبج عظيم. نخلص إلى أن انحلال البنى الطائفية والقبليـة، أفضى إلى إعادة صياغة العلاقات الاجتـماعية على أساس طبـقي. من ثم تماسك عامـة قـرطبة - رغم تعـدد انتـماءاتهـا - على نفس الأساس. مما أكسـبها قدرة هامة علـى إدارة الصراع الاجتماعي لصـالحها[1].

كان فـتح العرب لإسبانيـا - كغيـرها من البلدان الأجنبية - سـببًا مهـمًا في حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم، اختلاط في الأنساب والدماء، واقتباس في النظم والعادات والتقاليد، وامتزاج في العقيدة الدينية، وامتزاج في اللغة، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان في الإسلام وتعلموا اللغة العربية، كما تـعلمها كثير ممن يدخل في الإسلام لأنها غدت لغـة العلم والثقافـة، وسمي هؤلاء بالمستـعربين Losmozarebes. وقد ساعدت عدة عـوامل على حدوث هذه العملية من أهمها: التعـاليم السمحة والقيـم النبيلة التي جـاء بها الإسـلام، وأدت إلى دخول الكثـيرين فـيه، ثم

(1) د. أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص 159.

الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد في السكنى والجوار، والتعامل فيما بينهم في كثير من نواحي الحياة. وقد أدت الفتوحات التي قام بها المسلمون في إسبانيا الإسلامية إلى دخول الكثير من العبيد والإماء في ملكهم بعد أن أصبحوا أسرى لهم، وبذلك أصبح لكل جندي منهم عدداً من الرقيق يستخدمهم في قضاء حوائجه، ويستولد الإماء منهم فيصرن أمهات أولاد، ونتج عن ذلك جيل مولد له صفات مختلفة تجمع بين الجنسين، وحدثت بعد ذلك عملية اختلاط بشرية واسعة النطاق، نظراً لأن المسلمين عندما دخلوا إسبانيا الإسلامية لم يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين، ولذا فإنهم اضطروا إلى الارتباط بعلاقات المصاهرة مع أهل هذه البلاد وخاصة الإسبان، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما أدى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين.

لعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات - وإن كان يبدو في بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال - يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة التي كان لها أثرها الكبير في نواح شتى. ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات، فقد تزوج من (إيخلونا) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتي تسميها المصادر العربية أيلة وتكنيها بأم عاصم. هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة، مثل طارق بن زياد الذي ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها في الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها، وموسى بن نصير الذي اصطحب معه زوجاته وبناته. وحذا حذوه الكثير من العرب، مثل زياد بن النابغة التميمي الذي تزوج من إحدى أميرات إسبانيا، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المند بن غيشطة في دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أرطباش، ثم قدمت معه إلى إسبانيا

الإسلامية بعد زواجها وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق. ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسي المشهور بابن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم ابن عيسى بن مزاحم ت 367 هـ) وقد روى ذلك في كتابه (تاريخ افتتاح الأندلس). وبعد وفاة عيسى بن مزاحم 138 هـ تزوجت سارة من عمير بن سعيد فولدت له ولدًا يدعى حبيب وهو جد بني سعيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجزر وهم أشراف ولد عمير بإشبيلية. كما تزوج القائد البربري (مونوسة) - الذي كان حاكمًا على شرطانية شمال إسبانيا اشترك مع القائد العربي عبد الرحمن الغافقي في فتح جنوب فرنسا - من ابنة الدوق (أودو) حاكم إقليم أكيتانيا وتدعى (لامبجييه أو مينين).. كما تزوج الأمير الأموي عبد الله بن محمد والي قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو (أنيجا) المعروفة باسم در - ابنة ملك نافار (فرتون بن غرسية) المعروف بالأنقر - والذي وقع في أسر المسلمين، وظل في قرطبة نحو اثنين وعشرين عامًا - وأنجب منها ابنه محمد والد عبد الرحمن الناصر، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة (ت 283 هـ) - الذي تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله - من ابنة رومانوس قومس جنوب إسبانيا زمن القوط وتكنيها المصادر العربية بأم الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن بن عيسى المحدث وقاضي الجماعة بقرطبة 394 - 395 هـ. ولذا كان الناصر - كأكثر بني أمية من المولدين بإسبانيا الإسلامية - يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين، ولذلك لقبوا في الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر. كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من بشكنسية تدعى (أوروروا) وتعرف بصبح في المصادر العربية، وهي التي ولدت له ابنه هشام المؤيد الذي تغلب

عليه المنصور بن أبي عامر، واستطاع أن يصل عن طريقها إلى السلطان والنفوذ. كما تزوج المنصور بن أبي عامر من ابنة ملك نافار (سانشو غرسية) المعروف بشانجة، وقد اعتنقت الإسلام، وتسمت باسم (عبده)، وأنجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذي عرف باسم شنجول في المصادر العربية. حيث أطلقت عليه والدته اسم «سانشويلو» أي سانشو الصغير تكريمًا لذكرى والدها.

وتزوج مطرف بن موسى القسوي حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة وما حولها) من الأميرة (فلشكيطة) بنت سانشو ملك نافار، كما تزوج أخوه موسى من أورويه بنت غرسية بن ونقه ملك نافار أيضًا. وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأمراء والخلفاء والقادة، فلا شك أن الكثيرين من العامة والجند قد فعلوا ذلك، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون. ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المختلط وكثرته، ما ذكره المراكشي حين قال: «ملأ المنصور بن أبي عامر إسبانيا الإسلامية غنائم وسبيا من بنات الروم، وأولادهم ونسائهم. وفي أيامه تغالى الناس إسبانيا الإسلامية فربما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به، ولولا ذلك لم يتزوج أحد. بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال رائع فلم تساور أكثر من عشرين دينارًا عامرية. وفي هذا المعنى أيضًا يذكر ابن عذارى: أنه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين «مات الجلاب، مات الجلاب» وهي كلمة كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس (بائع الرقيق)، واستعملت بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبايا في غزواته. وقد حبب العرب والبربر من العرب العاربة في هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات من جمال وبياض بشرة، وصفرة شعر وزرقة عيون وهي صفات

أحبـوها كثيـراً لأنها كـانت جديدة عليهم». وقـد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيـل من المولدين نشأ على الإسلام، وتعلم العربيـة، وأصبح يؤلف على عـهـد بني أمـية لكـثرة الغـالبـة من السكان، ومنه تكـونت جمـاهيـر الأندلسيين.

في بعض الأحيان القليلة أو النادرة كانت تحدث زيجات عكسية، حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمـراء الإسبان بزوجات لبـعض المسلمين، مثل زواج ونقة بن ونـقة ملك نافارا من أرمـلة موسى بن فوتون بـن قيسي أمـير الثـغر الأعلى بعد وفـاته، وزواج أحد حكام جليـقية من جـميلة أخت محـمود بن الجبار المصمودي البربري الذي أعلن الثورة في ماردة سنة 213 هـ على الأمير عبـد الرحمن الأوسط، واضطر بعـد هزيمته إلى اللجوء إلى جـليقيـة وبقيت أسرته هناك، وقد أنجب منها ولداً صار أسقفًا على مدينة شانت ياقب (سانت يعقوب). ونظراً لأنه لا يجـوز لمسلمة أن تكون زوجة لغيـر مسلم فلابد وأن أمثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهن النـصرانية بعد زواجهن بالمسلمين، أو أنهن أجبرن على التنصر، أو تحولن إلى المسيحية. وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة: منها: الجمال والذكاء والشجاعة، وكان له أثره الكبير في تاريخ إسبانيا الإسلامية وحضارتها. وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمـائهم الإسبانيـة القديمة وعرفـوا بها بعد تعـريبها مـثل بنو أنجلين ومنهم محمـد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعـماء المولدين بإشبيليـة في عهد الأمير عـبد الله وبنو شبرقـة ومنهم علي بن حسن المعروف بابن شـبرقة (ت حوالي 300 هـ) وكان من أهل بطليوس وبـني بها مسجداً على نفـقته. وبنو يليان (جوليان) حاكم سبتة أيام الفـتح، ومنهم أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليـمان بن حكم بن عبـد الله بن اليلكايش بن اليـان القوطي (ت 388 هـ) وكان من مشـاهير علماء قرطبة، وكـذلك بنو الجريج (جورج) وبنو

لنتق، وبنو القبطرنة (كابتورنو) أي الرأس المستدير، وبنو مردنيش (مارتنيز)، وبنو غرسية ملوك البشنكس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الشعوبي الأندلسي المشهور، وبنو ردلف (رودلف)، وبنو موسى بن فرتون القسوي أصحاب تطيلة والثغر الأعلى (سرقسطة) في عهد أمية، وكان جدهم فرتون قومس الثغر في عهد القوط. وهناك الكثير من المولدين ممن ينتسبون إلى أسر شهيرة ذات أصول إسبانية نذكر منهم: أبا الفتح نصر بن أبي الشمول (ت 237 هـ) الذي تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة. وأيوب بن عبد ربه السرقسطي الأصل وكان من المسالمة المولدين تولى قضاء إشبيلية، وعبد السلام بن بسيل الرومي وكان أحد مشاوري ووزراء عبد الرحمن الداخل. والعلامة الحافظ بقي بن مخلد (ت 276 هـ) الذي يرجع إلى أصل إسباني كذلك. والأقشتين محمد بن عاصم (ت 307 هـ) وهو أول من ألف في طبقات الكتاب إسبانيا الإسلامية، والفقيه أبو محمد الأصيلي (ت 392 هـ)، وكان جده من مسالمة أهل الذمة وعمل أبوه وراقًا للحكم المستنصر، وأصله من شذونة أو من الجزيرة الخضراء. وكذلك أحمد بن عبد الله القرطبي، وهو ابن أخي قومس كاتب الأمير محمد وقومس هو ابن انتنيان بن يليانة النصرانية، أسلم بعد 246 هـ واشتهر بكثرة العبادة حتى سمي بالسجاد العباد حمامة المسجد (مسجد قرطبة الجامع). وكان له ابن يسمى عمر ابن قومس الكتاب ت 298 هـ. وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت 330 هـ) المعروف بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام كمحمد هذا وأخيه أحمد وعمر، وأبو المطرف بن فورتش (386) الذي تولى قضاء سرقسطة وكان منها، أبو وهب منتيل بن عفيف (ت 317 هـ)، وكان من أهل وشقة، وأبو عمر بن قزلمان القرطبي (377 هـ). وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم في إسبانيا الإسلامية. وحسبنا أن نتصفح هذه

الكتب لنجد العديد من أسماء الأمراء والقادة والفقهاء والكتاب التي تدل على أصل إسباني.

كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة الرومانية (اللاتينية الحديثة) بين الأندلسيين ويسميها المؤرخون العرب العجمية أو اللطينية. وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات. ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام، ويتحدثون العربية، ويتخذون غالبًا نمط الحياة التي يتخذها المسلمون الوافدون على إسبانيا الإسلامية، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تمامًا باعتبارهم منحدرين من أصول إسبانية في الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية، ولذلك فقد تعصب كثير منهم لأصلهم الإسباني رغم إسلامهم، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى ضد العرب، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير عبد الله، وثار بعضهم في عدة أماكن من إسبانيا الإسلامية مثل ثورة عمر بن حفصون في ببشتر، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجليقي في ماردة وبطليوس الذي «كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب» وثورة يحيى بن بكر بن ردلف (رودلف) في شنت مرية بأشكونية. وقد تألفت منهم جماعات كبيرة في مدن الأندلس الهامة مثل طليطلة التي كانت من أهم مراكز تجمعهم - لأنها كانت عاصمة إسبانيا القديمة - إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من ثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الأموية في قرطبة. ومن أخطر هذه الثورات تلك الثورة التي قامت فيها في عهد الحكم الربضي 189 هـ وكان يتولى أمرها أمراء مولدين مثل عمروس الوشقي بن طريبشة. وكذلك كانت إشبيلية معقلاً هامًا من معاقلهم، وكان المولدون فيها يعملون غالبًا بالتجارة فجنوا أرباحًا طائلة، وكان كثير منهم من الأثرياء الذين أنفوا من العصبية العربية فتعصبوا ضد العرب في جنسهم[1].

(1) حسين يوسف، المرجع السابق، ص 78.

انتشار اللغة العربية بين الإسبان:

وإذا كان هناك امتزاج جسمي عن طريق الزواج المختلط فقد وجد هناك لقاح بين اللغات والثقافات في الأندلس وتأثير متبادل بينها، واحتكاك ثقافي أدى إلى ظهور حضارة إسبانيا الإسلامية بخصائصها المتميزة. فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الأيبيرية الذين سموا (بالمسالمة)، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإسبان الذين عاشوا بجوار المسلمين، وأخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية، وتعلموا اللغة العربية وسموا (بالمستعربين)، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختان، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير، واتخذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية. كما أتقن الكثيرون منهم اللغة العربية. وليس أدل على ذلك من تلك الصيحة التي أطلقها القسيس الفارو القرطبي 240 هـ/ 854 م حيث كتب رسالة سماها (الدليل المنير) ينتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الإسبان في الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول: «إن إخواني في المدن يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وقصصهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقدوها، وإنما يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًا جميلا صحيحًا. وأين تجد الآن واحدًا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحولريين وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة من الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها إلخ! ويقول (دوزي): هجر أهل إسبانيا اللاتينية، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك (يقصد الفارو القرطبي).

يقول نيكلسون: في أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية، وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه ميل له واتهمه بالعمل على نشر العربية، وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصبين الذين أسهموا في إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام في خلافة عبد الرحمن الأوسط والتي سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار. ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ، وقد دامت هذه الحال زمنًا طويلا في قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى ألفونسو السادس عليها 1065 م. ويقول توماس أرنولد: إن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين، وأقبل الناس على دراسة الآداب العربية التي ازدهرت في ذلك العصر في حماسة وشغف. وهكذا زحزحت اللغة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإسلام المسيحية وصارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة كما صار الإسلام هو الدين الرسمي كذلك. وإذا كان للإسلام أثر كبير في انتشار اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم، فقد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والإسبان دور في ذلك أيضًا. وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هناك لغة عامية تستخدم في الحياة اليومية بعيدًا عن العلم والأدب: فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبري (أواخر القرن الثالث) الذي يقال أنه اخترعها «كان يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة».

كما ذكر ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع

العربية. حتى لو أن شخصًا من العرب سمع كلام الشلوبين المشار إليه بعلم النحو وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه. وهذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلماء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى. وكما كانت الفصحى لإسبانيا الإسلامية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العناصر المختلفة ذات خصائص محلية ميزتها عن فصحى بلاد المشرق العربي، فكذلك كانت العامية في إسبانيا الإسلامية ذات سمات محلية حتى غدت عسيرة الفهم على الكثيرين.

انتشار الإسبانية بين مسلمي الأندلس:

وقد كان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأماتهم الإسبانيات في لغتهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الإسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الإسبانية العامية بصفة خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضًا وهي التي يسميها العلماء «الرومانثية» (Romance) وهي لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم، ويسميها العرب الأعجمية أو اللطينية. ومما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بني بلى بالأندلس. حيث قال وكأنه يتعجب «وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم». وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية. كما يذكر الخشني: أن أحد القضاة شكاه بعض العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمي اللسان يسمى (ينير) مقدمًا مقبول الشهادة فسئل عن القاضي فقال بالأعجمية: ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون: إنه إنسان سوء (باللفظ العجمي) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال: ما

أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضي عن القضاء. ومن مظاهر تأثير اللغة الإسبانية على الأسماء العربية في الأندلس إضافة المقطع الآخر المكون من الواو والنون بالإسبانية On للأسماء للدلالة على التفخيم والتعظيم مثل حفص وحفصون، وخالد وخلدون . . إلخ. ويذكر المقدسي: أنه التقى في موسم الحج ببعض الأندلسيين فوجدوهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة أخرى أعجمية. ويروي ابن هشام اللخمي: أنه نبت سن لأحد أبناء الأمير عبد الرحمن ابن الحكم فوصفوا له طعامًا يتناوله الأطفال عند ذلك فقال لوزرائه: هذا الذي يسميه الناس بالأعجمية (الذنتينية) هل روى عن العرب فيها شيء؟ ويذكر ابن عذارى أن الوزير الشاعر أبا القاسم لب هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأبيات أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر. وكان أبو القاسم عندما وصل إلى قوله شو سكت فقال له الناصر قول فأتمها على نحو ما أضمر وقال له: أنت هجوته يا مولاي - كأنه كان يقصد ذلك - فضحك الناصر وأمر له بصلة. وهذا يدل على انتشار هذه اللغة العامية الإسبانية (الرومانسية) بين الكثيرين سواء من علية القوم أو العامة. وفي الشعر الأندلسي كثيرًا ما نجد ألفاظًا إسبانية وما يقابلها بالعربية إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على تمكن الشاعر من اللغة الإسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلي في مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر حينما افتتح حصن قونة في شمال إسبانيا ومعناه البدر.

وحين يتحدث عن أحد قادة الإسبان واسمه لوبث (لوبيز) ومعناه الذئب يقول:

كم من سمى له فيها وذي نسب لم يدخسر نابه عنه ولا ظفره

تعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللغتين العربية الإسبانية بين الأندلسيين، وهي ما يسمى بالشعر الشعبي. وقد استخدمت فيه ألفاظ عامية عربية وأخرى رومانسية، ويعتبر هذا الفن من الشعر ثورة في عالم الشعر العربي، وحركة من حركات التجديد فيه حررته من كثير من قواعد العروض. حيث لم يلتزم فيه القافية واحدة كالقصيدة، وإنما اشتمل على قواف متعددة ليس وحدته البيت الشعري، وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من غصن وقفل. أي أن الموشحة عبارة عن أغصان وأقفال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة. ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعامية الدارجة أو بالأعجمية أي الإسبانية وأن تكون حارة محرقة، حادة منفجة كما قال ابن سناء الملك المصري. كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان فتاة تتغزل في الفتى على عكس القصيدة العربية التي نجد الرجل فيها هو المحب وهو الذي يتغزل. كما أن الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامية أو الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبني عليها البقية. على عكس القصيدة الشعرية التي تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة.

النزاع بين عناصر السكان:

لم يكن مجتمع إسبانيا الإسلامية بعد الفتح مجتمعًا بسيط التركيب، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة في أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا. وكان هذا التباين وهذا التعدد في وقت من الأوقات مظهراً من مظاهر القوة والثراء، ولكنه كان يحمل في نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال. وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية في مجتمع إسبانيا الإسلامية هو العامل الأول والأكثر أهمية في ثراء

ذلك المجتمع وازدهار حضارته، والركيزة التي قام عليها في الوقت نفسه. ويتمثل هذا التنوع العرقي في وجود الجماعات العربية والبربرية من العرب العاربة التي لاحت إسبانيا الإسلامية، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التي كانت تستوطن البلاد قبل الفتح. ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب البربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة في أصولها وعناصرها. وقد اختلط هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر من العرب العاربة بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في إسبانيا الإسلامية قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم. وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك اندماج تام وامتزاج كامل بين العناصر التي وفدت إلى إسبانيا الإسلامية. فالعصبية العربية التي كانت ظاهرة في المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى إسبانيا الإسلامية وعملت عملها في تفتيت وحدة العرب، وتفريقهم إلى شيع وأحزاب. ما بين مضريين ويمنيين يتنازعون على الملك والرئاسة، وما بين بلديين وشاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحق بها.

وكذلك لم يكن البربر من العرب العاربة وحدة واحدة فيما بينهم، ووقع نزاع شديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فلكل منها طابع وأهداف واتجاهات. ويمكن القول: إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرًا واستمر استمرارًا يكاد يكون متصلا، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة. بحيث يمكن القول: إن هذه الفتن والاضطرابات والحروب قد صحبت تاريخ المسلمين في إسبانيا الإسلامية من بدايته إلى نهايته إلا في عهود بسيطة شهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران. ولقد تميزت إسبانيا الإسلامية من بين الأقطار التي فتحها المسلمون بعوامل

خاصة كـانت مثار الاضطرابات والفتن والقلاقل من حـين لآخر. وقد ظلت هذه العوامل تثور حينًا فتسبب التفكك والانحـلال، وتكبح حينًا فتعود إسبانيا الإسلامية إلى وحدتها وقوتها، ولكنها اشتدت وتجمعت في النهاية لتؤدي إلى غروب شمس الإسلام من إسبانيـا الإسلامية. ويمكن أن نلخص هذه العوامل فيما يلي:

1 – عامل جغرافي: يتمثل في بعد إسـبانيا الإسلامية عن بلاد المسلمين الشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان داخل شمال إفريقية عند الاسـتنجاد بها في مرحلة الخطر. ولذلك كان على عـمر بن عبد العزيز أن يـعود المسلمون مـنها لانقطاعهـم من وراء عن إخوانهم. فـالعامل الجغـرافي كان بعـيد الأثر في غربة الإسـلام الجزيرة الأندلسـية. 2 – عامل قومي: فالمسلمون في إسبانيا الإسلاميـة كانوا بإزاء أمة مقاتلة من أكثر شعوب أوروبا تعصـبًا للمسيـحية وهم الإسـبان الذين سيطر عليـهم هدف واحد هو إخراج المسلـمين من إسبانيـا الإسلامـية بأي وسيلة والثـأر منهم. 3 – عامل ديني: وهو خشية الأوروبيين من الزحف الإسلامي لا يسيطر على بقية أوروبا فوقفوا يؤيدون الإسبـان بكل قوة للدفاع للمسيحية مـن ناحية وحراسة أوروبا من المسلمين الغـزاة من ناحـيـة أخـرى، كمـا فـعلوا بعـد ذلك مع الأتراك العثـمانيين. 4 – الخلاف والصـراع والتنافس بين عناصر المسلمين في إسبـانيا الإسلامية وبين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر العرب العاربة. 5 – كثرة الفتن والثـورات منذ بدايـة الفـتح والتي أشـاعت الفـوضى في البـلاد وراح ضحيتها الكثيرون، وقادها زعمـاء كثيرون من مختلف البشر. ومثال ذلك أن أسرة بربرية واحدة هي أسرة فرتون بن موسـى وحدها ثمانية في مدينة واحدة هي سرقسطة. 6 – الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والخلفاء والذي بدأ مـبكرًا منذ وفاة عـبد الرحـمن الداخل واسـتمـر ينخر في جـسم الدولة

الإسلامية حتى عـهدها الأخير. 7 - استعانة المسلمين المتـحاربين في إسبانيا الإسلامـية بأعدائهم من المسـيحيين الإسـبان والأوروبيين لقتـال إخوانهم، مما جعلهم يفنون بعـضهم بعضًـا وعدوهم ينتهـز الفرص للإجهاز عليـهم. وقد أصاب ابن الشباط حين قال: إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصـرف مغـلوبًا وإنما خدلـهم التحـاسـد وفـرط الخلاف والتـبـاغض وقلة الإنصـاف. وكذلك الحجـاري حين ذكر أن شـارل مارتل لما شـكا إليه قـومه وقوف العرب على أبواب بلادهـم قال: «لا تواجهوهم في إقبـال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم، ويأخـذوا في التنافس على الرياسـة والملك والمال، وعند ذلك تتـفق كلمتـهم ويضعف أمـرهم فتتـمكنون منهم بأيسر مـجهود، ويُعـقِّب المقري على ذلك فيقول: فكان والله ذلك. 8 - يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية في إسبانيا الإسلامية كانت تميـل غالبًا إلى العيش والتكتل في مناطق خاصة بها، فمثلا كـان العنصر العربي الغالب على قرطبة، والعنـصر البربري من العرب العاربة الغـالب على غرناطة ومالقـة وقرمونة، وعنصـر المولدين الغالب على طليطلة وإشبـيلية وكان لهذا أثـره البالغ في الميل إلى الاستقـلال والخروج مما كان يستلزم استعـمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحـدة السياسية للبلاد.

ويرى د. حسين مؤنس: أن مسيحي إسبانيا كانت تعوزهم روح الترابط والوحدة بسـبب تفرقهم في شـبه الجزيرة، وأن هذا قـد أدى إلى تمزق البلاد بسهولة. والحقيقة أن تفرق السكان لا دخل لـه بالوحدة السياسية لأنها تتوقف على قـوة الحكومة المركزيسة أو ضعفـها وكل مـا في الأمر أن طبـيعـة البلاد الجغرافيـة (الجبلية) قد جعلت هناك حواجـز طبيعية من الصعب اجـتيازها مما قسم إسبانيا الإسلامية إلى أقـاليم شبه منفصلة، وساعد على الميل إلى النزعة

الانفصالية في كثير من الأقاليم التي كانت تسكنها عناصر غير عربية تغذيها عوامل قومية في كثير من الأحيان. وأمام هذا الخليط العجيب من الأجناس تكتلت العناصر العربية وألفت نوعًا من العصاةي وظهرت آثار ذلك في صراع العرب مع عرب العاربة البربر من جهة ومع المولدين من جهة أخرى. لم يمض وقت طويل على استقرار المسلمين في إسبانيا الإسلامية بعد فتحها، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التي أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمنية. وقد لعبت سياسة بعض الولاة في إسبانيا الإسلامية دورًا كبيرًا في إذكاء نيران هذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه. فكان إذا ما تولى شخص من القيسية قدم قومه وآثرهم على اليمنية مما يؤدي إلى إثارة النزاع والقلاقل والفتن وعلى سبيل المثال: فقد تعصب كل من عنبسة بن سحيم الكلبي، وعذرة بن عبد الله الفهري، ويحيى بن سلامة العاملي خلال مدة ولايتهم التي استمرت سبع سنوات (شوال 103 هـ - ربيع الأول 110 هـ) اليمنية مما أوغر صدر الحجازية، وامتلأت نفوسهم ألمًا وأصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية، ولما تولى أمر إسبانيا الإسلامية ولاة منهم مثل: حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، والهيثم بن عبيد الله الكناني[1]. كانت موقعة مرج راهط سنة 64 هـ بين جيوش الأمويين بقيادة مروان ابن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمنية أنصار الأمويين وبين أنصار ابن الزبير، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعين ألفًا من قيس وقبائلها، مما أوغر صدور الحجازية، فكانوا ينتظرون الفرصة لتسوية حسابهم القديم مع اليمنية.

(1) حسين يوسف - نفس المرجع السابق ص 91.

الحروب وتأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

من الثابت أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية تتأثر تأثيراً بالغًا بحالة الأمن والاستقرار في مجتمع إسبانيا الإسلامية، تعرضت خلال فترة الانتقال من حكم الطوائف إلى حكم دولة المرابطين لحالة من الاضطراب واختلال الأمن وانعدام الطمأنينة، حيث كثرت - في تلك الفترة المذكورة - حالات الغصب، والإكراه، ومصادرة الأموال، وإنهاك الرعية بالضرائب والمغارم. فتذكر إحدى النوازل التي تؤرخ بعام 492 هـ/ 1098 - 1099 م أن أحد الثوار في أواخر عصر دويلات الطوائف، ويدعى سعيد بن زيفل، ثار بحصن شقورة واستولى عليه وعلى جميع جهاته عدة أعوام، وخلال ذلك اصطنع كل مظاهر العسف والظلم مع الرعية، وأنهك كاهلهم بالمكوس والضرائب الباهظة، واستولى على غلات تلك المنطقة أعوامًا، كما اغتصب أموال بيت مال المسلمين وأملاكه بها، وأثرى من وراء ذلك ثراءً فاحشًا، فاشترى الضياع الواسعة والعقارات والرباع بجيبان وغيرها، وانعكس هذا الوضع السيئ على مستوى معيشة الأفراد في تلك المنطقة وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية بصفة عامة. كذلك هناك ما يدل على اتجاه بعض ملوك الطوائف إلى الاستيلاء على أموال الناس بالباطل ومصادرة ممتلكاتهم، مستغلين في ذلك سطوتهم وجبروتهم، وعدم وجود من يردعهم من القضاة والعلماء وأهل الفتوى الذين لا يخشون في الحق لومة لائم، ومن أمثلة ذلك قيام المعتضد بن عباد - صاحب إشبيلية - بغصب مجشر (ضيعة) لابن زهر، ونجم عن ذلك مشكلة فقهية فيما بعد، وذلك أن رجلا يدعى ابن عاصم اشترى المجشر المذكور من ابن عباد، وبعد عدة أعوام قام ابن موسى وكيل ابن زهر، بالمطالبة بالمجشر الذي كان لسلف موكله ابن زهر، وأنه من جملة ما غصبه ابن عباد، وعندما عرضت القضية على أهل الفتوى والقضاة بإشبيلية حكموا بإعادة المجشر

المذكور إلى ورثة ابن زهر. ومن جهة أخرى كان للغارات النصرانية، والحروب بين المسلمين والنصارى الإسبان انعكاسات على الأوضاع الاقتصادية في مدن وقرى إسبانيا الإسلامية، فلا شك أن تلك الغارات النصرانية على الثغور والحصون المتاخمة لحدود الممالك الإسبانية المسيحية كانت تؤثر على النشاط التجاري وحركة البيع والشراء وحرية الانتقال من موضع إلى آخر، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية. فتذكر إحدى النوازل أن متقبلي الفنادق والأرحاء والحوانيت وما شابههم تعرضوا للكثير من الأضرار الاقتصادية والمالية نتيجة للحروب والفتن وانعدام الأمن، لأن تلك الحالة أدت إلى انعدام الإقبال على سكنى الفنادق وقلة العملاء الذين يأتون بالحبوب لطحنها في الأرحاء، مما دفع المتقبلين إلى مطالبة مُلاَّك الفنادق والأرحاء باعتبار ذلك حائجة يجب بسببها تخفيض قيمة الكراء عنهم. وتضيف نازلة أخرى أن نصارى طليطلة كانوا يشنون غارات على أحواز قرطبة وقراها ويعيثون في تلك المناطق نهبًا وسلبًا، غير أن هذا لم يمنع تجار طليطلة النصارى من الوفود على قرطبة في أوقات الصلح أو الهدنة من أجل التبادل التجاري، وقد حدث أن قام أهالي قرطبة بأسر بعض التجار النصارى وأخذ أموالهم رهينة لحين رد ما نهبه إخوانهم المغيرون من أموال مسلمي قرطبة، وما أسروه من أهلها. كذلك كان لسقوط بعض مدن وثغور إسبانيا الإسلامية في أيدي النصارى الإسبان تأثير على العلاقة بين المالك (أو صاحب العمل) والأجير، فتذكر إحدى النوازل أن رجلا من أثرياء مجريط (مدريد Madrid حاليًا) استأجر آخر مقابل كمية محددة من القمح، ثم اضطر للخروج منها إثر سقوطها في أيدي النصارى، واجتمعا بقرطبة، حيث طلب الأجير حقه من القمح، ولكن صاحب العمل رفض إعطائه القمح بقرطبة بحجة أن ثمنه بها مضاعف، وأصر على أن يعطيه قيمة ما كان يساويه بمجريط آن ذاك. وقد

تأثرت الحياة الاجتماعية والدينية في المجتمع أيضًا بالفتن والحروب، فنستنتج من إحدى النوازل أن الخطر الإسباني المسيحي كان له تأثيره على اختيار المسجد الجامع لأهل القرى المتجاورة الواقعة على مقربة من حدود الممالك الإسبانية المسيحية، فالحروب قد تضطر أهالي القرى إلى اختيار مسجد الحصن ليكون جامعًا لهم تقام فيه صلاة الجمعة لحين زوال الأخطار. كذلك كان للحروب الداخلية في إسبانيا الإسلامية والتي اندلعت عند قيام المرابطين بخلع بعض ملوك الطوائف تأثيراتها على الأوضاع الاجتماعية، حيث يتضح من إحدى القضايا الفقهية أن بعض الجواري - بمدينة إشبيلية سقطن في أيدي الجند المرابطين بطريق الغصب، إثر دخول قوات المرابطين المدينة وخلع المعتمد بن عباد في 484 هـ/ 1091 م، مما نتج عنه نوازل فقهية، فقد طالب أسيادهن بهن، وأثبتوا أحقيتهم فيهن، واضطر المرابطون إلى إعادتهن إليهم. ومن الثابت أيضًا أن اندلاع الفتن والثورات الداخلية، واضطراب حالة الأمن في المجتمع، خصوصًا في أوقات ضعف سلطة الدولة، يؤدي غالبًا - إلى انتشار حوادث السرقة والنهب والقتل والمشاجرات الدامية، وتشير النوازل إلى حوادث عديدة تسمى «بالتدمية»، وقعت بجيان ومربيطر وإشبيلية وقرطبة، ونجم عنها سقوط قتلى وجرحى، ومطالبة أوليائهم بالقصاص من القتلة، ويلاحظ أن أغلب تلك الحوادث سببها محاولة السطو وسرقة أموال من اشتهر بالثراء في تلك المدن[1].

تجدر الإشارة هنا إلى أنه في حالة ثبوت اتهام بالقتل على متهم ما، وعجزه عن الدفاع فإنه يجب بعد ذلك أن يقوم والد القتيل وأخوه بالقسم

---

(1) كمال السيد أبو مصطفى، صور من المجتمع الأندلسي، المجلة التاريخية العربية، المجلد 27، عام 1990.

خمسين يميـنًا بأن المدعى عليه (القاتل) هو الذي قتله، حـيث يقول الأب في يمينه وهو مستقـبل القبلة إثر صلاة العصر من يوم الجمعـة على ما مضى عليه عمل القضاة: «بالله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، لقد قتل هذا - ويشير إلى القاتل - ابني فلانًا بالجـرح الذي أصابه به ومات منه على سبيل العمد بغـير حق، وكذلك يقسم الأخ، فإذا استكمـلا خمسين يمينًا على هذه الصفة فإنهما يقومان بالإجـهاز على القاتل بالسيف على ما أحكمه الشرع من القصاص في القتل.

البناء الطبقي:

أفصـحت الخلافـة الأموية مـنذ قيـامها، عـن مشروعـها الهـادف إلى استـئصال جذور الخـلاف والصراع «كيمـا يكون الناس أمة واحدة، سامـعة، ساكنة» وقد نجحت فعلا، كمـا اتضح ذلك سلفًا، في محور التناقضات ذات الصبغـة العرقية والطائفـية. مما دفع بالبعض إلى الحديث عن تجـانس المجتمع الأندلسي وانتصار «الشعور القومـي» وسيادة «روح الإخاء» والتضامن الوطني على الرغم مما لهذه الملاحظات من أهمية في التأكيد علـى عمق التغيير، فإنها تخفي حقـيقة الوضع الاجتماعي الجـديد، وطبيعة تناقضـاته. فانحلال البنى الاجتماعـية التقليدية، لم يفضِ إلى الركود، كما يسـتفاد من النص السابق. بل ساهم في تحرير الصراع الطبقي من معظم القـيود التي كبلته خلال العصر السابق. من ثم أهمية الكشف عن أطراف هذا الصراع. من الطبيعي أن يسفر ازدهار التجارة والحرف، وتغيير الهياكل العقارية، عن بلورة منظومة اجتماعية جديدة. ولعله من المفـيد، للكشف عنها إثبات تصنيف نظري لإخـوان الصفا يتناول الطبقـات الاجتماعـية في العالم الإسـلامي، إذ قالوا: «الناس أصناف وطبـقـات . . . منـهم أرباب الصنائع والحـرف والأعـمـال، ومنهم أرباب التجارات والمعاملات والأمـوال، ومنهم أرباب البنايات والعمارات والأملاك،

ومنهم الملوك والسلاطين والأجناد وأرباب السياسات، ومنهم المتصرفون والخدامون والمتعيشون يومًا بيوم، ومنهم الزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ، ومنهم أهل العلم والدين». ولعل في اعتماد هذا التصنيف على مقياس اقتصادي، ما أكسبه - على الرغم من شموليته - الوضوح والأهمية التي نفتقدها عند غيرهم. وبالنسبة لإسبانيا الإسلامية، حدد ابن الخطيب بتفصيل وضعية التركيبة الطبقية خلال خلافة هشام المؤيد، بما يساعد على التأصيل التاريخي لخريطة إخوان الصفا، اعتمادًا على ما توصلنا إليه من نتائج بصدد رصد الوضعية الاقتصادية. ففي قمة الهرم الاجتماعي: الطبقة الأرستقراطية، وتضم حسب ابن الخطيب «صنائع الحكم وخدامه وعماله وفتيانه ورجاله». وقد لاحظنا سلفًا، بأن قيام حكم مركزي، كان على حساب الشرائح الإقطاعية، البيروقراطية والعسكرية، اللتين تم تقزيمهما. وقد وصف ابن الخطيب ما آلت إليه وضعيتهما بالقول: «وهذا الصنف المنازع المنافس، بين أن يصمت فيموت بدائه، أو يجهر بالمنازعة فينتهي إلى قدرة الله وقضائه». مما فسح المجال لتبرجز الطبقة الأرسقراطية، التي راكمت الأموال الضخمة من الضرائب والمكوس والعشور، استثمرتها في اقتناء «الضياع المغلة» وإقامة دور للتصنيع، واحتكار التجارة ببعض السلع، إضافة للأشراف على مشاريع البناء والتجهيز. ومن الملاحظ أن النصف الأخير من عصر الخلافة، شهد انتعاشًا تدريجيًا للشرائح الإقطاعية، تمثل في استقدام القبائل العسكرية البربرية وإقطاعها الأراضي مقابل خدماتها. وغني عن القول أن الازدهار الاقتصادي، ووفرة الأمن، واتساع شبكة المواصلات، أفضى إلى تزايد أهمية التجار، الذين شكلوا طبقة وسطى في المجتمع. وقد عرفوا في المصادر القديمة باسم وجوه الأرباض والأسواق أو «بياض أهل السوق» وفي وصف للجاحظ ما يكشف عن وضعيتهم، إذ قال: إنهم أورع الناس أبدًا وأهنأهم عيشًا

وآمنهم سربًا . . . يرغب إليهم أهل الحاجات وينزع إليهم أهل الباعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم. وقد اتسعت قاعدة هذه الطبقة، بانضمام بعض أرباب المهن، ممن استطاعوا تطوير وحداتهم الإنتاجية، خصوصًا النسيجية منها. إضافة لعديد من أهل القلم الذين «استندت على جهودهم تقنيات النهضة الزراعية والصناعية والتجارية وأولئك الذين شغلوا المناصب في الجهاز الإداري الجديد. وقد كشف ابن الخطيب عن وضعيتهم في وسط السلم الاجتماعي، بالقول: أن هذا الصنف «لا يتشوف إلى المزيد، ولا يحذر من النقصان». ولعل في هذا ما يفسر هامشيته في الصراع الطبقي. ولا غرو، فقد اشتهر بكونه «هادن ساكن، وإلى فئة العافية راكن». وفي قاعدة الهرم الاجتماعي، نجد العامة. وغني عن البيان أنهم شكلوا الغالبية العظمى، بالبوادي والمدن على السواء. عبر عن ذلك ابن خلدون بالقول: «ويموج بحر المدينة بالسفلة». وهم بقرطبة «خلق لا يحصيهم إلا خالقهم وقد سبق القول، أن العاصمة احتضنت أكبر تجمع لهم، ليس بالأندلس فحسب، بل بمجموع الغرب الإسلامي، كنتيجة طبيعية لمكانتها الاقتصادية. على الرغم مما تحمله هذه الطبقة من خصائص مشتركة، وما يجمعها من مصالح وأهداف، فمن الخطأ تصورها منسجمة تمام الانسجام. ولعل في طبيعة عصر الخلافة، باعتباره مرحلة انتقالية، امتزجت فيها عناصر من البنية السالفة ببذور التحول، ما يقتضي بعض التروي عند رصد شرائحها. ولا غرو، فإخوان الصفا فصلوا أرباب الصنائع والحرف والأعمال، عن المتصرفين والخدامين والمتعيشين، عن الزمنى والعطل وأهل البطالة، باعتبارهم شرائح متميزة بعضها عن بعض، في إطار طبقة العامة. واستنادًا على الوضعية الاقتصادية، يمكن تحديد شرائح عامة قرطبية كالتالي:

ويشملون بداخل المدينة أهل الحرف الصناعية. ويمكن تمييز أرباب المهن المالكين لأدوات العمل، عن الصناع ومتعلمي الحرف، الذين يفتقدونها. من ثم، فهناك نوع من الاستغلال، يمارسه الطرف الأول على الثاني. لكنه استغلال مؤقت. يقول إخوان الصفا «إن أي تلميذ أو متعلم في علم أو صناعة امتثل أمر أستاذه وانقاد لمعلمه ودام عليه فإنه سيصير يومًا ما إلى مرتبة أستاذه». والأهم من ذلك، فرب الحرفة، لا يسيطر على فائض القيمة لتحقيق الربح والتراكم الراسمالي، بل للعيش. من ثم العلاقة الأبوية بين الطرفين، والجنوح نحو التماسك والتعاضد داخل الحرفة، على حساب التناحر والصراع. ساهم في ذلك، تعرض الجميع لاستغلال التجار المسوقين لمنتوجاتهم، وكذلك للمكوس والضرائب التي تفرضها الدولة. بل وحتى المحتسب، في مراقبته لا يميز بين الطرفين، فهو «يأخذ المعلم بكل ما يجد من الفساد في شغله ويعاقب مع الفاعل له. غير أن تزايد الطلب على المنتوجات الصناعية، مكّن بعض أرباب المهن من تحقيق تراكم رأسمالي. ولزيادة الإنتاج، تحولت حوانيتهم تدريجيًا إلى ما يشبه «المانيفاتورة». من ثم صعودهم بحكم موقعهم الجديد كمستثمرين إلى الطبقة الوسطى. في حين تحول الحرفيون إلى عمال مأجورين. بمعنى أن بذور الانحلال عملت فعلها في الروابط باتجاه إفراز طبقتين متناقضتين بداخلها، وإن كان على نطاق ضيق. ومما ساعد على بلورة هذه الفئة من المأجورين، إقدام بعض التجار على الاستثمار في المجال الصناعي. وعلى الرغم من التناقضات القائمة فيما بين الحرفيين: صناعيًا، عمالا وأرباب مهن، من جهة، والارستقراطية والتجار وأرباب المهن المتبرجزين من جهة أخرى، فقد جمعتهم مصلحة الحفاظ على وحدة البلاد، وضرورة الهيمنة على طرق التجارة العالمية. ولا غرو، فالقطاع الصناعي ازداد ارتكازاً في تموينه بالمواد الخام، وتسويق منتوجاته، على

مجمـوع البلاد وعلى الأسواق الخـارجية. أن انفراط ذلك، يعني انهـيار هذا القطاع. وعلى عكس بقـية شرائح العـامة، فمن الملاحظ أن الحـرفيين حظوا بفضل وعيهم بدورهم الاقتصادي وتماسك تنظيماتهم، باحترام بقية الطبقات. فكما أشاد ابن غالب بصناع الأندلس، اعتبر غير اكتساب الصنعة ميزة. وعلى الرغم مما أكاله السـقطي من شتائم على رءوس العامة، لـم يتردد عن القول: «حدثني رجل من الصناع لم أزل أذكره بخير». وبالمثل، خصهم إخوان الصفا دون غيـرهم، بالتعظيـم والتبجـيل. وفي إطار تقسـيم العمل بين القـطاعات الاقتصادية، اقتصر دور سكان الأرياف القـرطبية و«الجنان» و«المستغلات» التي بداخل المدينة وبالحـقول المحيطة بهـا، على الإنتاج الفلاحـي. واستنادًا على وضعية الأرض. يمكن تمييز المنتجين بهذا القطاع، إلى ملاكين صغار وفلاحين فـقراء. ومن المعـلوم أن الفئـة الأولى، قـد تحرر مـعظمـهـا من الواجبـات الإقطاعية، واتسعت قـاعدتها تدريجيًا، تبعًا لـلانكماش الذي أصاب الشرائح الإقطاعية. ولعل فيما أورده ابن سهل عن ظاهرة البـستنة بقرطبة وخارجها ما يؤكد ذلك. ولكنها استمرت ملزمة بأداء واجبات الدولة. والأخطر من ذلك، أصبحت معرضة لجشع التجار والطبقـة الأرستقراطية. فقد سبق إثبات حديث لأحد وزراء الناصر عـن قرية بقنبانية قـرطبة، قال فيه: «لم أهنأ بـعيش حتى أعملت الحـيلة في ابتياعـها بأحوازها» كـما تحدث ابن عـذارى عن عديد من «أرباب المستغلات الذين اشتـريت منهم». وعن اضطرار «شيخ من العامة إلى بيع قطعة أرض بداخل قرطبة. بصرف الـنظر عما أورده ابن سهل عن العديد من عمليات بيع وشراء الأرض. ويبدو أن سنوات القـحط، وانخفاض أسعار المواد الغـذائيـة خلال سنوات الرخـاء، كـان له دور في فقـدان العـديد من الفلاحين الصغـار لممتلكاتهم. أما الفئـة الثانية، فكانت معقـدة في تكوينها. فهناك الاقنان الذين استمروا فيما تبقى من الأراضي الإقطاعية، وفي ممتلكات

الأسرة الحاكمة. وأشباه الأقنـان الذين يرتبطون مؤقتًا بالأرض، بواسطة عقود «الشركة» و«كـراء الأرض» في ممتلكات الأحباس والطبقـة الوسطى والشرائح المتبـرجزة من الطبقـة الأرستقـراطية. وأخيـرًا الفلاحون الأحـرار المأجورون الذين، رغم العلاقة الرأسمالية التي تربطهم بالملاكين، لم يكونوا طبقة عمالية زراعية واضـحة. نظرًا لطابع عملهم الموسـمي، وانتقالهم للخدمـة من مالك إلى آخر. تأرجحت طبيعة هذه الفئة إذًا، بين القنانة والعمل المأجور. على أن تراجع الربع العيني والسخرة، وتوجيه أغلبية الإنتـاج لتلبية الحاجيات الغذائية للعاصـمة، أو حاجيـات بعض القطاعات الحرفـية من المواد الخام الفلاحـية، اضطر المنتـجون إلى الدخول فـي علاقات سـوقيـة مع التجـار والجلاب. مما جعلهم عرضة لاستغلال مـزدوج. ولعل فيما أورده المقري بالقول: «وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قـرية»، ما يكفي للدلالة عن كثافـة هذه الفئة. نخلص إلى القول، أنه على الرغم من الاخـتلافات وبعض التناقضات التي اسـتمرت في صفوف المنتـجين، فلاحين كانوا أم حرفيين، فـتعرضهم للاستـغلال من قبل الأرستقراطية والتـجار يجعلهم متماسكين. باعتبـارهم النواة الصلبة الأساسية لطبـقة العـامـة. وغني عن القـول، أن النمو الديموغـرافي وازدهار النشـاط الصناعي والتجاري، أفضى إلى اتساع ملحوظ في قاعـدتهم الاجتماعية. ميز ابن خلدون كـبار التـجار الممـارسين للتـجارة عـبر المسـافات البـعيـدة، عن «المترددين في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانـه» باعتبار الصنف الثاني «سافل الطور للأشرار الباعـة» وقد برهن ابن بشكوال على انطباق ذلك على إسـبانيا الإسلامـية، فيمـا أورده عن أحدهم «كان معـاشه من ثياب يبـتاعها ببـجانة ويقصـرها ويحملها إلى قرطبـة له في ثمنها ما يصلح ببـجانة». وعلى الرغم من أن كلاهـما يشغل رأسـمالا تجـاريًا، فالهـدف بالنسبـة للصنف الأول هو الربح، والثاني، التـعيش. أكد ذلـك ابن بسام فيـما أورده عن تاجر تقـسيط

«يقتات معيشة مياومة». وعلى غرار الشرائح السابقة، تعرض هؤلاء لاستغلال كبار التجار والمحتكرين، الذين لا يتركون لهم إلا مجالا محدوداً للربح، ساهمت مكوس الدولة وواجبات الأسواق في تقليصه. وفي درجة أدنى: الباعة، وهي الفئة التي تتولى تسويق المواد الاستهلاكية الضرورية لحياة الناس. وقد عرفوا في المصادر باسم «السوقية» و«باعة الطريق» و«الرعاع» و«أوباش الأسواق» كما أطنبت كتب الحسبة في إحصاء أصنافهم، التي ازدادت اتساعًا وكثافةً مع النمو الديموغرافي الذي عرفته العاصمة. وبما أن هذا النشاط لا يتطلب مهارة خاصة، لا تعلمًا، فقد استوعب أغلبية المهاجرين الجدد من البوادي. من ثم هشاشة تنظيماتهم، وعجزهم عن مواجهة المراقبة الشديدة التي فرضتها عليهم الدولة، ممثلة في خطتي الحسبة والشرطة. ولعل في ذلك مايفسر نعتهم بـ «همج هامج ورعاع منتشر لا نظام لهم ولا اختبار» ونظراً لاحتكاكهم المباشر بالمستهلكين، لم تتورع الدولة عن تحميلهم مسئولية ارتفاع الأسعار وافتعال تناقضات فيما بينهم وبين بقية شرائح العامة. ركز المؤرخون القدامى على إبراز أهمية قطاع البناء والتجهيز، باعتباره المظهر الأكثر دلالة على مدى الازدهار الحضاري. ولا غرو، فالناصر خصص له ثلث الجباية. مما يكشف عن أهميته في التشغيل. فبناء الزاهرة وحدها، تطلب «عدة حذاق البناة في كل يوم ثلاثمائة بناء، وعدة حذاق النجارين مائتا نجار، وعدة الأجراء في كل يوم خمسمائة أجير تتمة ألف عامل» إضافة لـ «ألف وأربعمائة» ناقل لمواد البناء. واضح بأن العلاقة بين المشغل والمشتغل، كانت قائمة على الأجور. فـ «من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة على أنه من المفيد بين القطاع الموجه للاستعمال الخاص والعمومي، والاستثمار العقاري الهادف إلى تحقيق الأرباح. فمن القرائن، ما يكشف عن مدى ازدهار النوع الثاني. فعديد هم التجار الذين يملكون «دكاكين ومنازل

مغلة» كما كانت بقرطبة عدة حوانيت ابتناها السلطان فاكتراها الناس منه وتحدث ابن سهيل عن «الاكتراء في القيساريات والحوانيت المقصوبة والمبنية بالأموال الحرام». ومن أمثال العامة ما يكشف عن اتساع الاستثمار العقاري. وليس أدل على ذلك من أهمية وظيفة عرفاء البنيان والقسام في عيوب الدور. ومما يؤكد شيوع العقلية التجارية بهذا القطاع، شكوى إحدى النساء من أن بناء «القرائن بقرب دارها ضرر عليها لأنه يحط من ثمنها نحن إذاً، أما فئة عريضة من الأجراء، معرضة لاستغلال مكثف من طرف حفنة من العقاريين. وقد كشف السقطي عن وضعيتهم، على لسان شيخ من البنائين، قال: «كان معي رجل يخدم وكان مقدوراً عليه في رزقه ضيق الحال». تضاف إلى هؤلاء جميعًا، جماهير غفيرة من مستخدمي الأشغال العامة. كالمكلفين بمد وصيانة شبكة «أنابيب الرصاص» الموزعة للمياه الصالحة للشرب، والقائمين على «قنوات» تصريف المياه المستعملة، ومنظفي الشوارع والدروب والمرافق العامة، وغيرهم. ولم يكن قطاع المواصلات أقل أهمية في إفراز المزيد من الأجراء العارضين للخدمات: نقله، حمالين، نواتية حراس. نخلص إلى أن هذه الشريحة، تضمنت فئة مرتبطة بتلبية رغبات الترف لدى الطبقة الأرستقراطية. وأخرى على العكس، وثيقة الصلة بالنشاط التجاري. مع ذلك فمكانة فعالياتها، على هامش الأنشطة الاقتصادية الأساسية، يجعلها دون أهمية الشرائح السالفة.

من المتعارف عليه أن إسبانيا الإسلامية احتلت مكانة هامة كسوق لتجارة العبيد، وتقدم المصادر معلومات مستفيضة عن الصقالبة منهم. ويبدو أن مصدر الرقيق يكمن في الحروب المستمرة فيما بين الكيانات الأوروبية؛ وعجز العلاقات الإقطاعية بها عن استيعابهم، فيرسلون مادة تجارية إلى إسبانيا

الإسلامية يقول الرقيق القيرواني متحدثًا عن الفرنجة «وهذه أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض إسبانيا الإسلامية. أما المعلومات بصدد العبيد السود فقليلة، مع ذلك فمن القرائن ما يؤكد تداولهم. كثير هم الدارسون الذين اعتقدوا في مشاركة العبيد الفعالة في الأنشطة الاقتصادية، وبالخصوص الفلاحية منها. بل ولم يتورع موريس لومبار عن الإقرار بأن «العالم الإسلامي هو أيضًا، عالم حضارة رقية. القوة المحركة، الطاقة، كانتًا آنئذ مطلوبتين في حدود واسعة من عضلات العبد». ولعل فيما سبقت دراسة ما يكفي لإسقاط هذا الزعم. على أي، فالمصادر القديمة وفرت عنا عناء تفنيده، في تأكيدها المستمر على إدماج الرقيق في الأجهزة العسكرية والإدارية واقتصار غيرهم على الخدمات المنزلية فلنتأمل على سبيل المثال نصًا للسقطي يقول فيه: «الخادم البربرية للذة والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب، والزنج والأرمن للكد والخدمة ومعها العطاء، والترك والصقالبة للحرب، والشجاعة». حقيقة أن هناك من العبيد، من أسندت له مهام إنتاجية. فقد ذكر ابن عذارى أن الحكم المستنصر «رتب جملة من مماليكه لتعلم الصناعة». كما سبقت الإشارة إلى «مماليك منية العجب» بقرطبة، الذين استمروا يمارسون النشاط الفلاحي. لكنهم لم يحافظوا من العبودية إلا على الاسم. فقد أشكل على القاضي «أمر (اثنين منهما) ولم يعلم أهما من أبناء الحرائر أم من أبناء الإماء» بما يؤكد عجز العلاقات العبودية عن الاستمرار في القطاعات المنتجة، كحصيلة طبيعية لما عرفته من تطورات. وعلى غرار الخلفاء والحجاب العامريون، الذين تناغوا في اكتساب العبيد للخدمة بقصورهم تنافس باقي أفراد الطبقة الأرستقراطية على تملكهم. يذكر ابن بسام أن أحدهم كان يملك «مائتي نسمة من رقيق الصقلب

منتقاة». ولم يكن هناك ما يمنع أهل الذمة عن ذلك، فقد ورد على القاضي غلام يزعم أنه حر وأنه يكره على اليهودية وادعى يهودي أنه مملوكه وبالمثل، لم يتردد غيرهم من ذوي الإمكانيات عن اتخاذ الخدم أحراراً كانوا أم عبيداً. وذلك على الرغم من تشجيع الخلفاء والحجاب على تحريرهم. فقد «أعتق الحكم نحواً من مائة رقبة من عبيد له على غراره «أعتق المنصور ألفا وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة». ونظراً لهامشيتهم ولاقتصار دورهم على الخدمات المنزلية، لم يكن للخدم والعبيد، كشريحة من العامة شأن يذكر، ولا غرو، فقد كانوا محط سخرية باقي شرائح العامة، ومثالا لديهم على الفتور والكسل بل لم يترددوا عن التحذير من الاختلاط بهم. حددهم إخوان الصفا، كما لاحظنا ذلك سلفًا، في الزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ. وهو ما فصله أحد الدارسين بالقول: «وتألفت من اللصوص، المجرمين، الشحاذين، المومسين، المومسات، المتسكعين في أزقة المدن وساحاتها، الغرباء والعاطلين عن العمل، المهرجين، الراقصات» والدراويش والحمقى. وعلى الرغم من دور الازدهار الاقتصادي في تقليص عددهم، فقد استمروا يشكلون فئة هامة بالعاصمة، كنتاج بديهي لتفسخ البنيات التقليدية بالبوادي، وكثافة الهجرة القروية. وليس أدل على ذلك، من اتساع ظاهرة اللصوصية. فأهل قرطبة كانوا «في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روعات طراقه مالا يكابد أهل الثغور من العدو ولا غرو، فـ «لا تكاد في إسبانيا الإسلامية تخلو من سماع دار فلام دخلت البارجة وفلان ذبحه اللصوص على فراشه» وقد وصل بهم الأمر إلى حد «سرق بيت المال الذي للسبيل بداخل المسجد الحرام بقرطبة». أكد ابن سهل هذه الحقيقة فيما أورده من نوازل قضائية، حوكم فيها «أهل الشر»، وامتداد حقل عملياتهم إلى «قنبانية» قرطبة. هكذا، فدور هذه الشريحة كان سلبيًا، باعتبار ميلها للسلب والنهب.

من ثم إمكانية الجنوح عن أهداف تحركت العامة المطلبية والسياسية. إضافة إلى كونها، قد مكنت أعداء العامة الطبقيين من وصفها باللصوصية والزعرنة والفجور. الخلاصة - أن عامة قرطبة تضمنت عدة شرائح، منها ما هي رئيسية، ومنها ما هي ثانوية. وعلى الرغم من الاختلافات والتناقضات في صفوفها، فصلابة نواتها وتزايد أهمية الأساس الطبقي، من شأنه، تغليب الالتحام والتماسك بين أطرافها في مواجهة أعدائها على ساحة النضال السياسي[1].

بعض فئات المجتمع الإسباني الإسلامي:

الأرستقراطية:

أشارت النوازل إلى بعض البيوتات الكبرى في الأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين، والتي تنتمي إلى طبقة الخاصة، أو ما يسمى بالطبقة الأرستقراطية، وكان معظم أفراد تلك العائلات الكبيرة يتمتعون بالوظائف العالية في خدمة الدولة، وقد استطاعوا تكوين ثروات ضخمة، علاوة على الممتلكات من العقارات والأراضي والضياع.

وتعد أسرة بني زهر من أشهر الأسر الأندلسية التي أوردها ابن رشد في نوازله، وكانت تلك الأسرة تسكن بمدينة إشبيلية في عهد دولة بني عباد، أي منذ بداية عصر دويلات الطوائف (أوائل القرن 5 هـ/ 11 م)، وتمتعوا بنفوذ كبير في إشبيلية، علاوة على الجاه والنبوغ العلمي، خصوصًا في مجال الطب، فتذكر النوازل أن بني زهر الإشبيليين امتلكوا الضياع الواسعة والفنادق. ويضيف ابن بسام أن بني عباد حكام إشبيلية نظروا بعين الشك والخوف إلى تلك الأسرة النابهة الثرية، وخشوا على سلطانهم بإشبيلية،

(1) د. أحمد الطاهري - المرجع السابق ص 170.

فاضطروهم إلى الخروج عنها، ومصادرة أملاكهم بها، فحل محمد بن مروان ابن زهر - جد بني زهر - إلى شاطبة بشرق إسبانيا الإسلامية، وأقام بها بقية عمره بين جاهه ووفره. ويتضح من المصادر أن العلاقات بين بني عباد أصحاب إشبيلية وبني زهر قد تحسنت في عهد المعتمد بن عباد (461 - 484هـ/ 1069 - 1091م)، فقام المعتمد باستمالة الطبيب زهر بن عبد الملك بن زهر لبراعته في الطب، وحثه على العودة إلى بلده إشبيلية، وأعاد إليه بعض أملاك أسرته بها، غير أن ابن زهر لم يستقر بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد وسقوط دولة بني عباد على أيدي المرابطين في عام 484 هـ/ 1091 م. فاستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إليه بالعاصمة مراكش، واستقبله بالحفاوة والتكريم. وازدهر نفوذ ابن زهر في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي (500 - 537 هـ/ 1106 - 1143 م)، وصار من أهل الحل والعقد ومن ذوي الرأي والمشورة في بلدة إشبيلية، ويدل على ذلك قول ابن عذارى، بأن ابن زهر كان «يولي من قبله حاكمًا يحكم من حاشيته، وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص (أي أملاك بيت المال) وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية.

ظل ابن زهر يحتفظ بمكانته ونفوذه إلى أن تغير عليه الأمير علي بن يوسف في عام 511 هـ/ 1117 - 1118 م بسبب وشايات خصومه ومنافسيه، فلم يسمح له بالقدوم عليه بالحاضرة مراكش. وجدير بالملاحظة أن الفقهاء ورجال الدين والقضاة تمتعوا بمركز مرموق في ظل دولة المرابطين التي كانت تحرص على استمالتهم وتوثيق أواصر العلاقات معهم، حتى تضمن مساندتهم لها، مما يدعم سلطة المرابطين، وخصوصًا في بلاد إسبانيا الإسلامية وهذا كان له أثره في ازدياد ثراء الفقهاء الذين احتكروا معظم المناصب العليا في ذلك العصر، خصوصًا خطط القضاء والفتيا والحسبة. ومن أمثلة تلك الأسر

المنتمية إلى طبقة الفقهاء الثرية، والتي أشارت إليها النوازل: أسرة الفقيه سفيان بن العاصي الأسدي، وأصل سلفه من مربيطر غير أنه سكن قرطبة، وكان من الفقهاء وأهل العلم فيها، وعلى صلة بالفقيه القاضي ابن رشد - صاحب النوازل - أما أخوه محمد بن العاصي الأسدي فكان من أعيان بلدة مربيطر، ومن ذوي الأموال والأملاك فيها، فتذكر النوازل أنه التزم بعد أداء حجة الفريضة على تثمير عقاره، والنظر بما ينمي غلته، وانتشر عنه في بلدة الذكر سبعة حال ووفور مال (أي الأموال النقدية). أشارت النوازل إلى فئة المؤدبين، أو معلمي الكتاتيب وواجباتهم ودورهم في التعليم الديني، فتفيد إحدى النوازل بأن المؤدين كانوا يحصلون على أجرة مقابل تحفيظ الصبيان القرآن الكريم. ويتضح من المصادر أن تلك الطائفة كانت كثيرة العدد داخل مجتمع إسبانيا الإسلامية ويبدو أن بعضهم كان يهمل في أداء واجباته، ولذا كان لابد من الإشراف عليهم من قبل المحتسب أو صاحب السوق، فيذكر ابن عبدون أنه يجب «منع المؤدبين من حضور الولائم والجنائز والشهادات إلا في يوم عطلة، فإنهم مستأجرون»، كما ينبغي على المؤدب ألا يكثر من الصبيان، حتى يتمكن من الإشراف عليهم ورعايتهم، «فالتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فأكثر المؤدبين جهال بضاعة التعليم لأن ضبط القرآن شيء والتعليم شيء آخر لا يحكمه إلا عالم به، ويضيف ابن عبدون أن معنى التأديب هو أن يقوم المؤدب بتعليم الصبي تجويد تلاوة القرآن وحسن الألفاظ في القراءة والخط الحسن والهجاء، ويأمر من كان كبيراً بالصلاة. ويتصل بالمؤذبين، فئة أهل العلم من قراء الحديث والأدباء والكتاب وغيرهم، وقد تعرض لهم ابن رشد في نوازله، وأشار إلى أن قلة منهم جنحوا إلى التطرف، فاستخفوا باللغة العربية، وجهروا بالقول بأنهم لا يحتاجون إلى لسان العرب، وأخذوا يقرأون بعض سور القرآن باللسان الأعجمي (أي لاتينية أهل إسبانيا

الإسلامية المعروفة باللغة الرومانسية Romance). ومن الغريب أن يظهر مثل هذا التطرف في عصر بعث ديني، مثل عصر دولة المرابطين، التي اهتم حكامها بالنواحي والجهاد ورعاية الفقهاء والعلماء. ألمحت إحدى النوازل إلى طائفة من طوائف مجتمع إسبانيا الإسلامية وهم الجند من المرابطين البربر ومسيحي إسبانيا، كما أشارت إلى مستواهم المعيشي، ويتضح من النازلة أن الجند - سواء من المغاربة البربر أو مسيحي إسبانيا - كانوا يتمتعون بمركز اقتصادي واجتماعي مرموق، وبمستوى معيشي مرتفع. حيث كانوا يصرفون رواتب عينية تعرف بالبراءات، وهي عبارة عن كميات من الطعام أي الحبوب، يصرفها أمير المسلمين المرابطي للجند في الحصون والثغور، وهي تشبه المواساة التي كان يفرقها الموحدون كل سنة بعد وصول المحاصيل إلى مخازن الدولة. ويستدل من تلك النازلة على أن الجند المرابطين كانوا يبيعون تلك البراءات (الأطعمة) إلى أهل إسبانيا الإسلامية قبل قبضها، مما دفع ابن رشد إلى الإفتاء بأنه «لا يجوز للجند من المرابطين وغيرهم بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم إذا خرجت لهم به البراءات إلا بعد أن يقبضوه ويستوفوه» ونستنتج من ذلك أن عطاء الجند المرابطي كان أثبت وأكثر من عطاء الأندلسي، ولعل مثل هذا التمييز يفسر جانبًا من مظاهر القلق الاجتماعي الذي كان مسيحي إسبانيا يحسون به نحو المرابطين البربر القادمين من المغرب، ولعله يبرر إلى حد كبير ثورات أهل إسبانيا الإسلامية على المرابطين قرب نهاية عصرهم[1].

* * *

(1) كمال السيد أبو مصطفى، صور من المجتمع الأندلسي، المجلة التاريخية العربية، المجلد 27، عام 1990، ص 19.

أمدتنا نوازل وفتاوى ابن رشد القرطبي بمعلومات قيمة حول الحياة العائلية في دور المرأة في المجتمع، فتشير إحدى تلك النوازل إلى وجود الحاضنة أو المربية التي كانت تحصل على أجرة معينة يتفق عليها نظير قيامها بهذا العمل، كما كان يحق لها بعد انتهاء مهمتها زيارة محضونتها من حين لآخر، «خوفًا من المضرة من انقطاعها، لأنها أشفق على المحضونة وأنفع لها من كثير من قرابتها». وقد تعرضت النوازل للعديد من المشاكل الأسرية، من ذلك نازلة - يندر وجودها ضمن كتب النوازل والفتاوى إسبانيا الإسلامية والمغربية - تتعلق بمشكلة زواج المتعة، وهو الزواج إلى أجل معين، فتذكر النازلة أن رجلا من أهل العلم في مدينة بطليوس تزوج امرأة نكاح متعة إلى أجل مسمى، بلا ولي ولا صداق إلا نصف درهم، وأقر عند القاضي بوطئها، وبرر اضطراره إلى هذا الزواج -برغم تحريمه- بأنه لم يستطع أن يتزوج زواجًا مشروعًا خوفًا من أبيه الذي لم يكن يسمح له بهذا الزواج، كما أن الذي تزوجها زواج متعة لم يكن تصلح لمثله، وأنه خشي أن يزني بها، فلجأ إلى زواج المتعة. وعندما عرضت تلك القضية على ابن رشد أفتى بإقامة الحد على من تزوج زواج متعة، لأن الرجل تزوج بغير ولي للمرأة، وعقد النكاح بشهادة غير العدول. وهناك أيضًا مشكلة الطلاق، التي كان من أهم أسبابها في إسبانيا الإسلامية الضرر الذي يلحق بالزوجة من زوجها، وكان لهذا الضرر صور شتى منها: سوء معاملة الزوج لزوجه، وكثرة مشاجراته معها، أو غياب الزوج عن زوجه فترة طويلة بسبب الجهاد ضد النصارى أو فقدان الزوج أثناء الحروب والفتن الداخلية بحيث لا تدري الزوجة حياته من مماته.

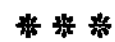
وألمحت إحدى النوازل إلى مشكلة أسرية أخرى. وهي مشكلة حضانة الأطفال، ومدى أحقية كل من الزوجين في تلك الحضانة. فتفيد النازلة بأن رجلا طلق امرأته وله ابنة تركها عند والدتها (مطلقته) التي تزوجت من آخر، ومكثت الابنة معها حوالي خمسة أعوام، وعندئذ أراد الأب أخذ ابنته من والدتها التي رفضت ذلك، ولجأ الأب إلى القضاء وأهل الفتوى، فأفتى ابن رشد - آن ذاك - بأنه لا يحق للأب أخذها إلا بعد أن يثبت عدم أمانة الأم على حضانة ابنتها. وتشير نازلة أخرى إلى أن الزوجة بعد طلاقها كانت تترك ابنتها - غالبًا - عند أمها، خاصة في حالة زواجها مرة أخرى، وهنا كان على الأب إجراء النفقة على ابنه أو ابنته. ويتضح من النوازل كثرة الهبات والصدقات والأحباس داخل نطاق الأسرة، فهناك ما يشير إلى أن رجلا وهب ابنته - في صحته وجواز أمره - ربا مكونة من دارين وثلاثة حوانيت، كذلك تصدقت الأم على ابنتها المذكورة بمائة مثقال (أي دينار من الذهب)، كما وهب الأب ابنته قبل وفاته حليًا وثيابًا. وتضيف نازلة أخرى أن رجلا بإشبيلية - في عصر المرابطين - يسمى أيوب وهب لابنته - وتدعى عائشة - بعض الأموال والأملاك ببلدة إشبيلية، واشترط الأب في عقد الهبة أنه في حالة وفاة ابنته الموهوب لها من غير ولد فإن الهبة المذكورة ترجع إلى حفيدته أمة الرحمن المدعوة بقنة ابنة أحمد، وإن لم تكن قنة على قيد الحياة عند موت عائشة، فإن الهبة تورث عن عائشة لمن يحق له ذلك من ورثتها كذلك هناك ما يفيد بقيام رجل من أهل أشبونة بشراء دار، وهبها لزوجته، كما تصدق رجل مسيحي بإسبانيا على ابنته بتابوت في بيته يحوي حليًا وثيابًا، وكتب بذلك عقدًا أشهد عليه بعض الشهود العدول في بلدته.

ومن الملاحظ أيضًا أن أهل إسبانيا الإسلامية وجهوا عنايتهم إلى حبس - أي وقف - بعض الأملاك والعقارات على أبنائهم وأفراد أسرتهم

وأقربائهم، ومن ذلك قيام الفقيد محمد بن زهر في 414 هـ/ 1023 – 1024م بحبس فندق وضياع ببلدة إشبيلية على ذريته وأعقابهم ما تناسلوا، كذلك قام رجل يدعى ابن أبي عبدة في 429 هـ/ 1037 ع 1038 م بحبس دار قرب مسجد طرفه بقرطبة على ابنه وابنته. ومن جهة أخرى ألمحت النوازل إلى بعض العادات والتقاليد داخل أسر إسبانيا الإسلامية، فمن ذلك الاحتفال بختان الطفل (ويسمى حفل الإعذار) الذي كان يتم غالبًا في العام السابع من عمره، حيث جرت العادة أن يقوم رب الأسرة بدعوة أقربائه وأصدقائه إلى حضور وليمة في داره للاحتفال بذلك الحدث السعيد. ومن أمثلة تلك الاحتفالات - والتي ورد ذكرها في إحدى النوازل - حفل إعذار أقيم بقرطبة في 499 هـ/ 1105 – 1106 م حضره فقيه قرطبي في دار أحد رجال الحاشية في بلاط ابن الحاج أمير قرطبة المرابطي آن ذاك. كذلك هناك إشارة إلى عادة إسبانيا الإسلامية كانت تتبعها الأسرة في الجنائز، وهي قيام المرأة بالخروج وراء جنازة زوجها عند وفاته، فتذكر إحدى النوازل أن الحرة حواء بنت تاشفين (ابنة أخي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين)، خرجت تتبع نعش زوجها الأمير سير بن أبي بكر - والي إشبيلية، وتضيف نازلة أخرى بأن المرأة كانت تقف أحيانًا على شفير قبر زوجها عند دفنه. ومن العادات الأندلسية أيضًا، والتي وجدت في كثير من المدن مثل قرطبة ومرسية، أن الإمام الذي يصلي بالناس صلاة عيد الأضحى لا يخرج أضحيته إلى المصلى (الشريعة) لذبحها عند انصرافه من خطبة العيد، بمعنى أنه لا يقوم بذبح أضحية العيد إلا بعد الوصول إلى داره.

وفيما يتعلق بمكانة المرأة في الحياة العامة ودورها في المجتمع خلال عصري الطوائف والمرابطين، فقد أمدتنا النوازل بمعلومات قيمة تفيد بأن

الأميـرات من أسرة بني تاشفين - حكام الدولة المرابطيـة - كن يتمتـعن بثراء واسع، وكثرت صدقـاتهن على الفقراء والمساكين اليتامى بإسبانـيا الإسلامية، ومن أمثلة ذلك: قيام الحرة حواء - عقب وفـاة زوجها سير - بالتصدق بثلث مالها على المساكين في مدينة إشبيلية كـما أعتقت ما لديها من رقيق لوجه الله تعالى. وكـان للحرة حـواء دور بارز في الحيـاة الأدبية سـواء في مراكش - حاضرة المرابطين - أو في إشبيلية التي سكنتهـا بعد ذلك، فتذكر المصادر أنها كانت تحـضر مجالس الشـعراء والأدباء والكتاب، وتشـارك في تلك المجالس الأدبية بالشـعر، حـيث كانت أديبة شـاعرة ذات نباهة، واختـصت الشـعراء والأدباء برعايتها وأعطياتهـا، وامتدحها الشاعر الوشاح في إسبـانيا الإسلامية الأعمـى التطيلي بعدة قـصائد. ونسـتنتج من النوازل أيضًا أن المـرأة - خلال عصـري الطوائف والمرابطين - كانت تتمـتع بالحرية الاقتـصادية، وخصـوصًا التصرف بالعقود والوصايا، وتمكنهـا من إدارة تجارتها، والسيطرة المستقلة على شئونها المالية، وكذلك هناك ما يشير إلى قيام المرأة بإقراض زوجها واشتراكها مع قوم في استثمار أراض زراعية[1].



---

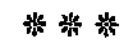
(1) كمال السيد أبو مصطفى، نفس المرجع السابق، ص 25.

العلاقات بين الجيران

أشارت نوازل ابن رشد إلى العلاقات بين الجيران داخل مدن إسبانيا الإسلامية وحقوق ارتفاق الجوار، أي إمكانية انتفاع الجار بما يوجب الحاجة إليه من المبني المجاور بدون إضرار بحق جاره، ويتضح من تلك النوازل أن كسب حق الارتفاق كان مقراً به في حالة وجود ضرورة ملجئة إلى تقريره، ولكن يشترط الاتفاق بين الجيران على هذا المبدأ والتراضي بينهم، مع الحرص على عدم إلحاق ضرر بأحد منهم، مما يدل على مدى التعاون بين الجيران داخل المجتمع، والاهتمام بتطبيق المبدأ الإسلامي بأنه «لا ضرر ولا ضرار»، وأن دفع الضرر مقدم على جلب المنافع، غير أن ذلك لم يمنع من نشوب بعض المنازعات أو الخلافات أحيانًا بين الجيران، والتي كانت تحسم سريعًا عن طريق القضاة وأهل الفتوى. وقد أوردت النوازل العديد من الأمثلة التي توضح العلاقة بين الجيران، والالتزام بعدم الإضرار بالجار، ومن ذلك نازلة عرضت على ابن رشد، ومفادها أن رجلا له غرفة وبابها يقابل سطح جاره، ولا يرى منه غير السطح الذي يتصل بالغرفة، وظل الحال هكذا فترة طويلة من الزمن إلى أن باع صاحب البيت داره، وأراد المشتري رفع بنيان البيت ليعلو كالغرفة، فيسد بذلك على جاره باب غرفته، غير أن الجار (صاحب الغرفة) منعه من ذلك، وعندما احتكما إلى الفقيه القاضي ابن رشد، قضى بأن لصاحب البيت أن يرفع بنيانه ما شاء، شرط ألا يسد باب غرفة جاره، وعليه أن يستتر على أهله إن شاء، أما إذا كان باب الغرفة ينتفع به فقط في التطلع على جاره، فمن حقه أن يسد باب الغرفة لقول رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». كذلك تشير نازلة - سئل عنها ابن رشد - إلى وجود بابين متقابلين لجارين، وبينهما زقاق نافذ، فعمد أحدهما إلى فتح باب وحانوتين

في داره، مما أدى إلى إيقاع الضرر بجاره، فلم يعد يمكن لأحد الدخول أو الخروج من باب دار جاره إلا ويراه من هو بالحانوتين من الناس، ولذلك حكم ابن رشد بأنه إذا ثبت ما ذكر، فإنه يؤمر صاحب الحانوتين بتحويل اتجاه بابيهما ليكونا بعيدين عن مواجهة باب دار جاره. وكان النزاع ينشب - أحيانًا - بين الجيران بسبب عين الماء التي تنبع فجأة إحدى الدور، مما يحدث ضررًا بسكانها، فتذكر إحدى القضايا أن عينًا نبعت في وسط دار قديمة، وأضر الماء بها، فضاقت السكنى فيها، وكانت بإزاء الدار المذكورة عرصة (أي أرض ملاصقة للدار)، لرجل ثان، فهوى هذا الماء عليها، ورأى صاحب الدار أن يخرج الماء إلى هذه العرصة، بعمل سرب تحت الأرض، فيكون ذلك صلاحًا بين الجارين، إذ ليس في ذلك إضرار بالعرصة. وقد أفتى ابن رشد في تلك القضية بأنه إذا كانت العين قد نبعت في داره دون أن يستنبطها، فمن حقه أن يرسل الماء إلى تلك العرصة إن كانت تقع في الجهة التي إليها انصباب الماء، وليس أن يحفر للماء تحتها سربًا إلا بإذن صاحب العرصة وموافقته تطبيقًا للمبدأ الإسلامي «لا ضرر ولا ضرار». ومن الملاحظ في مدن إسبانيا الإسلامية كثرة تضرر أصحاب الدور المجاورة للمساجد، حيث يسهل إطلاع ضعاف النفوس من المؤذنين على ما يدور داخل الدور، ويكشفون من المآذن المرتفعة عورات البيوت المجاورة، وقد عرضت على ابن رشد العديد من تلك النوازل، ومنها أن صومعة (مئذنة) أحدثت في مسجد بإحدى مدن الأندلس، فاشتكى منها بعض الجيران لأنها أدت إلى كشف عورات بيوتهم فأوضح ابن رشد أنه إذا كان المؤذن يطلع من المئذنة على الدور من بعض نواحيها دون بعض، فيمنع من الوصول منها إلى الجهة التي يطلع منها بإقامة حاجز أو ساتر يبنى بين تلك الجهة وغيرها من الجهات، ويضيف ابن رشد بأن هذا

بقرطبة فــي كثير من صوامــعها، ولعل ذلك دفع أهل الفتــوى إلى القول بأن «يؤمر المؤذن بأن يسد عينيه عند الصعود، ويوكل ذلك إلى أمانته، فإنه قل من يصعد إلى المنار إلا أهل الصلاح في غالب الأمر.



بعض ملامح ريف إسبانيا الإسلامية

أمدتنا نوازل ابن رشد بإشارات تتسم بالجدة والأصالة حول الريف لإسبانيا الإسلامية والتي لا نجد لها نظيراً في المصادر التاريخية والجغرافية. فيتضح لنا من إحدى النوازل أن القرية في إسبانيا الإسلامية كانت - غالبًا - المساحة، فهي تشتمل على عدد محدود من الدور، يتراوح ما بين اثنتي عشرة داراً، وبالتالي كان عدد السكان بها قليلا. وتضيف نازلة أخرى أن القرية كانت تحتوي على حارات كثيرة، وكل حارة منها منسوبة إلى قوم، معروفة لهم ولآبائهم. ولعل قلة عدد السكان والدور بالقرية كان عاملا مساعداً على زيادة الترابط والتعاون داخل القرية سواء بين أفراد الأسرة الواحدة أم بين سكان القرية بصفة عامة. ونستنتج مما ذكره ابن رشد وجود قلة من الأفراد - من ذوي الثراء - كانوا يمتلكون الضياع الواسعة في ريف إسبانيا الإسلامية، فهناك إشارة إلى أن رجلا من أهل بطليوس امتلك وحده قرية بكاملها حول المتجيل (من أعمال بطليوس بغرب إسبانيا الإسلامية)، وتذكر النازلة أن تلك القرية كانت تشتمل على أرحاء، ويشقها جدول صغير أو نهر يستفاد منه في أعمال الري. وتشير بعض المسائل الفقهية إلى وجود منازعات في بعض الأحيان بين سكان الريف حول الري والأراضي الفضاء التي ليست ملكًا لأحد، فبالنسبة للمنازعات حول مياه الري ألمحت نازلة إلى أن رجلا باع حقلا لآخر على أن يشاركه المشتري في الاستفادة من البئر الكائنة على مقربة من الحقل، فيروي منها أرضه كل ثلاثين يومًا، غير أنه في أحد الأعوام عجز المشتري عن زراعة الحقل المذكور، وأراد ألا يترك نصيبه في مياه الري، واحتكم المتنازعان إلى الفقيه ابن رشد، فقضى بأن له (أي للمشتري) الحق في

الاستفادة من مياه البئر، إن كان له في ذلك منفعة، أما إذا أراد أن يحفر بركة لنفسه يحبس فيها الماء، ولا يتركه لمن يشاركه فيه، فليس له ذلك. كذلك هناك إشارات إلى مشكلات كانت تثار من آن لآخر بين أصحاب البساتين المتجاورة حول مياه الآبار، خاصة عندما يكون لصاحب أحد البساتين بئر وفيرة المياه، في الوقت الذي كانت فيه مياه آبار أصحاب البساتين المجاورة شحيحة لا تفي بمتطلبات السقيا والري. وكانت المنازعات بين سكان ريف إسبانيا الإسلامية حول الأراضي الفضاء عديدة أيضًا، فمن ذلك أن أهل قرية تنازعوا فيما بينهم حول أملاك ببعض حاراتها، إذ أن القرية بها حارات عديدة، وكل حارة منسوبة إلى قوم منهم، فثار أهل إحدى تلك الحارات على جيرانهم في حارة أخرى، وادعوا أن عندهم أملاكًا لهم، ورفعوا شكواهم إلى القضاء، ووكل كل فريق منهما وكيلا مفوضًا، وانتهى النزاع بالصلح بين الفريقين أمام القاضي، حيث تنازل المدعي عليهم عن الأملاك التي كان يطالب بها المدعون. كذلك وجدت بإحدى القرى سبخة (أي أرض ملحية كثيرة المياه) بين أراضي قوم محدقة بها، ولم يدعها أحد، بمعنى أنها أرض مشاعة ليست ملكًا لأحد، ثم ادعى رجل ملكيته لها، وأتى بشهود غرباء ليسوا من أهل الموضع، يشهدون بامتلاكه لها، وأنكر جيرانه ذلك، مدعين أنها أرض مشاعة ومنفعة عامة لجميعهم، وذلك لقربها من أراضيهم، وعندما عرضت تلك المشكلة على ابن رشد حسمها بقوله بأنه «إذا كان في البلد من العدول جماعة من أهله لا يدعون في السبخة حقًا، ولا يعرفون للقائم فيها ملكًا، فشهادة الغرباء له بها غير جائزة، والواجب أن تبقى على حالها مسرحًا لجميعهم ومنفعة لعامتهم. وهناك ما يشير أيضًا إلى اعتداء بعض الأفراد بالقرى على الطرق أو المرافق العامة، ومن أمثلة ذلك أن رجلا بإحدى القرى الأندلسية أدخل طريقًا من طرق المسلمين في بستانه، وحازها، وغرسها،

وقطع فيها، وأغتلها مدة، ثم بعد ذلك ثبت أنها ليست من أملاكه، وأنها من المرافق العامة للمسلمين، ولذلك حكم القاضي بتأديبه على اعتدائه على الطريق العام، ولكن يأخذ غلة ما اغترسه من زرع، على أن تعود الأرض التي اغتصبها للمصلحة العامة للمسلمين. ومن ناحية أخرى يلاحظ في ريف إسبانيا الإسلامية كثرة وجود نظام المزارعة والمغارسة وتكوين الشركات الزراعية، مما يدل على مدى اهتمام مسيحي إسبانيا، بالزراعة، وبراعتهم في فنون الفلاحة وغرس الحدائق والبساتين. وكذلك يتضح من النوازل كثرة الأرحاء الطاحنة في قرى إسبانيا الإسلامية خلال العصر المرابطي فتذكر إحدى النوازل أن ضفة وادي بلون قرب جيان، وكانت تكثر بها الأرحاء التي تدور بقوة جريان المياه، كما شاع في تلك المنطقة نظام اكتراء الأرحاء من أصحابها الذين كانوا يشترطون في العقد - أحيانًا - على المستأجرين أن يسمحوا لهم بطحن كمية محددة من القمح كل شهر بدون أجر طوال مدة الكراء، وأن يترك المستأجرون - بعد انتهاء مدة الكراء - الأحجار الطاحنة وأية أدوات وآلات أخرى أصلحوا بها بيت الرحى. ونستنتج من النازلة أن مسيحي إسبانيا اهتموا اهتمامًا كبيرًا ببناء بيت الرحى، واستخدموا في ذلك الأحجار الغليظة، وأخشاب البلوط الجيدة والحديد والقراميد[1]. كتاب المعيار معين لا ينضب لدراسة الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس، وسنقتصر على الإشارة إلى بعض ملامح الحياة الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية في عصورها المختلفة. ويمكن للباحث أن يطلع على بعض دقائق المجتمع من خلال المسائل الاجتماعية الكثيرة التي يزخر بها الكتاب. فهناك معلومات قيمة تبين أساليب الزواج، ومقدار الصداق، ومشورة الزوجة، أي جهازها، وكيفية التصرف به، سواء من قبل الزوج أو الزوجة، أو ولي المرأة. كذلك يمكن الاطلاع على

---

(1) كمال السيد أبو مصطفى، نفس المرجع السابق، ص 34.

المقادير التي كانت تطلب عن طالقي الزوجة، أي المهر المؤجل، ومطالبة الآباء به في مختلف العصور نظرًا لحالة إسبانيا الإسلامية الخاصة ومجاورتها للمالك النصرانية والاحتكاك الدائم بين الطرفين، فقد تضمن الكتاب معلومات كثيرة عن الأسرى الذين يتزوجون نصرانيات في الأسر، ومسائل خاصة بالمفقودين وزوجاتهم. يضاف إلى ذلك وجود بعض حالات نكاح المتعة في الأندلس، لا سيما في عصر القاضي ابن الوليد بن رشد (ت 520 هـ/ 1126 م) الذي أجاب عن بعض المسائل الخاصة بهذا النكاح، وأفتى بإقامة الحد على مرتكبيه. ولعل من أطراف ما يزخر به كتاب المعيار، هو بعض الشروط الغريبة التي كانت ترافق بعض حالات عقد الزواج، منها اشتراط الأزواج لزوجاتهم بعدم الزواج عليهن، وإذا ما حصل ذلك، فالداخلة عليهن طالق، وقد فصل الونشريسي في حالة غريبة من هذا النوع عن رجل يدعى محمد بن يوسف الغاسل، الذي تزوج في طليطلة من امرأة اسمها عزيزة بنت يحيى، وشرط لها في صداقها أن بيدها أمر الداخلة عليها بنكاح تطلقها إن شاءت. وكان هذا الرجل يعمل في قلعة رباح Calatrava يقيم بها مدة، ثم يأتي إلى طليطلة. ويبدو أنه قرر مفارقة زوجته فبارها سرًا في ذي الحجة 452 هـ/ 1060 م، وكتب بذلك عقدًا لم يخبرها به، ثم غادر إلى قلعة رباح حيث تزوج امرأة أخرى اسمها شمس 404 هـ/ 1061 م. فبلغ ذلك عزيزة، فاشتكت عند قاضي طليطلة وأثبتت عنده صداقها بالشرط المذكور، ثم طلقت على زوجها التي نكح بقلعة رباح ثلاثًا. وخاطب قاضي طليطلة قاضي قلعة رباح، ففرق بين ابن الغاسل وشمس. وقد اعترض الزوج على هذا القرار بمباراته التي بارى بها عزيزة، وأثبت ذلك عند قاضي طليطلة، لكن ذلك استغرق وقتًا اعتبرته زوجته الثانية شمس مخلا بعقد زواجها، حيث ادعت أنه شرط لها متى غاب عنها طائعًا أو مكرهًا أكثر من ستة أشهر فأمرها بيدها

تطلق نفسها بأي الطلاق شاءت، لهذا طلقت نفسها ثلاثًا، وهكذا خسر زوجتيه بما اشترطه في عقد زواجه من شروط لم يستطع الوفاء بها.

نرى من جهة أخرى صوراً حية عن التعامل الاجتماعي في المجتمع الإسباني الإسلامي من خلال ما ينقله صاحب المعيار عن كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (ت 289 هـ/ 901 - 902 م)، لا سيما التعامل في الأسواق من حيث المكاييل والموازين، والأقفزة، والأرطال، والأواني، الغش والتدليس، كذلك الملاهي في المجتمع، والقدور المتخذة للخمر، وعن صاحب الحمام، وبكاء أهل الميت، والخروج إلى المقابر، والنساء اللواتي يمشين بالخف الصرار، وفي الاحتكار والتطفيف، واليهود والنصارى الذين كان بعضهم يتشبه بالمسلمين في الزي وفي المعيار أيضًا نصوص تشير إلى تنظيم العلاقة بين النصارى المعاهدين، وكيفية التعامل مع أحباسهم على الكنائس والأديرة، وكذلك أحباس اليهود كما يتضمن الإشارة إلى بعض الممارسات السلبية من قبل نصارى إسبانيا الإسلامية في قرطبة وغيرها، من ذلك مثلا، يتطاول بعضهم على الذات الإلهية، وعلى الرسول ﷺ، كما فعلت (ولجة) إحدى النصرانيات بقرطبة في عصر الإمارة، الأمر الذي أدى بشيوخ الشورى في المدينة إلى الإفتاء بقتلها، ومنهم محمد بن لبابة (ت 314 هـ/ 927 م) ولعل هذه الحالة تؤكد ما أوردته بعض المصادر النصرانية عن حركات المستعربين في قرطبة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد، والتي أطلقت عليها اسم (الاستشهاد)، حيث يقوم المتعصبون من النصارى بالطعن بالإسلام، وسب الرسول علنًا، الأمر الذي يؤدي إلى محاكمتهم والقضاء بإعدامهم. ومن الجدير بالذكر أن كتب التاريخ العربية لم تتطرق إلى هذه الحركة، ومعلوماتنا عنها مأخوذة من مصادر أوروبية فقط لهذا فإن إشارة الونشريسي هنا لها دلالتها في هذا المجال، لأنها تشابه إلى حد ما

بعض الحالات التي أشارت إليها المصادر النصرانية. ويمكن للباحث أن يطلع على بعض مناحي الخدمات الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية عن طريق دراسة الحالات العديدة من الأحباس التي تم وقفها لخدمة المجتمع، فهناك على سبيل المثال أحباس محبسة على المرضى في مدينة قرطبة، حيث يحق لكل مريض فيها الاستفادة منها. أما الغرباء فيحق لهم ذلك أيضًا بعد أربعة أيام من دخولها إذا ما قالوا أنهم يريدون الاستيطان في المدينة وكانت الأحباس غالبًا ما تحبس على طلبة العلم الضعفاء. وفك الأسرى، وعتق الرقاب، وفي العصور المتأخرة، لا سيما في أيام الدولة النصرانية، ترد إشارات كثيرة إلى أحباس وقفت على مصالح حصون معينة ولفائدة الفرسان المدافعين أمام خطر النصارى في منطقة بطة Baza، وبلش Velez وغيرها من الأماكن المجاورة التي كان يقوم عليها بمهيء حراسة ثغور المسلمين وهناك من الأحباس ما يشير إلى تكافل اجتماعي عظيم المغزى، من ذلك مثلا حبس لرجل نص على كمية معينة من منتوج أرض من الشعير، لتبقى سلفًا لمن لا يقدر على شراء زرع يزرعه في أملاكه، فإذا حصد الزرع رد منه مقدار ما أخذه على سبيل السلفة وهكذا فكر هذا الرجل في إنشاء مشروع تسليف البذور للمزارعين، قبل مئات السنين من قيام الدول الحديثة بهذا المشروع على نطاق عام.

يتضح من دراسة بعض نوازل المعيار وجود حالات إلحاد وزندقة في إسبانيا الإسلامية في مختلف العصور، منها حالة في عصر الحكم المستنصر (350 - 366 هـ/ 961 - 976 م) عن رجل يدعى أبا الخير، شهد عليه أربعة وأربعون شاهدًا بأنواع الكفر وصنوف من الإلحاد، فأفتى القاضي منذر بن سعيد، وصاحب الصلاة أحمد بن مطرف وغيرهما بقتله، فأمر الحكم بصلبه وينقل الونشريسي عن القاضي ابن سهل حالة أحد المتهمين بالإلحاد والاستخفاف بحق الرسول عليه الصلاة والسلام في طليطلة 457 هـ/ 1064 -

1065 م، وهو المدعو عبد الله بن أحمد بن حاتم الأزدي الطليطلي، وقد شهد عليه نحو ستين شاهداً بذلك. وتولى التحقيق معه ومحاسبته محمد بن لبيد المرابط على سبيل الحسبة، وثبت ذلك عند القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن الحشا. وتشير قضية هذا الرجل إلى مدى تعاون القضاة في إسبانيا الإسلامية في مختلف دويلات الطوائف التي كانت سائدة في ذلك الحين. فعلى الرغم من الفرقة السياسية، كانت سلطة القضاة سائدة، والتعاون بينهم مستمراً. فقد فرَّ الرجل المقصود من طليطلة عندما أحس بانكشاف أمره، وتوجه إلى بطليوس Badajoz، حيث انضم إلى أميرها المظفر أبي بكر الذي عينه في ديوانه لقراءة الكتب عليه دون أن يعلم بحقيقته. ولكن قاضي طليطلة لم يتركه، بل أرسل محمد بن لبيد مع نسخة من شهادة الفقهاء بوجوب قتله إلى دانية Dania، ومرسية Murcia، والمرية Almeria وغيرها لأخذ أجوبة الفقهاء، بكل حاضرة لإدانته. كما ورد قرطبة أيضًا وأخذ جواب ابن عتاب وغيره، ومن هناك خوطب قاضي بطليوس بثبوت ذلك التسجيل على المتهم. وسافر ابن لبيد مع اثنين من الثقاة من قرطبة إلى بطليوس، حيث ثبتوا التسجيل عند قاضيها، فتبرأ أميرها المظفر من ابن حاتم، وخاف الأخير، فانهزم إلى سنترين Santarine في المغرب، ومنها إلى سرقسطة Zaragoza في الشمال الشرقي، وأخيراً إلى قرطبة التي وصلها 464 هـ/ 1071 م. وقد سمع به المحتسبة، فقصدوا محله وألقوا القبض عليه، وساقوه إلى القاضي محمد بن أحمد منظور، فأمر بسجنه. وبعد التحقق من ثبوت تقييد قاضي طليطلة عليه، نفذ فيه حكم الإعلام بحضور المعتمد بن عباد وهذا يدل على وحدة القضاء كما ذكرنا آنفًا، وعلى دور المحتسبة في البحث عن هؤلاء الملحدين[1].

---

(1) د. جمعه شيحة، الشعر الأندلسي، المجلة العربية للثقافة، العدد 27 سبتمبر 1994 ص 103.

عقد طلاق ومباراة بأشبونة في 512 هـ/ 1119 م

(أي في العصر المرابطي)

«بارى عبيد الله بن محمد الأزدي راقي بنت الفقيه أبي الوليد يونس بعد بنائه بها، إذ تفاقمت أمورهما واختلفت أهواؤهما على أن أسقطت جميع ما كان أمهره لها من كالىء بعد معرفتهما بعدده، وعلى أن صرفت جميع ما كان أمهره لها في كتاب صداقها معه من دور بالوط الغربي الذي من قصبة أشبونة لوالد المباري المذكور، وجنات بنواحي الجهة المذكورة وأرضين بقرى مدينة الأشبونة طائعة بذلك كله، وأمضى ذلك كله من فعلها والدها الفقيه أبو الوليد المذكور وعلى هذا الإسقاط المذكور الموصوف ملكها عبيد الله المذكور أمر نفسها، ولم يبق بين راقي المذكورة وعبيد الله المذكور شيء من الأشياء من جميع الدعاوى والتبعات، وانفردت راقي المذكورة بجميع الثياب المقبوضة منه المكتوبة في كتاب صداقها معه، ولا حق لعبيد الله في جميع الثياب المقبوضة منه كذلك، وكذلك لا حق لعبيد الله المذكور فيما قبل راقي المذكورة ولا قبل أبيها المذكور في شيء من الأشياء من صداق أو تجارة ولا شيء من الأشياء. شهد على إشهاد عبيد الله بن محمد والفقيه يونس على أنفسهما بجميع ما في الكتاب عنهما من سمعه منهما وعرفهما وهما بحال الصحة والجواز، لأربع بقين من شهر شعبان من سنة اثنى عشرة وخمسمائة».

«عقد استئجار بيت رحى بإحدى قرى جيان في 509 هـ/ 1116 م».

«بسم الله الرحمن الرحيم: اكترى محمد بن عبد الرحمن بن طارق الأنصاري، وعبد الصمد بن علي الأموي، ومحمد وعلي ابنا عبد الله بن حرب اللخمي، بينهم على السواء والاعتدال، من أحمد بن جزي التجيبي، ومن عبد الله بن ؟ الناظرين للقريش بقرطبة جميع بيت الرحى الدائرة

المعروفة ببيت السانية بقرب الحرب على ضفة وادي بلون من جيان لمدة سبعة أعوام متصلة، أولها منتصف ذي الحجة الأدنى إلى تاريخ هذا الكتاب بمائة مثقال واحدة، وأربعين مثقالا من الذهب المرابطة لوازنة، يدفع منها محمد عبد الرحمن، وعبد الصمد، ومحمد وعلي ابنا عبد الله لهما كورين، لأحمد وعبد الله المذكورين، أو إلى من يجب له ذلك بسبب القريش المذكور في أرباب القرية وبيت الرحى المذكورين عند انقضاء كل شهر من أول الأمد المذكور مثقالا واحدًا وثلثي مثقال أداءً متواليًا إلى تمام العدد وانصرام الأمد، وعلى ؟ محمد ابن عبد الرحمن، وعبد الرحمن وعبد الصمد الأخوان ومحمد وعلي المذكورين في البيت المذكور أربعة أحجار طاحنة . . وتكون دواليبهما من البلوط بأعمدة حديد ومنصب البيت أربعة من الألواح ويرفعون سد الرحى المذكو بالحجارة والسلك الأوتاد، ويرخج ماؤه في ساقية الرحى، وعلى أن يقيموا في جوفي بيت الرحى اصطبلا للدواب، سعته مثل بيت الرحى ومتصل بالبيت . . وغطاؤه وغطاء بيت الرحى بالقراميد، ويشوكون البرج المتصل ببيت الرحى المذكورة من ناحية الغرب بالجص وتواصفوا ذلك كله صفة أقاموها مقام العيان، فإذا انقضت المدة المذكورة ترك محمد عبد الرحمن وعبد الصمد، والأخوان محمد وعلي المذكورون الأربعة الأحجار المذكورة طاحنة بآلاتها كلها مستقيمة في جريتها في البيت المذكور للقريش المذكورين أرباب القرية المذكورة، وطاع محمد وعبد الصمد والأخوان محمد وعلي المذكورون بعد تمام الكراء المذكور طوعًا صحيحًا دون شرط، أن يطحن عبد الله وأحمد بن جزي المذكوران في الرحى المذكورة في كل شهر من أشهر الأعوام المذكورة قفيزين من القمح بكيل جيان دون أجر، وعرفوا قدر ذلك. شهد عليهم بذلك من أشهدوه به في صحتهم، وجواز أمورهم في شعبان من سنة تسع وخمسمائة؛ ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى التي برزت في

العصور المتأخرة من الوجود العربي في إسبانيا الإسلامية ظهور جماعات من الفقراء ينتحلون ما يسمى بالطريقة الفقرية أو طريقة الفقراء، التي اشتهر أهلها بالإباحة وتحليل ما حرم الله، ومنهم من اتهم بالزندقة، حيث كانوا يظهرون الإسلام ويستترون بالكفر، وكان هؤلاء يجتمعون في بعض الزوايا ليلة الجمعة وليلة الإثنين، فيمدحون ويرقصون، وكانوا غالبًا ما يتواجدون في الحصون البعيدة عن الحضرة (غرناطة) حيث يقصدون القرى التي غلب على أهلها الجهل، فيزينون لهم طريقتهم التي تشتمل على اللهو واللعب، وأكل أموال الناس بالباطل، وقد شاعت هذه الطرق التي عدها الفقهاء من البدع، فحرموها ومنعوها، وأفتوا بعدم صحة وقف الحبوس على مثل هذا النوع من الفقراء. لقد احتلت حالة المسلمين المدجنين حيزًا لا بأس به من اهتمام نوازل المعيار وكان لفظ (المدجن) يطلق على من بقي من المسلمين في بلادهم بعد أن استولى عليها النصارى، وهو مشتق من (دجن)، أي أقام خاضعًا، غير أنه تحرف على ألسنة الإسبان في بعض الأحيان إلى (دجل) و(دجر) وصار الموصوف به يسمى (مدجل) أو (مدجر). وعلى هذه الصورة انتقل إلى الإسبانية الدارجة فقالوا (موديخار Mudejar)، واختفى أصله باختفاء اللغة العربية من ألسن المسلمين الذين بقوا لفترة طويلة في أرض النصارى. وقد استخدم هذا اللفظ أيضًا بمعنى معاهد، أي أن المدجنين كانوا بعيدين معاهدين ومنذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي فما بعد عرف المدجنون باسم الموريسكيين (Moriscos)، وهو الاصطلاح الذي استخدم لأول مرة لتسمية مسلمي غرناطة بعد سقوطها عام 897 هـ/ 1492 م.

ابتدأ تدجن المسلمين في إسبانيا الإسلامية قبل نحو أربعمائة سنة من عصر الونشريسي، أي في حدود القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وفي الكتاب نصوص كثيرة عن أحوال هؤلاء المدجنين، لا سيما موقف السلطات

النصرانية منهم، ومدى تأثرهم بالمعاهدات التي كانت تعقد بين الممالك الإسبانية والمسلمين ولم تكن أوضاع المدجنين سيئة حتى بعد سقوط طليطلة 478 هـ/ 1085 م، ولكن وضعهم تغير بعد معركة الزلاقة 479 هـ/ 1086 م، وما تلاها من صراع مرير بين المسلمين في الأندلس والممالك النصرانية. وفقد المدجنون حقوقهم وضماناتهم، واجتهد رجال الدين النصارى في التأليب عليهم، فتعرضوا إلى مختلف أنواع الأذى، فتنصر بعضهم مكرهًا، وهاجر البعض الآخر، بعد أن تركوا في إسبانيا الإسلامية الدور والأراضي والكروم، وغير ذلك من أنواع الأصول، وبذلوا زيادة على ذلك الأموال الوفيرة. وهكذا هاجر الأغنياء بينما بقي الفقراء لعدم تمكنهم من دفع تكاليف الهجرة، فظلوا يعانون العذاب والحرمان، وكانوا كالقابضين على الجمر حفاظًا على دينهم. وهؤلاء هم الذين أفتى الونشريسي بعدم صحة بقائهم في إسبانيا الإسلامية وقد ضمن هذه الفتوى في رسالة خاصة في المعيار بعنوان: «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر». وذلك ردًا على سؤال عن الحكم في هؤلاء الباقين في الأندلس، وقد وصفهم بالكفر والعصيان، دون أن يقدر ظروفهم، وأن أغلبيتهم كانت عاجزة عن الرحلة والهجرة التي لم تكن هينة على رغبة المسلم فحسب، بل كانت أمرًا عسيرًا حافلا بالصعوبات والمخاطر والمكاره، إذ كان لابد للمهاجر أن يؤدي قدرًا من المال حتى تأذن له السلطات بالانتقال. وكانت الطرقات غير آمنة، فإذا ما سار المهاجر عن وطنه لم يأمن أن يسطو عليه من يلقاه ويقتله أو يأسره ويبيعه وأولاده بيع الرقيق. يضاف إلى ذلك، خطر البحر الذي لا تأمن فيه السفن الصغيرة التي يستطيع أولئك المهاجرون أن يركبوا فيها. وكان رجال الدولة في الموانئ لا يطلقونه حتى يدفع لهم مبلغًا من المال. فإذا كتبت للمهاجر السلامة والوصول إلى البر المغربي، وجد

صعوبات كثيرة في الرزق والتأقلم مع البيئة الجديدة، ويدل على هذا شكوى بعض المهاجرين التي جاءت في السؤال الموجه إلى الونشريسي. ويضاف إلى كل هذه المعوقات صعوبة مفارقة الوطن، وترك الديار التي عاش فيها هؤلاء وأجدادهم مئات السنين. لقد غابت كل هذه النواحي الإنسانية عن صاحب الفتوى، وكان لفتوى الونشريسي وأمثالها أسوأ الأثر على مصير الجماعات الإسلامية الباقية في الأندلس، فقد حكم عليها بالكفر وهي مقيمة في الجحيم الذي كانت فيه. لقد كان هؤلاء مضطهدين من أعدائهم ومظلومين من أهل دينهم الذين أفتوا بكفرهم وعدم جواز البيع والشراء معهم، ولا السلام عليهم، واعتبارهم كأهل الأهواء الذين لا تجوز شهادتهم[1].

مظاهر الحياة الاجتماعية:

في إطار سيادة الرؤيا التي تختزل تناقضات إسبانيا الإسلامية في الصراعات الحضارية والدينية، من الطبيعي أن يميل الجدال عن رصد مظاهر الحياة الاجتماعية في علاقتها بالبناء الاجتماعي الداخلي وبتطور الأنماط الاقتصادية، إلى البحث في المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي والماضي الأيبيري، عن العناصر التي تؤكد هذا التحليل أو ذاك. ولعل في ندرة وتشتيت المادة التاريخية، ما ساعد في ذلك. فـ «المتتبع لمظاهر الحياة الاجتماعية يجد صعوبة كبيرة في جمع معلومات دقيقة عن هذا الجانب الهام» من ثم الاكتفاء برأي عام مفاده أن الحضارة الأندلسية حملت خليطًا من المؤثرات: مشرقية، مغربية، بربرية، ومحلية أوروبية. في ظل هذا التعميم، من السهولة الإقرار بتعدد اللغات المتداولة بإسبانيا الإسلامية غير أن هذا لا يفيد كثيراً في الكشف عن حقيقة الوضع الاجتماعي. وهو ما حاول أحد

(1) جمعة شيحة - نفس المرجع ص 105.

الدارسين تجاوزه في إقراره بأن الرومانسية هي لغة التخاطب الوحيدة لدى العامة. وقد اتخذت المدرسة التقليدية من هذه الفكرة حجة لتأكيد استمرارية الحضارة الأيبيرية - المسيحية بما يتناقض مع ما توصلنا إليه من نتائج بصدد التركيب الطائفي للعامة.

حقيقة استمرت بعض الجماعات متميزة لغويًا. فسكان دار بلى «لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط وبالمثل، نعتت الطائفة الصقلبية في الجيش بـ «فرسان الخرس» لعدم تمكنهم من اللغة المتداولة. كما أن «من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة» وفي طليطلة، كان أحد الفقهاء «يقول إذا سئل عن من لا يحسن العربية إذا أعربتم أعمالكم ما ضركم كلامكم» إن في هذا ما يؤكد استمرار الاختلافات اللغوية على الصعيد الإقليمي. لكنها انحصرت على ما يبدو في بعض البوادي والمدن الهامشية. ولا غرو، فنفس النصوص، تنم عن اتساع ظاهرة الازدواجية اللغوية، وإقبال الجميع على اتخاذ العربية قاعدة للتخاطب. وهو ما أفصح عنه آلبرو القرطبي بالقول: «يا للحسرة، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب» وأكده ابن خلدون إذ قال: «وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة». هكذا فالتداخل الاثني في إطار الحضارة العربية الإسلامية، أفرز على المستوى الشعبي لهجة عامية للتخاطب، اتخذت من العربية عمودها الفقري، وطعمت بكلمات ونبرات متنوعة الأصول. يكشف عن ذلك ابن حزم بالقول: «نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا، وهو من البعد عن أصل الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فنجدهم يقولون في العنب، العينب وفي السوط أسطوط وفي ثلاثة

دنانير ثلثدا. وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة. وإذا تعرب الجليقي أبدل العين والحاء هاء». إن في هذا ما ينم عن شيوع استعمالها كلغة للتخاطب من طرف الجميع. وذلك على «حساب الرومانس» الذي تراجع بشكل ملحوظ على ما يبدو. أكد ذلك المقري في قوله: «إن كلام أهل إسبانيا الإسلامية الشائع في الخواص والعوام كثير التحريف عما تقتضيه أوضاع العربية». لذلك تسابق النحاة على التأليف في «لحن العامة» خوفًا من تأثيرها على قواعد اللغة الفصحى. ولا غرو، فقد بلغت من الشيوع أن اتخذ أحدهم من ألفاظها مدخلا لكتابه في المنطق، وهي «طريقة لم يسلكها قبله أحد». من المشاع أن الأمية خاصية ملازمة للعامة في المجتمعات الإسلامية الوسيطة. فهم «جاهلون لم يستضيؤا بنور العلم» ومشهورون بعدائهم للفكر العلمي والفلسفي والاتجاهات العقلانية، ومتشبثون بالخرافات والشعوذة وهو الوضع الأنسب للحفاظ عليهم تحت السيطرة الفكرية للفقهاء وأهل القلم. لذلك فغالبًا ما حذر هؤلاء من تعليمهم، معتبرين «تفقه الرعاع فساد الدنيا، وتفقه السفلة فساد الدين» مع ذلك، فمن القرائن ما يدعو إلى التحفظ من تعميم هذا الاعتقاد على كل الفترات. فالمعلومات بصدد إسبانيا الإسلامية الخلافة، ضافية عن الاهتمام الكبير الذي أولاه الخلفاء للعلم والثقافة، وتشجيعهم لتعميمها في مختلف الأوساط. هكذا، اتخذوا «المؤدبين يُعلِّمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة» وأجروا عليهم «المرتبات» كما «حبس الحكم حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء حتى نيفت عدد الكتاتيب التي استحدثها، عن «سبعة وعشرين» بصرف النظر عما كان موجوداً قبله، إضافة لعدد هائل من الدكاكين والدور والمكاتب المخصصة للتعليم بالأجرة.

اقتصرت برامج هذه المؤسسات، على تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن لذلك لم يطالب المعلمون بكفاءات عالية. فقد ذكر ابن حزم «مقرئين ثلاثة للعامة» لا يحسنون «النحو» مما عرضهم أحيانًا لاستخفاف وسخرية أهل القلم، إلى حد اتهامهم بالجهل ووصفهم بالحمير في حين اعتز المؤدبون بشرف مهمتهم وقداسة برامجهم التعليمية. على أي، فالحديث عن وجود معلمين للعامة واتخاذ مفهوم العامة، صفة لمجموع التعليم الابتدائي دليل عن مدى شيوع التعلم في أوساط الطبقات الدنيا. وهو ما عبر عنه أحد الدارسين بالقول: «وكان أبناء الشعب جميعًا يعرفون القراءة والكتابة». مصداق ذلك، شهادة المقري بأنهم كانوا «يقرأون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريًا»، وأكده المقدسي بقوله: أنهم «يحبون العلم وأهله». تنم هذه النصوص عن تجاوز العامة في تطلعاتهم الثقافية لمجرد القراءة والكتابة. وهو ما أكده ابن الفرضي فيما أورده عن محدث قرطبي «كان عوام الناس والمحتسبة يجتمعون إليه ويسمعون منه». ينطبق نفس الشيء على بقية المعارف، فشعر الرمادي، على سبيل المثال، كان «مشهوراً عند العامة». لم تقتصر مشاركة العامة في الحياة الثقافية على استهلاك ما هو سائد، بل تجاوزته إلى الإنتاج. فقد أورد ابن بشكول بيتًا شعريًا من نظم امرأة عامية، لم يجد أحد الفقهاء غضاضة في الاعتراف لها بالفضل، إذ قال: «فحفظت عنها الشعر». وبالمثل، روى الخشني تفاصيل قصة «مشورة مستفيضة عند العامة». أي اتخذهم مصدراً لكتاباته. وهو ما ينطبق على ابن سعيد، الذي أورد حكايات شعبية، قائلا: «لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها في حين لم يتردد غيره عن تأنيب أحد طلابه بالقول: «رجعت تأخذ اللغة عن أهل الزمر». وفي نص للمقري ما يكشف عن مدى غزارة وأهمية الإنتاج الثقافي العامي، إذ يقول: «ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات ما تملأ

الدواوين كثرته وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركب. إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمر ضياعًا». ولعل فيما وصلنا من أمثالهم ما يدل عن أهمية هذه الثقافة الشعبية المهمشة لدى القدماء والمحدثين على السواء. ويبدو أن ما عرف بالزجل في أدب إسبانيا الإسلامية كان في بداية نشأته، ابتكارًا عاميًا، يقول ابن قزمان: «وجد في الأندلس ضربان من الزجل جنبًا إلى جنب: أولهما شعبي خالص جاف غليظ يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة وعجمية أهل إسبانيا الإسلامية وكان يوافق أذواق العوام، وثانيهما مصقول مهذب مصطنع متكلف ولم يبق من النوع الأول شيء لأن مصنفي الكتب ازدروه وضربوا عنه صفحًا». صفوة القول: أن الاهتمام بتثقيف أوسع الجماهير، وإقبال هؤلاء على ثقافة عصرهم في ظل النظم المتبرجزة، إضافة لاشتراكهم في الإنتاج الثقافي، من شأنه إسقاط احتكار العلم من طرف النخبة والإسهام في الرق الاجتماعي والاستنارة الفكرية والتقدم الحضاري. من ثم ضرورة التحفظ من الاعتقاد بسطوة الفقهاء على عقول العامة خلال عصر الخلافة. من جهة أخرى، فتوفر العامة على ثقافة متميزة من شأنه أن يساهم في طمس الاختلافات العرقية والأثنية، ويعمل على تجدير الشعور بالانتماء. وفي الحياة الاجتماعية من المظاهر، ما ينطبق بهذه الحقيقة. وقد وفرت عنا بعض الدراسات مؤونة حصر العادات والتقاليد المحلية التي تلاشت تحت تأثير الحضارة العربية، وتلك التي استمرت وبالمثل فلا حاجة إلى تعداد المؤثرات الاجتماعية والتقاليد المسماة «مشرقية» التي أصبحت سارية المفعول لدى جميع العناصر. مع ذلك، فمن الملاحظ، أن أغلب الدراسات تعاملت مع العادات والتقاليد، وكأنها مواد جاهزة ذات تركيبة معينة. فتلك إسلامية شرقية، وهذه غربية مسيحية. بذلك انحصر الجدال في تحديد كمية الجرعة

التي تناولها المجتمع الأندلسي من كلا المادتين. في حين، يبدو أن انهيار العلاقات الإقطاعية، والقبلية - العشائرية، وتراجع الشعور الإقليمي - العرقي، ونهج سياسة التسامح الديني والمذهبي، قد وفر الأساس الموضوعي لتطور العادات والتقاليد الاجتماعية على قاعدة التفاعل الحضاري. وذلك على الرغم من اختصاصات خطة الحسبة في مراقبة الأخلاق العامة، وفق منظور إسلامي - مالكي.

أورد الطرطوشي قولة دالة عن صحة هذا المنحنى، نصها: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض إسبانيا الإسلامية على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان وكذلك على إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجبنات والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة وخروج الرجال جميعًا أو أشتاتًا مع النساء مختلطين للتفرج، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه للتفرج لا للصلاة ودخول الحمام للنساء مع الكتائبيات بغير مزر والمسلمين مع الكفار في الحمام. إن هذا النص غني عن البيان. فإلى جانب تأكيده على انهيار الحواجز الاجتماعية التي تفصل لأسباب دينية أو عرقية أو طائفية بين العناصر السكانية المختلفة، يتضح بأن الأعياد الدينية، إسلامية ومسيحية، قد فقدت كثيرًا من مضمونها الأصلي لتصبح مناسبات للفرح العام وللتآخي، ورمزوا للحياة الأندلسية الجديدة، في إطار الحضارة العربية الإسلامية. ومن الأعياد ما أصبح لها طابع اقتصادي مثل النيروز والعنصرة اللذين يوافقان على التوالي الانقلابين الشتوي والصيفي. وهو ما أكده العوام في أمثالهم وزكاه عريب بن سعد في ربطه الأعياد بالمواسم الفلاحية[1]. في نفس الوقت، ازداد التمايز على أساس

(1) د. أحمد الطاهري - المرجع السابق ص 177.

طبقي، اتساعًا. فلتأخذ على سبيل المثال، عادة التردد على الحمامات، التي نيف عددها بقرطبة عن «سبعمائة حمام» لنلاحظ بأنه في الوقت الذي سمح لأهل الذمة بالاختلاط مع المسلمين، منع العامة، الذين خصصت لهم حماماتهم عن دخول حمامات الخاصة، لذلك، فلما انتهى الناصر من بناء الزهراء، جعل «فيها حمامان: واحد للقصر، وثان للعامة وبالمثل كان الركوب مقياسًا للانتماء الطبقي يقول ابن حوقل «ولا يعرف فيهم المهنة والمشي إلا أهل الصنائع والارذال». واضح إذًا بأن الشعور بالانتماء الطبقي، كان أقوى من أي شعور آخر، ولو في أبسط مظاهر الحياة الاجتماعية. من المتعارف عليه، إن الفقهاء كانوا متشددين على أهل الذمة، كي يتميزوا باللباس عن المسلمين وليس هناك - على ما يبدو - دليل عن تنفيذ الخلافة الأموية لكل توصياتهم بهذا الصدد. حقيقة، أشار المقري إلى أن الصوف الملونة بالأصفر «مخصوصة باليهود ولا سبيل إلى يهودي أن يعتم». مع ذلك ركز في حديثه على إبراز اختلاف الأزياء على الصعيد الإقليمي والمهني وبالمثل، لم يجد الضبي من اختلاف، إلا فيما بين أزياء أهل البوادي والمدن، وفي حديث للمقري عن ملابس «يستعملها أهل إسبانيا الإسلامية من المسلمين والنصارى»، ما يدل على تخليهم عن التوصيات السالفة. على العكس، يبدو أن الأحداث كانوا ملزمين باتخاذ زي خاص. يقول ابن عبدون «يجب أن لا يمشي الطيَّاب ولا الحكاك ولا الحجام في الحمام إلا بالتبان وسراويلات». كما تحدث غيره عن وجود «زي الحداثة» بإسبانيا الإسلامية. أثارت الحريات التي تمتعت بها المرأة الأندلسية، اهتمام كثير من الدارسين الأجانب باعتبارها لديهم ظاهرة غريبة عن المجتمعات الإسلامية، والحلقة الضعيفة التي من خلالها يمكن الدفاع عن مقولة صمود التقاليد المسيحية وتلاشي نظيراتها العربية الإسلامية. إن اعتماد هؤلاء على النصوص الدينية النظرية وإسقاطهم للتطورات التي عرفتها أوروبا

الحديثة، على ماضي إسبانيا الإسلامية حجب عنهم الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة. أما أن تكون المرأة الأندلسية، قد حصلت على حريات هامة بالنسبة لعصرها، فهذا ما تكشف عنه مظاهر شتى. فإلى جانب السماح لها بمراودة الأماكن العمومية مثل سوق الغزل والكتان وشطوط الأنهار وأبواب حمامات النساء و«مجتمع النساء» عند باب العطارين، كان لهن الحق في التجول بمختلف مرافق العاصمة، على أن يكون موضعًا ينظر إليه وترمقه الأبصار بصرف النظر عن مشاركتهم في مختلف التظاهرات والمهرجانات والحفلات العامة. على أن أهم مظهر لتحررهن من التدجين، مشاركتهن الفعالة في النشاط الاقتصادي. فازدهار التجارة بقرطبة وشيوع التعامل النقدي والتطور المديني، مع ما يتبع ذلك من تزايد في حاجيات الأسرة، دفع بالكثير من النساء إلى عرض خدماتهن مقابل أجر. وهو ما كشف عنه ابن حزم بالقول: «فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسيج وما أشبه ذلك». والجدير بالذكر أن العمل في قطاع الغزل والنسيج، لا يدخل في نطاق الأشغال المنزلية، التي اعتبرت من طرف الدارسين أشد الأشغال استرقاقًا، علمًا بالتطورات التي مست العلاقات الإنتاجية خلال عصر الخلافة. وليس أدل على ذلك، من تأكيد المصادر عن علاقة الأجرة التي تربطهن بالمشتغلين. وفي البوادي ساهمت النساء في تقديم خدماتهن المأجورة للتجار والمسافرين إضافة للعمل الفلاحي المنتج. يقول أبو الخير «وما تقلعه النساء باليد دون الذراع يكسرن في الخيوط مقدار أجورهن». كما ساهم الازدهار الثقافي في تحرير النساء من الأشغال المنزلية. ولقد أورد ابن بشكوال تراجم لعديد من اللواتي اشتهرن في مختلف فروع العلم والمعرفة، بما في ذلك العلوم الدينية، بل ومنهن من تصوفت وزهدت في الدنيا. ومنهن من

بلغت من الشهرة أن تقاطر عليها طلاب العلم من مختلف الجهات، وقد ذكر ابن بشكوال شاعرة كانت «تمالط الشعراء وتساجل الأدباء وتفرق البرعاء». مع ذلك استمـرت للحجاب أهميتـه الاجتماعـية، كما يستـفاد مما أورده الخشني بالقول: «أخـبرتني امرأة صالحـة من أهل الاستتـار». وهو ما أكده كثـير من أمثـال العوام، ويبدو أن الطبـقة الأرستـقراطية وحدهـا التي كانت أجنح إلى التمسك به. فقد تحدث ابن حـزم عن امرأة «عالية المنصب غليظة الحجاب»، وعن «ربات القصور المحـجوبات من أهل البيوتات». نخـلص إلى أن جميع مظاهر الحيـاة الاجتمـاعية تكشف عن تلك التطورات الـعميقـة التي عرفتـها أندلس الخلافة[1].

* * *

(1) د. أحمد الطاهري – نفس المرجع السابق ص 180.

المجتمع الإسلامي في إشبيلية

يمكن اعتبار الفترة الإسلامية لمدينة إشبيلية أهم فترة في تاريخ هذه المدينة الممتد عبر العصور، بدءاً بالأزمنة شبه الأسطورية (Tartessian Times). ورغم ذلك فإن الخمسمائة عام وما يزيد (92 - 712 هـ/ 1248 م) التي كانت فيها المدينة والمنطقة المحيطة بها جزءاً صميمًا من الحضارة العربية - الإسلامية يجب أن ينظر إليها - في اعتقادي - على أنها محض مرحلة ساهمت، كما ساهم غيرها من المراحل، في تكوين إشبيلية كما هي اليوم، أو كما كانت في المراحل التالية للمرحلة موضوع الدراسة الحالية. أما إشبيلية كما كانت في أوج العصورالوسطى فإنها إحدى صور هذه المدينة التي يجب أن ينظر إليها جنبًا إلى جنب مع مدينة هسبالس (HIspalis) الرومية أو العاصمة التي أضحت صلة الوصل مع العالم الجديد منذ عام 1492 م. وحقيقة الأمر أن إشبيلية الإسلامية برزت من نواة مدينية مكتملة، وذات تراث حضاري محدد المعالم. وبسبب من موقعها وسط السهول الخصبة على ضفاف نهر الوادي الكبير، في الموقع الذي يصبح فيه النهر غير صالح للملاحة، فقد استقطبت الاستيطان البشري منذ قيام الأزمنة، كما أن العناصر المكونة لتراثها هذا (ما قبل الرومية، والبيزنطية أو المشرقية، والرومية والقوطية القديمة (Visigothic) قد زودتها، حتى في هذه المرحلة المبكرة، بأساس يتسع لاندماج الحضارات الجديدة. تلك كانت المدينة التي أضاف إليها الإسلام مساهمته في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي بحيث أصبحت مختلفة جذريًا عندما أتاها المستوطنون المسيحيون في القرن الثالث عشر الميلادي ليتركوا بدورهم تأثيرهم فيها. وتعكس تحركات السكان في زمن الفتح العربي عنصر الاستمرارية هذا. وكما كان الحال على الأغلب في البلدان العربية القروسطية، فإن فتح إشبيلية

لم يأت بقوة السلاح بل عن طريق الاتفاقيات. وهذا ما مكن من قيام علاقات حميمة سريعة بين الأقلية العربية الغالبة من جهة وحكام هسبالس الفيزقوطيين من جهة أخرى. وفي الواقع، وعبر تاريخ إشبيلية، نجد أن غالبية القادة في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانوا من سلالة سارة القوطية سليلة الملك الفيزقوطي غيطشة (Witiza) وإحدى قريبات آخر أساقفة المدينة قبل عام 711 م، وزوجها عمير بن سعيد أحد فاتحي إشبيلية العرب والمنحدر من قبيلة لخمية. أما البنية الاقتصادية والاجتماعية لإشبيلية الإسلامية فقد كانت تقوم - كما كان الحال في إسبانيا الإسلامية كلها وفي باقي العالم الإسلامي في ذلك الوقت - على القبيلة العربية، كما كانت القوة السياسية بيد الأرستقراطية العربية. ولكن يجب القول إن الجزء الأكبر من السكان في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، الذين حكمهم الأمراء والخلفاء الأمويون كانوا إما من المولدين الأندلسيين أو ممن اعتنقوا الإسلام واندمجوا في البنية القبلية العربية. وأصبحت المدينة أول عاصمة لإسبانيا الإسلامية أو لذلك الجزء من شبه الجزيرة الأيبيرية الذي كان بيد المسلمين، ولكن سرعان ما انتقلت العاصمة إلى قرطبة لأفضلية موقعها بالنسبة لحكومة شبه الجزيرة كلها. وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وتحت إمرة المرابطين والموحدين استعادت إشبيلية مكانتها كعاصمة حيث كانت الحدود مع المملكة القشتالية قد تراجعت نحو الجنوب في ذلك الوقت نتيجة للغزو المسيحي. تلك كانت الفترة التي أصبحت فيها العلاقات مع المغرب العربي على أفضل حال، وأخذ ميناء إشبيلية ييسر تحركًا أوسع للناس والبضائع بين شبه الجزيرة والمغرب، كما كان يتمتع بميزة القرب من مضيق جبل طارق. نتجت هذه الأغلبية الاجتماعية عن مجموعة دقيقة جدًا من العوامل التي شملت معتنقي الإسلام عن طريق مواثيق الحماية، وهي

عوامل نابعة بشكل رئيسي من التراث العربي، إذ ليس لدينا معلومات تفيد بوجود أي استيطان بربري ذي بال في منطقة إشبيلية. وقد تعزز الفاتحون الذين دخلوا البلاد عام 94 هـ/ 712 م بفرق من جند بلج ابن بشر من بلاد الشام الذين قدموا إلى شبه الجزيرة كي يضربوا ثورات عرب العاربة البربر التي عمت أراضي إسبانيا الإسلامية بأسرها، وكان الذين استقروا من هؤلاء الجند في إشبيلية من المدينة الشامية حمص. وكما كان حال الهجرة العربية اللاحقة (التي كان الحكام الأمويون يؤيدونها) فإن معظم هؤلاء الجند كانوا ينتمون إلى قبائل عربية يمانية، أي أنهم أتوا أصلا من الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، بل إن اليمانيين في الحقيقة شكلوا أكثر الجماعات القبلية عددًا وعدة في منطقة إشبيلية وفي غرب البلاد بأسرها، وهذا ما يتمثل في ولاية أول أمير أموي: عبد الرحمن الداخل، وفي الثورات التي انتشرت خلال حكم الأمير عبد الله. وهذه الفترة الأخيرة، أي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فترة مهمة في تاريخ إشبيلية المسلمة وإسبانيا الإسلامية بأسرها. أما الأزمة التي أثارها اندماج العناصر الهسبانية مع السكان المسلمين فقد كانت من نوع مختلف جوهريًا عن تلك التي قامت في المشرق، حيث أدى صعود المسلمين الآخرين إلى السلطة السياسية، التي كانت حتى ذلك الوقت حكرًا على العرب، في 133 هـ/ 750 م إلى أن يحل العباسيون محل السلالة الأموية في الحكم، لا بل إن سياسة إسبانيا الإسلامية ظهرت إلى الوجود بعد قرن من الزمان ونشأت عن آليات اجتماعية أكثر مرونة وتشابكًا وهكذا استطاعت الأسرة الأموية في إسبانيا الإسلامية بعد فترة من المصاعب الكبيرة ما بين عامي 251 - 330 هـ/ 912 م أن تحتفظ بحكم فعال في شعب إسباني مسلم انصهرت فيه العناصر العربية والهسبانية كما أشرنا سابقًا. غير أنه لم يدن بالإسلام جميع سكان إشبيلية الإسلامية؛ فضمن إطار حضاري عام يمكن

وسمه بالعربي - الأندلسي أو إسبانيا الإسلامية، كان يوجد هنالك لزمن طويل - وربما طوال الفترة موضوع البحث - أقليتان إحداهما مسيحية والأخرى يهودية. وهذا الوضع؛ مثله مثل العملية المنسجمة لدخول الناس في الإسلام وترسيخ جماعة الأغلبية التي وصفناها فيما سبق، يعد دلالة على روح التسامح التي تميز بها تاريخ إسبانيا الإسلامية. وحيث لا يوجد لدينا سوى إشارات قليلة جداً للأقلية اليهودية في إسبانيا الإسلامية فإن الصورة تختلف تماماً بالنسبة للمستعربة، أي المسيحيين الهسبانو قوطيين الذين احتفظوا بديانتهم (في 94 هـ/ 712 م شكّل هؤلاء المسيحيون غالبية السكان ولكن العديد منهم اعتنقوا الإسلام فيما بعد. وكانت المدينة مقر رئيس أساقفة إسبانيا الإسلامية، وهو الرئيس المنظور للجماعة المسيحية في إسبانيا الإسلامية ولدينا قائمة بأسماء رؤساء الأساقفة حتى العام 542 هـ/ 1147 م عندما دخل الموحدون شبه الجزيرة، رغم أنه كان من شبه المؤكد وجود جماعات من المستعربة في منطقة إشبيلية بعد هذا التاريخ. وكان للجماعة (المسيحية) أعيادهم الخاصة كعيد أسقف إشبيلية القديس إيزيدور (Isidore)، الذي كان يحتفل به في الرابع من إبريل أما الأسقف ريكافرد (Reccafred) وهو أحد الذين خلفوه خلال الحقبة العربية، فقد ترأس مجلس قرطبة في عام 237 - 238 هـ/ 852 م الذي وضع حداً لثورات المستعربة في عاصمة الخلافة الأموية وقد ذكر الفونسو العاشر الأسقف دون خوان (Don Juan) الذي ترجم الكتاب المقدس إلى العربية. وهناك رجلان آخران مهمان وكلاهما كان أسقفاً لمدينة إشبيلية وهما عباس ابن المنذر الذي أرسله الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (الناصر) سفيراً إلى بلاط راميرو الثاني (Ramero II) في أراغون (Aragon) وعبيد الله بن قاسم وكان معاصراً للخليفة الحكم الثاني وقد عاش هذان الأسقفان في فترة تم فيها إلى حد كبير تعريب جماعة المستعربة ضمن حضارة

إسبانـيا الإسلامية عـامة حيث كان الخليـفة في قرطبـة هو في الحقيقـة «أمير المؤمنين».

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، خلال الخلافة الأموية ذاتها شهدت إشبـيلية فترة مبكرة من التـألق عكست الازدهار الذي تمتعت به البلاد بأسرها في وقت كانت فيه إسبانيا الإسلامية القوة الرئيسية في غربي المتوسط، وكان لها تأثيـر لا يستهان به في أوروبا المسيـحية والمغرب. وكان أبو مـحمد الزبيدي (314 - 379 هـ/ 926 - 989 م) أحد الشخصيات المهـمة في إشبيلية في ذلك الزمن، وكان قـاضيًا شـهيرًا ولغـويًا ومؤدبًا خـاصًا للخليفـة هشام الثاني، وإضافـة إلى مؤلفاته في فقه اللـغة والتاريخ ومنها كتـاب عن العربية المحكية في إسبانيـا الإسلامية فقد كان له عدد من القـصائد التي كتبت بروح إسبانيا الإسلامـية ذات آفاق واسعة ومنفتحة. وقد عـاصر الزبيدي قاض آخر لإشبيلية لعب فيـما بعد دورًا بارزًا في إسبانيا الإسلامية وهو مـحمد بن عبد الله بن أبي عامر، الذي دعى المنصـور فيما بعد، وكان حاكم البـلاد الحقيقي المؤثر في عهد هشام الثاني. ورغم تولـي المنصو عددًا متزايدًا من المناصب في بلاط الخليفـة فقد احتـفظ بمنصبه قاضـيًا لإشبيليـة حتى أواخر أيامه تقـريبًا. ونظرًا لأهميـة هذا المنصب الاقتصـادية فقد كـان يدير الأوقاف، أي ممتلكات المؤسسـات الدينية. وهنالك ما يدعـو إلى الظن أنه، في منطقة إشبـيلية على الأقل، كان من المـمكن الالتفاف حـول نظام الوراثة في الشريعـة الإسلامـية (حيث تقسم الأمـلاك بين جميع ورثة المتوفي) باستـخدام نظام الوقف، وكان من نتيـجة ذلك أن أماكن حـصر أملاك الأسـرة كلها في يد شـخص واحد. وهذا يمكن أن يفسـر استـمرار الملكية الواسـعة للأراضي من الحـقبة القـوطية القديمـة وحتى العـصور المسيـحيـة المتأخـرة. بالنظر إلى ما تقـدم، ليس من المستغـرب أن يستولي القاضي محـمد بن عباد على السلطة في إشـبيلية وفي

غرب إسبانيا الإسـلامية عند سقوط الخلافة الأموية في قـرطبة. ويبدأ بحكمه في 414 هـ/ 1023 م عهد في تاريخ إسـبانيا الإسلامية، وهو مـا عرف بعهد ممالك الطوائف الذي تجزأ فيه كيان إسبانيـا الإسلامية الثقافي والاقتصادي إلى دويلات. وربما كان القرن الخـامس الهجري/ الحادي عشر الميـلادي من أكثر الحقب أهمية في العـصور الوسطى، فهو يمثل إسبانيـا في عهد رودريغو دياز بيبار، السيد (Rodrigo Diaz de Vivar, El Cid). وقد أقامت الممالك المسلمة والمسيحية المختلفة التي شكلت البنية السياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية شبكة غنية ومتداخلة من العـلاقات في ما بينها. وكانت ممالك إسـبانيا الإسلاميـة تشهد فترة من الازدهار الحضاري وازاه ضعف عـسكري وسياسي في مواجهة الدول المسيحية، الأمر الذي جعل قدوم المرابطين أمراً محتماً في النهاية. وشيئًا فشيئًا ضمت إشبيلية المناطق المجاورة (قرمونة Carmona) قرطبة، إسيجية (Ecija)، مورون (Moron)، الجزيرة الخـضراء (Algeciras) ليبله (Niebla)، . . . إلخ فنتج عن ذلك توسع المساحـة الجغرافيـة للمدينة بعد أن كانت مـحصورة في حدودها الاقـتصادية والاجـتماعـية وحسب. ونلاحـظ في ذلك الوقت تحول إشـبيليـة إلى مـركز علمـي وأدبي من الطراز الأول، حيث أخـذ الفلكيـون والشعراء والفلاسفة يؤمونها من جميع أطراف إسبانيا الإسلامية طلبًا للدعم من البلاط العـبادي تحت رعايـة الملكين المعتضـد والمعتمـد. وعند النظر في هذه الفترة، كمـا هو الحال في تاريخ إشبيلية برمته فـإن الذهن يقفز في الحال إلى الشعراء، غير أن المدينة الآن اجتذبت كذلك الباحثين من جميع الأصناف كما حدث فيمـا بعد، أيام الموحدين. ويبدو أحيانًا كأن أعـمال ابن عمار من أهل شلبه (Silves) أو ابن زيدون أو ابن حزم أو أبيـات المعتمد نفسـه هي وحدها التي تناقلتها الأجيال اللاحقة. وفي عام 488 هـ/ 1095 م كان مقدراً للمعتمد أن يتوفى في أغمات (قرب فاس في المغرب اليوم). وكان المرابطون قبل ذلك

بأربعة أعوام وبعد غـزوهم المغرب العربي قد دخلوا إسبانيـا الإسلامية بطلب من ملوك الطوائف (حيـث إنهم وحدهم كانوا القـادرين على احتواء التـقدم المسيـحي). وكمـا حدث مع الموحـدين، أي البربر من بـني مصمـودة الذين استـولوا على المناطق الإسلاميـة في شبه الجـزيرة عام 542 هـ/ 1147 م فإن وجودهم قد زاد من عنصر المغرب العربي في حضارة إسبانيا الإسلامية. وربما يكون أكثر دقة أن نقول إن تراث إسبانيا الإسـلامية المتراكم استطاع بطريقة ما أن يجعل اندماج المرابطين والموحدين فيه ممكنا، فالخلفاء، من كلتا السلالتين، الذين اختاروا إشـبيلية عاصمـة إسبانيا الإسلاميـة لهم وتمكنوا في النهاية من هضم الأوجه الحضارية في إسبانيا الإسلامية. وبالرغم من جميع الاعتراضات التي كان يـطلقها علمـاء المرابطين فإن الشـعر لم يختـف في القرن الهـجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي وهؤلاء العلماء أنفسهم، الذين أدانوا الموسيقى الناشئـة في إشبيلية على أنها معادية للإسلام، شـهدوا في القـرن السادس الهجـري/ الثاني عشـر الميلادي تطويراً نهـائيًا بصيـغة انتقلـت بها عن طريق غرناطة في عهد بني نصر إلى المغرب العربي حيث ما زالت تعرف حتى يومنا هذا بالموسيقى الإسـبانية الإسلامية وهكذا تم اندماج هذه الـقبائل من المغرب العربي في حضارة إسبانيا الإسلامية العـربية الإسلامية الوسيطة. وفي الحقيقة شكّلت إسبانيا الإسلامية والمغـرب جزءاً من منطقة حضارية واحدة منذ القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي وكـان هناك اتصال كثيف بين المنطقتين إلا أن العلاقات خـلال هذه الفترة اتسعت كثيـراً. بحيث لم يكن هناك فرق بين أن ينصرف الدارسـون إلى أبحاثهم في غـرناطة أو فاس، في الرباط أو قـرطبة. كما حكم الخلفـاء إمبراطوريتهم الشـاملة إما من مراكش أو من إشبـيلية. أما التجار فقد سيروا أعمالهم على جانبي مضيق جبل طارق، سواءً بسواء.

تمثل مرحلة المرابطين - الموحدين التشكيل النهائي لإشبيلية في الحقبة العربية؛ فلم تتوسع حدود المدينة المتوارثة منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حتى الأزمنة الحديثة. وقد أضفى الخليفتان أبو يعقوب يوسف الشاهد وأبو يوسف يعقوب المنصور على إشبيلية الخطوط الرئيسية لتطورها المديني العام إضافة إلى أهم مبانيها. ثم أصبحت موطن ابن رشد، وأسرة ابن زهر والمتصوفة من إقليم الشرف (Aljarafe) الذين كانت حياتهم وخبراتهم تجسيدًا بارزًا للثروة الروحية الإسلامية. وكان أبو بكر محمد بن العربي (467 - 543 هـ/ 1075 - 1148 م وهو أحد أبرز شخصيات إشبيلية مسئولا عن بناء أسوارها، ويذكره ابن خلدون نفسه كشخصية رئيسية في تاريخ التربية الإسلامية. ويكشف منهاجه الدراسي بوضوح عن الرقي الثقافي الذي بلغته حضارة إسبانيا الإسلامية. «وقد كان من حسن حظي أن الله قيض لوالدي، في طفولتي وفتوتي وشبابي، أن يختار لي مؤدبين يعلمونني القرآن حتى حفظته وأنا ابن تسع سنين. ثم هيأ لي ثلاثة مؤدبين: أولهم ليكمل معرفتي بالقرآن؛ والثاني ليعلمني اللغة؛ والثالث ليعلمني الحساب. فلما بلغت السادسة عشرة غدوت عالمًا بعشر من القراءات من إدغام وإظهار وتجويد وتنغيم ووقف وقصر. ثم تعلمت وجوه اللغة المتعددة، وقرأت أشعار المتقدمين والمتأخرين من العرب. واستمعت إلى تفاسير التراث والحديث. ثم تلقيت دروسًا في الجبر إلى جانب كتاب إقليدس وغيره من كتب الهندسة. وتعلمت الجداول الفلكية الثلاثة وطريقة استعمال الأسطرلاب. وقد سمح لي المؤدبون الثلاثة أن أستريح من العصر حتى صبيحة اليوم الثاني؛ لكنني لم أمنح نفسي راحة بل واصلت القراءة وتسجيل الملاحظات. وكان ذلك كله في أول شبابي[1].

---

(1) رفائيل بالنثيا - إشبيلية الإصلاحية - الحضارة العربية الإسلامية ص 224.

العمارة

لا شك في أن فن العمارة يشكل أحد أبرز سمـات إشبيلية العربية التي ورثتها إشبيلية المعاصرة من العصور الوسيطة المتقدمة. وكان الجامع أو المسجد يمثل المركز الرئيسي في المدينة الإسلامية حيث كـانت تقام صلاة الجمعة. وقد بني أول جامع في الموقع الذي تقوم فيه اليـوم كنيسة السلفادور في منطقة من المدينة القـديمة ما زالت تجـارية حتى يـومنا هذا كمـا كانت في أيام العـرب. ويرجع تاريخ إنشـاء هذا الجامع إلى العـام 214 هـ/ 829 م إبان حكم عـبد الرحمن الثـاني، وكان يضم أحـد عشر صـحنًا صممت مـتعامـدة مع حائط القبلة، الذي كان يواجه الجنوب كما هو الحـال في جميع المساجد الأندلسية. وكان مستطيل الشكـل وله، كما يصفه الكتاب المعاصـرون، أعمدة من المرمر تستند عليـها أقواس من القرمـيد، أما منارته المحفـوظة حتى يومنا هذا داخل برج الكنيسة فهي ذات تصميم مربع يبلغ طول ضـلعه حوالي ستة أمتار، وقد استعمل في بنائها الأصلي، كما كان الحـال غالبًا في إشبيلية، الحجارة المربعة التي تعـود إلى العصـور الرومية، وهـناك في داخل المنارة سلم لولبي، مما لا نراه في المشرق حتى القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي، يلتف حول عمود اسطواني مـتين في المركز. وفي كـل واحدة من زوايا المنارة، حـسب وصف العذري، تقوم ثلاثة أعـمدة من المرمر. تصل حتى القمة، ربما تمت إضـافتها على يد المعتمـد الذي رمم المنارة بعد زلزال عام 472 هـ/ 1079 م (المشار إليه على الحجـر التذكاري الذي مـا زال محفوظًا في المـوقع ويمكننا اليوم أن نرى كذلـك صحن هذا الجـامع الأصلي الذي لابد وأنه كان علـى مستوى أكـثر انخفاضًا من فناء الكـنيسة الحالي: كما أضيـفت إلى الأقواس الآجرية العائدة

إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي الترميمات التي أدخلت على هذا البناء التذكاري خلال فترة الموحدين، وفي القرن الثامن عشر الميلادي.

وعندما لاحظ الخليفة أبو يعقوب يوسف أن هذا الجامع الذي كان يدعى بجامع ابن عدبس كان من الصغر بحيث لا يكفي لإقامة خطبة الجمعة في حشود بحجم سكان إشبيلية في ذلك الوقت، قام بتشييد جامع أكبر منه في موقع الكاتدرائية الحالية. وكان في بنائه وأبعاده الكبيرة يتبع خطوط المرابطين: أعمدة آجرية وأقواس على شكل حدوة الحصان المدببة وصحون عمودية على جدار القبلة الذي يمثل في قاعة الخطبة وجهة الصلاة للمسلمين. ويمكن اليوم رؤية بقايا هذا المسجد الذي شيد في عهد الموحدين وبقايا زينته المترفة في «ساحة البرتقال» (Patio de los Naranjos) كما توجد هناك منارته «الخيرالدا» وهي الجزء الوحيد الذي بقي منه بأكمله. وأكمل بناء بهو الخطبة في 751 هـ/ 1176 م ولكن توسيع الصحن قد تم في تاريخ متأخر. وأما الخيرالدا نفسها فقد أمر الخليفة الموحد نفسه بتشييدها في 13 صفر من عام 580 هـ/ 26 مايو 1184 م على الحائط المواجه للشرق حيث يلتقي فناء المسجد بقاعة الصلاة. وقد استعملت الحجارة المربعة الرومية في بناء الأسس أما في المستويات العليا فقد استبدلت الحجارة بالآجر المنحوت. وأقيم على موشور سباعي مركزي موشور آخر بأبعاد أكبر كما أقيم ممر منحدر مقنطر يصل بينهما. وزينت المنارة من الخارج بمساحات من الآجر المزخرف وهذا ما استعمل كذلك في تأطير كوي الإنارة في جدران السلالم الموصلة. وفي هذا الشكل الأصلي قبل أن يضفي عليها هيرنان رويث (Hernan Ruiz) مظهرها المميز في القرن السادس عشر الميلادي توج الخيرالدا «جامور» [لب النخل] عليه أربع كرات مذهبة مرصوفة على قضيب حديد في نظام متناقص الحجم. ويورد مؤرخ الموحدين أبو مروان بن صاحب الصلاة (ت 594 هـ/ 1198 م) هذا الوصف للبرج،

وهو أبرز ما يميز المدينة في العالم أجمع: «هذه المنارة هي أعظم من جميع المنائر الأخرى في الأندلس قاطبة، في ارتفاعها وفن بنائها الفائق. وعند النظر إليها من بعيد يبدو وكأن جميع نجوم السماء قد توقفت في قلب إشبيلية.

وكانت إشبيلية الإسلامية تزهو بأماكن أخرى للعبادة بعضها في الهواء الطلق وكان يستخدم في الاحتفالات المهمة. وكان أحد هذه الأمكنة المصلى في الجهة الجنوبية من «القصور» (Alcazares) عند «باب النخيل»، ويشغل هذا الموقع اليوم بناء الجامعة الرئيسي. كما كان هناك عدد كبير من الجوامع المحلية في إشبيلية، نجد قائمة طويلة بأسمائها محفوظة في النصوص العربية وفي النصوص المسيحية المبكرة كذلك، حيث تحول بعضها إلى كنائس مسيحية بعد عام 646 هـ/ 1248 م. وكان هذا التحول في أماكن العبادة ظاهرة عامة في المدينة، وكنيسة السلفادور التي ذكرناها سابقًا. مثال على ذلك: إذ كانت في البداية بناية رومية تستخدم في مناسبات دنيوية، ثم أصبحت كنيسة في الفترة الفيزقوطية، ثم تحولت إلى أول جامع في المدينة، وبعد الغزو القشتالي تحولت ثانية إلى كنيسة. ويستفاد من نصوص هذه الفترة أن مدينة إشبيلية كانت مقسمة إلى أحياء منفصلة تأخذ أسماءها من الجامع المحلي الرئيسي فيها على غرار ما حدث مباشرة بعد عام 646 هـ/ 1248 م، وقام بجوار الكثير من تلك المساجد نمط من الأبنية تميز به تخطيط المدن المسلمة، وأعني بذلك الحمامات العامة وبعضها ما زال محفوظًا حتى يومنا هذا ولكنه يستخدم لأغراض مختلفة تمامًا عن الأغراض الأصلية له. وعرفت كذلك نماذج أخرى من الأبنية كالقصور التي شيدت في زمن بني عباد، وخلال فترة الموحدين. وما زال بعض هذه القصور باقيًا حتى يومنا هذا ولو أن حالها تبدل إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال كان قصر المبارك وقصر المكرم مكانين تزخر فيهما حياة البلاط بالموسيقيين والشعراء إبان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر

الميلادي، وقد شيد أولهما على الطرف الجنوبي للمدينة المسورة فوق أبنية سابقة له مثل دار العمارة الخاصة بعبد الرحمن الثالث. وقد خصصت تلك المنطقة من المدينة خلال الفترة الإسلامية عمومًا لتصريف أعمال الحكومة وهناك كان يتم اتخاذ القرارات بشأن مصير المدينة والمناطق التابعة لها. وقد قام المعتمد بزخرفة القصر بالأعمدة والمواد المجلوبة من مدينة الزهراء كما ألحقت به قلعتان من عهد الموحدين في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وبعد احتلال المسيحيين للعاصمة كان ملوك قشتالة وعلى الأخص منهم بيدور الأول (Pedro) هم الذين أضفوا على قصور إشبيلية الشكل الذي تبدو عليه في يومنا هذا. كما أنه تم حفظ الطابع الإسلامي لهذه الأبنية الأثرية على أيدي معماريين جلبوا من طليطلة أو من مملكة بني نصر في غرناطة، وفي جو من التعريب الملحوظ على المستوى الحضاري كان مقدرًا لألفونسو العاشر (الحكيم) (Alfonso X) وبيدور الأول أن يصرفا شؤون الحكم من هنا. ويجدر بنا أن نذكر المجتمعات التي أنشئت حول البحيرة أو Huerta) del Rey) وهي مجموعة الإنشاءات (القصور، البركة الكبيرة، وغيرها) العائدة إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، والمزارع التابعة لها والتي كانت تضم بعض حدائق العبّاديين، هذه الحدائق التي تمت المحافظة عليها بحالة جيدة لمدة عشرة قرون ولكنها أزيلت من الوجود مؤخرًا عند التحضير لاحتفالات الذكرى الخمسمائة لاكتشاف أميركا. وكانت هذه الأبنية جميعًا محاطة بأسوار المدينة الإسلامية المختلفة، وأولها سور تعود آثاره إلى عهد الإمبراطورية الرومية بشكل مباشر. وبناء على ما يورده كتاب تلك الفترة، فإن ذلك السور كان ما يزال قائمًا في المدينة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكانت حدود إشبيلية تشمل الجزء الجنوبي الشرقي الحالي من مركز المدينة القديم، كما أن بعض الأبواب «مثل

قرمـونة» (Puerta de Camona) و«باب اللحم» (Puerta de la Carne) ما تزال آثارها ماثلة في المدينة، بينما استوعبت المنازل أبوابًا أخرى مثل باب العطارين (Puert de la Perfumistas). لكن روعة القرن الخامس الهـجري/ الحادي عشر الميلادي لم تشهد أسوارًا جديدة في المدينة - ولو أن البيوت والقصور المذكورة سابـقًا قـد امتدت إلـى ما خلف أسـوار المدينة القديمة - بل كـان المرابطون، بفضل القـاضي أبو بكر بن العربي هـم الذين بنوا السور الثـاني، الذي أحاط بمركـز المدينة القـديم حتى بدايات القـرن الحـالي، عندما هـدم باسم التقـدم المزعوم، ولو أن طبيعـته ما تزال ماثلة في ما تبقى من امتـدادات منطقة الفخر (Macarena) و«حـديقـة الوادي» (Jardin del Velle) وفي داخل البـيـوت في مناطق سكنية أخرى. وقد جرت تقويـة هذا السور الثاني في عهد الموحدين، الذين أضـافوا سلسـلة من المداخل ذات الزوايا، لغـرض تحسين قـدرة المدينة الدفاعية، وكان السـور محاطًا بخندق إلا من جهته الشرقـية، حيث كان نهر الوادي الكبير يشكل حاجزًا طبـيعيًا. وفي عام 617 هـ/ 1220 م تمت أعمال التقوية ببناء برج الذهب (Torre del Oro) الذي كان يسد مدخل ميناء إشبيلية الجنوبي، وفي شمال منطقة الميناء جرت أعمـال تقوية إضافية للسور عند باب السفـينة (Puerta de Barqeta)، الذي يشكل الآن مـعبـرًا للمشـاة إلى مكان «معرض 92». وكانت امتدادات السور عند ضفاف النهر تعاني من الفيضانات حتى وقت قريب، عندما يفيض نهر الوادي الكبيـر عن ضفتيه، ويحيل مركز المدينة إلى جزيرة. وقد استحالت أبواب السـور إلى أشكال مختلفة تمامًا: نجد «باب قرطبـة» تحيط به كنيـسة سان إرمـينغيلدو (San Hemenegildo)، وباب المؤذن (Puert del Almuedano) الذي غـدا يدعى البـاب الملكي (Puert Real) وباب تريانا (Triana) صار يؤدي إلى المنطقة في الجـانب الآخر من النهر التي مـا زالت تدعى جسـر الجنائب (Puerta de Barcas)، وهكذا. أما الحـيـاة

الاجتماعية في إشبيلية خلال العصورالوسطى المتقدمة وفي الفترات التالية لها فقد برزت فيها الفعاليات التي تنشط الموانئ عادة، حيث كان الجزء الأكبر من التجارة البحرية مع المغرب العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط يمر عبر المدينة، وفي هذا المجال كانت إشبيلية أيام الموحدين بمثابة نواة للحاضرة التي أصبحت لاحقًا وساطة للتجارة مع «العالم الجديد». فكانت المنتجات الزراعية تنقل عبرها من غرب الأندلس إلى الشرق منه، بينما كان يفرغ على أرصفة مينائها جميع ما كان يحمل من بضائع بكل أنواعها من أطراف الدنيا الأربعة. وأحد أمثلة هذه الفعاليات الكبرى كان بناء السفن الذي نشط منذ القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، حيث نجد أن الأمير عبد الرحمن الثاني أمر بإنشاء «دار الصناعة» الأولى أو «حوض السفن» ردًا على الهجوم النورمندي عام 230 هـ/ 844 م. وفيما بعد شيد الخليفة الموحد أبو يعقوب يوسف مرافق جديدة للغرض نفسه في موقع آخر من منطقة الميناء، ويعتقد أن هذه المرافق كانت في المكان الذي شيد فيه ألفونسو العاشر بالاتفاق مع الملك القشتالي مرافق مشابهة عام 1252 م وذلك بالنظر إلى تاريخ بناء الأحواض في عهد الموحدين، كما يعتقد أنه اكتفى بتجديد المباني أو إعادة إنشائها. وما تزال آثار الموحدين ماثلة للعيان في وقتنا الحاضر في المبنى الكبير الذي يضم مستشفى الإحسان (Hospital de la Caridad). ولا يتسع المجال هنا لحصر كامل للفنون والمهارات المختلفة في إشبيلية الإسلامية. وفي بعض الأحوال، كما في صناعتي الخزف والفخار، ما زالت بعض نماذج منهما ماثلة للعيان، فالخزف الإشبيلي المزجج والذهب هو تراثنا من تلك الفترة، ويمكن تلمس آثاره في بيوت المدينة وقصورها. وقد استعمل الفنانون أيام المدجنين أساليب ومواضيع الخزف العربي كما أنها نقلت إلى أميركا. وتمت المحافظة على أعمال ذات أصالة كبيرة في حقل النحت في الحجر مثل إطار الباب الذي تعلوه منحوتة

رأس بشري ويعود تاريخه بحسب ما نقش عليه إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. أما الأعمال المعدنية فهناك مجموعة كبيرة من أدوات الاستعمال اليومي التي ما تزال باقية حتى يومنا هذا، كما أن مفاتيح المدينة العربية المحفوظة حاليًا في كاتدرائية إشبيلية ما تزال مبعث إعجاب كبير لناظريها. ويجدر الاهتمام هنا بتحفة فريدة حقًا ألا وهي ورقتان كبيرتان من البرونز تزينان الباب الحالي المسمى باب الغفران (Puert del Perdon) في باحة البرتقال (Patio de los Naranjos) لجامع يعود إلى عهد الموحدين. وكانت هاتان الورقتان بما حفر فيهما من زخارف ونقوش تغطيان البوابة الرئيسية للجامع، أما مطرقتا الباب الكبيرتان والمصنوعتان من البرونز فهما تمثلان الزخرف في إسبانيا الإسلامية الغني التقليدي الذي يختلف عن الزخرفة المعتدلة التي عرفت في شمال إفريقيا في تلك الأيام. وهذا العمل الفني مثال آخر يبين كيف تأقلم ملوك الموحدين مع الحياة الإسبانية الإسلامية.

لم يبرز كل هذا الإنتاج الفني وسط صحاري أو فياف مقفرة، بل كان وراءه شعب تشهد به المصادر التاريخية. وقد أتينا على ذكر بعض الشخصيات المهمة في إشبيلية الإسلامية مثل: الزبيدي وأبو بكر بن العربي والأسقف عبيد الله بن قاسم والمعتمد وهناك كثير من غيرهم من أهالي إشبيلية ممن أسهموا في حياة المدينة ولكن أسماءهم غير معروفة الآن. ففي رسالة ابن عبدون على سبيل المثال هناك ذكر لمجموعة كبيرة من هذه الشخصيات، كتجار الأسواق وتجار الزيت من «إقليم الشرف» والغسالات على ضفاف نهر الوادي الكبير والبحارة ومقرئي القرآن ومعلمي المدارس الابتدائية وباعة الجبن في مناطق المستنقعات والمؤذنين والقسس المسيحيين والباعة المتجولين والبنائين بالحجر والآجر... إلخ ويمكننا من خلال صفحات هذا الكتاب أن نحس بإيقاع

إشبيلية وضجيجها في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بكل أنشطتها المتنوعة. وقد قام هؤلاء الناس كل بدوره في صنع حضارة العاصمة، وبينهم العديد من الأفراد بل الأسر أو الجماعات المميزة ممن يستحقون الذكر: شعراء البلاط العبادي، مهرة الصناع الذين أنشأوا أحواض الملاحة أو الخيرالدا، أو التجار القادمين من جنوا أو المشرق. وسنعرض هنا لمثالين وحسب: الأول أسرة ابن زهر من الأطباء التي انتقلت إلى إشبيلية من طلبيرة (Talavera) في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وقد بلغت هذه الأسرة مكانة عالية شأن أسر العلماء الكبرى في العصور الوسطى العربية، وبرز من بين أفرادها أبو العلاء زهر (ت 525 هـ/ 1131 م) وأبو مروان عبد الملك (487 - 557 هـ/ 1094 - 1162 م) اللذان مارسا الطب في إسبانيا الإسلامية والمغرب. أما المثال الثاني فيتعلق بفاعلية ذات أهمية خاصة في إسبانيا الإسلامية، وأعني بذلك الدراسات الزراعية حيث كانت منطقة إشبيلية منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، موطنًا لكتاب بارزين في هذا الحقل مثل: أبو الخير وابن حجاج. كما يجب أن نخص بالذكر كتابًا يحمل عنوان عالم النبات المجهول وهو من أعمال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وفيه تصنيف للنباتات بطريقة علمية منتظمة تذكرنا أحيانًا بالعالم لينايوس (Linnaeus)، وهو أول كتاب في هذا المجال يظهر بعد أرسطو أو ثيوفراستس (Theophrastus) أو ديوسقوريدس (Dio-scorides)، كما يسبق سيسالبينوس (Cesalpinus) بخمسة قرون. وكان آخر وأبرز من كتب في الزراعة من أهل إشبيلية ابن العوام الذي بحث في كتاب الفلاحة جميع جوانب الموضوع: طرق الفلاحة وأقلمة الأجناس القائم على الموروث اللاتيني ولكنه يفوقها غني بالتجارب التي جرت عبر تاريخ الأندلس برمته. وقام جميع هؤلاء الناس بدورهم في خلق روح المدينة، تلك الروح

التي غيرت الطبيعة الأساس لأهل إشبيلية: إذ لدى قراءة ما كتب في تلك الفترة يلاحظ المرء أوجه الشبه العديدة بين أهل إشبيلية في العصور المتوسطة المتقدمة كما تصورهم الكتب الكلاسيية في القرن السابع عشر الميلادي وسكان المدينة في الوقت الحاضر. ولإيضاح هذه النقطة أسوق هنا مثالا من أحد الكتاب في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، يرسم فيه صورة لأهل إشبيلية في زمنه شبيهة بالصورة الحديثة التقليدية لهم: «وأهل ذلك الوادي .. أخف الناس أرواحًا، وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكن من السب، قد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه ولا يتلاعن ممقوتًا ثقيلا». ويبقى هنالك بعد عام 646 هـ/ 1248 م من الفترة المتألقة لإشبيلية الإسلامية ما هو أكثر من المباني التذكارية مثل الخيرالدا أو برج الذهب أو أسوار المدينة أو الميناء المعد للتجارة الخارجية. ويجب ألا ننخدع بالصورة التي رسمها الحميري في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إذ يصف المدينة بأنها كانت مهجورة لثلاثة أيام عندما دخلتها القوات القشتالية، ونعلم اليوم أن عددًا من المسلمين - مثل أبو الحسن المتوفي عام 646 هـ/ 1249 م - قد بقي في إشبيلية المسيحية. وقد روى كاتب معاصر لتلك الفترة أنه «حين دخول المسيحيين إشبيلية، هاله ما سمع من أصوات النواقيس، فأصابه الحزن لعدم سماعه أصوات المؤذنين يدعون المسلمين للصلاة فغلبه لذلك حزن عميق وألم ما برح يلازمه حتى وافته المنية»، ويرد ذكر هذه الجماعات المسلمة في القوانين البلدية (Ordenanzas) التي شرعها فرناندو الثالث ملك قشتالة وبموجبها تحول أفرادها إلى المسيحية تدريجيًا بطريقة معاكسة ولكن موازية لما جرى في القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، ولكن عاداتهم وطريقة حياتهم استمرت عند أهل إشبيلية الجدد. أما الذوق الجمالي البادي في المدينة إبان حكم ألفونسو العاشر فإنه

يعكس إلى حد ما تأثير إشبيلية في العصر الوسيط المتقدم ليس فقط في فن المدجنين ولكن في الميول الأدبية التي شاعت في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وفي الشعور بالتقارب الذي جعل بيدرو الأول ملك قشتالة يعرض على ابن خلدون أحد سفراء ملك غرناطة النصاري، إمكانية السكنى في المدينة حيث عاش أسلافه طوال قرون خلت[1].

---

(1) رفائيل بالنثيا - نفس المرجع السابق ص 231.

مجتمع غرناطة

صنف المجتمع الإسباني الإسلامي في كل الكتابات ضمن المجتمعات التي تميزت بديناميتها وحيويتها، كما صنف أيضًا تصنيفًا داخليًا، أفرز لنا أربع فئات داخل هذا المجتمع، فئة تتضمن الموظفين والطامحين إلى السلطة، وفئة ثانية تضم جمهور الأمة وفقهائها وخواصها، وفئة ثالثة أشد الفئات تواضعًا وبؤسًا وفئة أخيرة تفرغت للعمل الأخروي. هذا يدل على أن مجتمع غرناطة كان يعرف تناقضًا رهينًا في توزيع الثروات، فهناك فئة أرستقراطية تعيش حياة ترف ونعيم، وثانية تعيش في بؤس دائم، وأخرى تعيش وسطًا بين الاثنين وتولد عن هذه الطبقات الثلاث نتيجة الهجرات المتتالية طبقات اجتماعية أخرى اختلفت في وضعها الاجتماعي والمالي. وقبل الحديث عن مختلف هذه الطبقات المكونة لمجتمع غرناطة لابد أن نشير إلى التقسيم الاجتماعي الذي قدمه ابن الخطيب وزير غرناطة وشاعرها وأديبها والذي ينطبق على المجتمع الأندلسي في كل بقاع الأندلس وفي كل العصور الأندلسية إذ قال: وكان الناس يومئذ - أي عهد هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية - بل وفي كل زمان - أصنافًا: فصنف همه الدنيا التي ينالها بسبب الولد، هبه بالغًا، أو مراهقًا، أو طفلا في المهد، أو جنينًا في المشيمة، وهم صنائع الحكم وخدامه وعماله وفتيانه ورجاله، وصنف مرتب في الديوان مشهور العناية، والمكان، أو مجهول الشأن، راض بحظه من الزمان، لا يتشوق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان، قد تساوت في الدول أحواله، وسكنت إلى الرزق والمفروض آماله فهو هادئ ساكن، وإلى فئة العافية راكن وصنف، يؤمل أمرًا، ويشب إذا قدر جمرًا مستوحش ببخس حقه، وجحد سبقه، وهذا الصنف المنازع المنافس بين أن يصمت فيموت بدائه، أو يجهر بالمنازعة، فينتهي إلى قدر الله

وقضائه، وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف، وصنف، من أهل الدنيا والآخرة، قلدوا أهل الحل والعقد، والقبول والرد اجتهادهم، وسألوا الله توفيقهم وسدادهم وهم أشرف أوطانًا، وأعظم سلطانًا وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء، والخاصة، والدهماء. وصنف، غارم، لاهم له إلا فيمن يخفف إصره، أو يديل باليسر عسره، وأما هؤلاء فأوباش أسواق، وحمقى، ما لهم من أخلاق، وصنف همه الآخرة، بعيد من تعريج على شيء من الدنيا. إنما هو مشغول بربه خاصة. وهذا جيل قليل وإنما ذكر مراعاة للتقسيم ولا تخلو الأقطار منهم، فهم بركات الله بين عباده وأوليائهم منهم. تعتبر هذه الطبقة أغنى طبقات المجتمع الغرناطي وأكثرها ثراءً، وتتكون من أفراد الأسرة الحاكمة، وكبار الملاكين وكبار الأغنياء الذين استأثروا بأجود أراضي غرناطة وسيطروا على معظمها. وكان أفراد هذه الطبقة يميلون إلى الترف والدعة والاسترخاء واللهو، وينغمسون في ملذات الحياة متجاوزين الضروري منها، يفتخرون بذلك ويتفاخرون، يأكلون أطيب المأكولات، ويلبسون أبهى الحلل، يبنون القصور ويكثرون من الرياض، ويؤثرون الراحة على المتاعب، فكانت حياتهم مليئة بجلسات السمر، وحفلات الفروسية، ومواسم الصيد؛ اعتمادًا على ما ورد في بعض الكتب التاريخية التي تناولت دراسة الحياة الخاصة لهذه الفئة من مجتمع إسبانيا الإسلامية تتجلى لنا مظاهر عديدة لحياتها التي غلب عليها الترف والرفاهة وذلك استنادًا إلى معايير عديدة منها قول المقري: مع كون أهل إسبانيا الإسلامية سباق حلبة الجهاد، مهطعين إلى داعية من الجبال والوهاد، فكان لهم في الترف والنعم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد. فرغم الحياة المريرة التي كان يعيشها أهل الأندلس بجوار الدول المسيحية، ومواجهاتهم التي كانوا يعيشونها إلا أن هذا لم يمنعهم من حب الحياة والتمتع بمباهجها.

أشار لسان الدين بن الخطيب أكثر من مرة في كتابه: «الإحاطة»، إلى العظمة والتقدم اللذين بلغتهما مملكة غرناطة، فأعطانا صورة واضحة عن عصره، انطبعت مظاهرها على حياة أهلها وطرق معيشتهم في جميع النواحي السياسية والحربية والدينية والثقافية. وكان الرخاء والثراء محور هذه الحياة التي بلغت في البذخ حداً بعيداً؛ فذكر أن أهل غرناطة كانوا يميلون إلى الأناقة في اللباس ويكثرون الابتذال فيه وكان نساء الطبقة الأرستقراطية يتزين بالملابس الموشاة بخيوط الذهب، وبالقلائد والدمالج والأقراط المصنوعة من الذهب الخالص، أما الملوك فكانوا يلبسون ملابس ملوكية مطرزة، يرمز تطريزها إلى شعار الملك أو شارة من شارات الأسرة الحاكمة، وقد أخذ بني نصر هذه العادة من الملوك الذين سبقوهم، خاصة ملوك الطوائف وتجلى ترف الأسر الحاكمة في كثرة الجواري بقصورهم، والميل إلى حياة اللهو والمجون كالسلطان أبي الحسن النصري، الذي انهمك في الشهوات والملذات والتمتع بالجواري، إلى أن انتهى به الأمر إلى الاستسلام إلى حب جاريته الرومية ثريا ولا ينبغي أن نغفل البناء والعمران الذي شكل مظهراً من مظاهر الترف لهذه الطبقة، فقد تعددت قصورها التي امتازت بجمالها ورونقها، وبلغت حداً بعيداً في نقوشها وزخارفها، واتساع أبهائها. وإلى جانب الطبقة الحاكمة كان بغرناطة فئة الملاكين الكبار التي سيطرت على زمام الاقتصاد، وفئة التجار الكبار وكبار الموظفين. ورجال العلم والدين كانوا يمثلون طبقة أعيان المملكة المتقدمة نفوذاً أو مكانة. وكونت هذه الفئات مع الأسرة الحاكمة فئة من الأثرياء التي استأثرت باقتصاد البلاد، وقد استوجب هذا النوع من الحياة المترفة الرفيعة طابعاً خاصاً ميز حياة هذه الطبقة الأرستقراطية التي طغى عليها التعاظم والعفة والتفاخر بالنسب، لكن رغم ميلها إلى هذا النوع من الحياة، إلا أنها أبانت عن كفاءتها وحنكتها في تدبير شؤون الدولة. ونظمها الإدارية المتعددة المهام وهذا ما سنحاول توضيحه.

تعتبر الدولة النصرية مملكة إسلامية مستقلة، ويبدو أن ملوكها ظلوا محافظين على التقاليد الشرقية، ونهجوا سبل من سبقهم من أمراء المؤمنين في دمشق وبغداد في عوائدهم وأحوالهم، واستأثروا بكل ثمرات الملك؛ فأخذوا بمبدأ الحكم المطلق، واتخذوا الألقاب المقدسة التي تدل على التشبث بأهداب الشريعة، إلا أن الحكم المطلق لم يكن يعني استبداد الملوك وانفرادهم بإدارة شؤون المملكة، بل كانت للسلطان حاشية من القادة، وزعماء الأقاليم، ونخبة من العلماء والفقهاء الذين كانوا يقومون بأعباء الدولة نيابة عن الملك. ولعل اقتسام هذه المهام يرجع أساسًا إلى الظروف السياسية التي كانت تعيشها إسبانيا الإسلامية بصفة عامة وغرناطة بصفة خاصة.

أزياء أهل غرناطة:

لقد جاءت كتابات ابن الخطيب غنية بما بلغته غرناطة من العظمة والتقدم، فأعطى صورة صادقة لعصره انطبعت مظاهرها على حياة أهل إسبانيا الإسلامية وطرق معيشتهم وملابسهم، فذكر أن لباسهم الغالب في الشتاء هو الملف المصبوغ المنسوج من الصوف، أما في الصيف فكانوا يرتدون الكتان والحرير والقطن والأردية الأفريقية والمقاطع التونسية، والمآزر والمرعزي المستخلص من شعر العنز، كما كانوا يلبسون غفائر الصوف حمراء وخضراء، أما الصفر فكانت مخصصة لليهود. والألوان في العصور الوسطى كانت نادرة ومحدودة، لا تكاد تتجاوز اللون الأزرق الذي كان يستخرج من نبات النيلة، والأحمر كان يؤخذ من نبات الفوة أو حشرة القرمز التي كانت تعيش في أشجار البلوط، وكان هذا النوع من الأشجار موجودًا بكثرة في المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط. والمعروف أن اللون الأبيض كان لون الحداد عند الأمويين. أما بنو الأحمر فقد اختاروا اللون الأسود في لباس الحداد، بينما

كانوا يلبسون اللون الأبيض في المناسبات السعيدة. وبخصوص الاستقبال الذي خصه أهل غرناطة للسلطان أبي الحجاج يوسف الأول بوادي آش شمال شرق غرناطة ذكر ابن الخطيب أن الأهالي استقبلوه بملابس بيضاء: واستقبلتنا البلدة - حرسها الله - في تبريز سلب الأعياد احتفالها وخصها حسنها وجمالها، نادى بأهل المدينة موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برباتها، والقلوب بحياتها، والمقاصر بجوارها والمنازل بدورها، فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب، وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم، متلفعات بمروطهن تلفع الأزهار بالكمائم. ولعل اللباس الأبيض الذي تحدث عنه ابن الخطيب يقصد به «الملحفة» التي كانت تستعمل في المغرب كما في إسبانيا، ويعني به الخمار، أو المعطف الذي تحتجب به المرأة خارج البيت. ويذكر المؤرخ دييغور دي طوريس أن اللباس المسمى «الإزار» في المغرب يسمى بالملحفة في الأندلس، والشيء ذاته أكده كذلك مارمول. تميزت نساء غرناطة بالجمال والأناقة، وبهذا الشأن يقول ابن الخطيب في وصفهن: حريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن، وقد بلغن في التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصنفات والتنفيس بالذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحلي. واستعملت النساء الطيوب والمراهم والعطور، والمعروف أن العطور كانت تستخرج من الليمون والأزهار والحشائش، كما كان يستعمل الملح والصابون لتنظيف الأسنان. وكانت بعض هذه العطور تستورد من الخارج: وأصول الطيب خمسة أصناف: المسك والكافور والعود، والعنبر والزعفران، وكلها من أرض الهند، إلا الزعفران والعنبر فموجودان بأرض الأندلس. واستعمل الكحل للعين، ووظفت الحناء في الأظافر، ودرجت بين الرجال والنساء عادة صبغ

الشعر بالحناء، فالقاضي خالد البلادي الذي عاصر ابن الخطيب كان يصبغ لحيته بالحناء والقرطم والمعصفر. وبشأن لباس أهل إسبانيا الإسلامية يقول العمري: وأهل الأندلس لا يتعممون بل يتعهدون شعورهم بالتنظيف والحناء ما لم يغلب الشيب، ويتطيلسون إلا العامة فيلقون الطيلسان على الكتف أو الكتفين مطويًا طيًا ظريفًا، ويلبسون الثياب الرفيعة الملونة من الصوف والكتان، ونحو ذلك وأكثر لباسهم في الشتاء الجوخ وفي الصيف البياض، والمتعمم فيهم قليل. لم يغفل ابن الخطيب في كتابه وصف لباس الرجال من سكان غرناطة، سلاطين كانوا أم علماء أم قضاة أم جنودًا، فذكر أن السلطان الغالب بالله محمد الأول مؤسس الدولة النصرية، دخل غرناطة: وعليه شاية ملف مضلعة، أكتافها ممزقة. ويبدو أن الزي النصري تأثر بالمحيط الذي انتمى إليه. فالشاية هي معطف قصير من الصوف كان يرتديه الرعاة في المناطق الجبلية بقشتالة، وشمال إسبانيا وكانت الأردية متعددة الأشكال والأجناس بحسب تعدد المناطق، يقول ابن الخطيب: وأردية المغرب العربي والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة. وفي مجال الحديث عن ترك مسيحي إسبانيا لبس العمامة، وتأثرهم بزي جيرانهم، نستدل بما جاء على لسان ابن سعيد الذي شهد قيام الدولة النصرية: أما أهل إسبانيا الإسلامية فالغالب عليهم ترك العمامة، لا سيما في شرق الأندلس. وإن أهل غربها تكاد لا ترى فيهم قاضيًا ولا فقيهًا مشارًا إليه إلا وهو بعمامة، فابن هود الذي ملك إسبانيا الإسلامية في عصره لم يلبس عمامة، وكذلك بنو الأحمر كثيرًا ما تزيًا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم؛ إذ حلت القلنسوة مكان العمامة. ففي متحف «جنة العريف» بغرناطة نجد صورة لأبي عبد الله آخر سلاطين بني نصر، يظهر فيها بقلنسوة عالية شبيهة بما كان رائجًا عند القشتاليين.

أما الطيلسان فلا نجد في خواص إسبانيا الإسلامية وأكثر عوامهم من يمشي دونه، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياء. والذؤابة لا يرخيها إلا العالم، ولا يسدلونها بين الأكتاف، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى. وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل إسبانيا الإسلامية، حتى إنهم إذا رأوا على رأس مشرقي قدم إلى بلادهم شكلا منها، أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها؛ لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفضيل الثياب. أما الجبة فقد كانت من لباس الخاصة، لبسها الأغنياء من رجال ونساء. أما العامة فكانت الجبة عندهم من القطن أو الصوف، بينما البُرنس المغربي المصنوع من القماش الفاخر كان على ما يبدو لباس السفر اتخذه مسيحي إسبانيا لهم منذ العهد الأموي، وفيما بعد انتقل إلى المناطق النصرانية، فلبسه الرجال والنساء مدة طويلة، وأخذوا يرتدونه في أوقات الشتاء. وفيما يخص غطاء القدم نشير إلى أن الرجال والنساء في هذه الفترة كانوا ينتعلون أخفافًا سوداء، طرفها الأمامي مستطيل ومعقوف، أما داخل البيت فقد انتعلوا الصندل الجلدي، والقبقاب الخشبي وتذكر بعض الوثائق أن السيدات بغرناطة كن يرتدين في أرجلهن خفًا غليظًا من الجلد يلبس فوق خف أدق يدعى الموق. وقوي اهتمام مسيحي إسبانيا بالجواهر والحلي أيام بني نصر، وأشار ابن الخطيب إلى أن يوسف الأول كانت لديه مجموعة من الجواهر الثمينة[1].

الأطعمة والأشربة:

تميزت أراضي غرناطة بخصبها وكثرة مياهها، فعلى حد قول ابن الخطيب: «لا تعدم بها زريعة ولا رعيًا طوال العام، فقد خصها الله بجريان

(1) د. أحمد ثاني الديسري، ص 141.

الأنهار ودرور الماء، والتفاف الأشجار، والأدواح وتعددت الجنات والبساتين، وتركب ما ارتفع منها من جهاتها الثلاث الكروم البديعة طوقًا مرموقًا وكان القمح الغذاء الرئيسي في غرناطة، أما الفقراء وأهل البادية فكانت الذرة أساس قوتهم خاصة في فصل الشتاء، «وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادي، والفعلة في الفلاحة الذرة العربية». أما الأرز فقد كان أهل إسبانيا الإسلامية يفصلونه مطهواً باللبن. وكانت الفواكه الطيبة متوافرة في بلاد إسبانيا الإسلامية، حيث تغص بها دكاكينها كالعنب والتين والتفاح والخوخ والقراصيا البعلبكية التي تشبه طعم العسل وقصب السكر ثم غابات الزيتون التي كانت تمتد على مد البصر. وقد كان أهل غرناطة يتناولون الفاكهة والخضراوات بكميات كثيرة. وتذكر بعض المصادر أن أثمانها كانت رخيصة فيها. أما الفواكه الجافة فكانت متوافرة طيلة العام، فهم يسخرون العنب سليمًا من الفساد إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينفد ولا ينقطع، إلا في الفصل الذي يزهد فيه استعماله. ولتعدد هذه الخيرات الزراعية. فقد اشتهر مطبخ إسبانيا الإسلامية بأصناف متنوعة من المأكولات التي تشهد على الحضارة الغنية التي عرفتها شبه الجزيرة الأيبيرية في عهد المسلمين الذين برعوا في فنون الطبخ، إذ تميزت مائدتهم بالتنوع بمختلف المأكولات والمشروبات ومن أشهر المأكولات عندهم المركاس والقلايا ذات الأصل الفارسي، ثم اللحم المسلوق أو المدقوق، والقديد وغيرها، كما تنوعت أطعمتهم من السمك خاصة نوع الأصداف والسردين والشابل. واشتهر أهل إسبانيا الإسلامية بصنع المجبنات أيضًا.

كما اشتهروا بصنع الإسفنج خاصة في أسابيع المواليد، ثم الثريد، والرغائف والتردة. واتخذوا من الحبوب أكلات تسمى بالهريس، وهو الحب

المطبوخ من البُـرِّ ثم الزرياب هي أكلة منسوبة إلى زرياب المغني، ويقال: إنه أول من اتخذها، وهي الـفول المقلي المثلج والكشكشـار، وهو الخبز الأسـمر غير النقي أصله فارسي والخبز المحمص إضـافة إلى مأكولات أخرى كالزلابية والكعك والمثومـات. والبسطيلة والكسبـاج، والزبزين، وغيرها من الأطعـمة الأخرى المشـهورة في إسبانيـا الإسلامية، والتي لا تزال رائجـة إلى اليوم في بلاد الغرب الإسلامي. وكان بهذه المنطقة كثير من النباتات والأفاويه التي كان مسيحي إسبانيا يستخدمونها في تحضير وتعطير مختلف الأطعمة، مثل الفلفل والكزبرة الخـضـراء والكزبرة اليابـسة والنعنـاع والقرنفل، والقـرفـة والكرويا والزنجبيل والسمـسم والينسون والزعتر والجلجلان والزعـفران والثوم والكمون والمقدونس. أما عن المشروبات فكان أهل غرناطة يتناولون اللبن والماء المعطر، وخلاصة زهر الورد، أو البـرتقال، وشراب السفرجل والتفـاح والتمر الهندي والجزر وغيـرها من المشروبات. إن موقع غرناطة بين دول مسـيحية كقشتالة وأراغون والبرتغال، جـعلها باستمرار في حالة حرب أو استعداد للحرب مع تلك الدول، لكن رغم هذه الحياة القاسية فقـد كان أهلها يخفون وراءها حياة أخرى تتسم بطابع المرح والبهجة وحب الحياة. تجلى ذلك واضحًا في أعيادهم التي كانوا يحـتفلون بها في مـناسبات عديـدة. كان الشعب الغـرناطي يعشق الحيـاة ومباهـجها، وكـانت الحياة لديه سلـسلة من الأعياد المتـصلة التي يتم الاحتفال بها بطرق شـتى، تتخذ أحيانًا شكل مهرجانات شعبـية، يستمتع في أثنائها الحاضرون بألعاب الفروسية ومصـارعة الثيران وحفلات الصيد، إضافة إلى ليالي الغناء والرقص والموسيقا، والاستمتاع بالطبيعة.

الخروج إلى المتنزهات:

كان الخروج إلى الحدائق والمتنزهات عند أهل غرناطة مظهرًا من مظاهر الاحتفال بالأعيـاد، ووسيلة من وسائل التسلية، للتمتع بالطبـيعة الخلابة التي

تشرف على المدينة بمروجها الخضراء، وأغصان أشجارها الملتفة، ومياه أنهارها المتدفقة. وكان في غرناطة عدد من المتنزهات من بينها موقع جميل يقال له: «عين الدمع» Ainadamar المطل على سفح جبل الفخار الذي يتمتع باعتدال هوائه، وخضرة بساتينه وعذوبة مياهه، حتى غدا هدفًا للنزهة الشائقة أيام الربيع وليالي الصيف. وقد تغنى به عدد من الكتاب والشعراء كالشيخ أبي البركات. وظل هذا المتنزه بعد سقوط غرناطة أيام الموريسكيين يحتفظ بجماله وخضرته، ولم يبق الآن من بسائطه الخضراء اليانعة إلا القليل تتخللها الرقاع الجرداء. وكان هناك متنزه آخر بنهر شنيل، وقد ولع أهل غرناطة بالجلوس على ضفافه، يقصدونه في فترات أنس وسمر أيام الربيع والصيف تغنى به الشعراء، وغالوا في مدحه ووصفه. ولا يزال هذا المكان حتى الآن يعد من أخصب المناطق بإسبانيا الإسلامية. ومن متنزهات غرناطة المشهورة أيضًا حور مؤمل الذي كان من أجمل متنزهاتها وأظرفها. وقد أكثر الشعراء من ذكره، منهم أبو جعفر بن أبي مروان بن سعيد الذي قال فيه:

عرّجْ على الحور وخيّمْ به   حيث الأماني ضافيات الجناح

وهناك متنزه نجد المطل على بسيط غرناطة ومتنزه السبيكة الموجود خارج المدينة. ومن المتنزهات كذلك عين القبلة والمشايخ، واللشتة، والزاوية.

كانت ألعاب الفروسية تقام في مناسبات مختلفة، يتمتع فيها الحاضرون بمشاهد صراع الحيوانات بعضها مع بعض، أو صراعها مع الإنسان، وتنظم عادة في ساحات فسيحة، كساحة باب الرملة التي تسمى بالإسبانية "Plaza Bibramla"، وتعد من أعظم ميادين غرناطة، تعقد بها الحفلات القومية خاصة حفلات الفروسية. ثم ميدان النصر المسمى بالإسبانية "Paseo de Tri-unfo"، وميدان الأجباب "Plaza de Aljibes"، وقد ذكرهما عنان دون أن

يشير إليهما بشيء، وميدان التوابين الموجود داخل الحمراء، والذي يذكر في بعض المصادر باسم ميدان الطوابين. وذكر ابن الخطيب أنه في الساحة كانت تقام دائرة خشبية تدعى الطبلة "Tabla" يقوم الفرسان في وسطها بقذف الوحوش برماحهم أثناء ركضهم بخيولهم. كانت تنظم في غرناطة حفلات المبارزة الفردية أو الجماعة، يستمتع خلالها الناظر بمشاهدة حركات بطولية لبعض الفرسان فيما بينهم، كما لو كانت حربًا حقيقية، قد يصاب فيها بعض المشاركين بجروح. وفي هذه الميادين أيضًا كان استعراض قوات الجيش والفرسان أمام السلطان وضيوفه، سواء كانوا من دول إسلامية أو مسيحية. وقد ورد في بعض المصادر حادثة السيل التي وقعت في أحد ميادين غرناطة أثناء استعراض الجيوش في عهد السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري. (868 هـ/ 1643 م - 887 هـ/ 1472 م) فبينما كان الناس في هذا الاحتفال بمنطقة السبيكة جاء مطر عظيم، اجتاحت فيه سيول وادي حدره المنطقة، وعاين الناس في هذا الاحتفال الهلاك المبين. وذكر المقري هذا الحادث بقوله: «وهو يوم ختام العرض وكان معظم المتنزهين والمتفرجين بالسبيكة، وما قارب ذلك، فبعث الله سيلا عارمًا على وادي حدره، بحجارة وماء غزير كأفواه القرب واحتمل الوادي على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعامل وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق، وبلغ تيار السيل رحبه الجامع الأعظم.

اختلفت آراء بعض المؤرخين حول أصل هذه اللعبة وظهورها بإسبانيا، فقد رأى بعضهم أنها من أصل روماني، وبعضهم الآخر نسبها إلى أصل قرطاجي، بل منهم من قال إنها دخلت إسبانيا على يد العرب، وأجمع بعضهم أن صراع الثيران ظهر بهذا البلد في القرن التاسع الميلادي، ويدخل ضمن أنواع الفروسية، التي تظهر فيها بطولة وقوة المصارع بإسبانيا وابن الخطيب الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي ذكر أن هذا النوع من

المصارعة كان في غرناطة عاصمة بني الأحمر وكانت في عهده تقام بطريقتين: الأولى يتم فيها الصراع بين الثور والأسد، وقد حضر ابن الخطيب هذا الصراع الذي انتهى بانتصار الثور وبإصابة الأسد بجروح، بعدها ظهرت جماعة من الرجال مسلحين، أخذوا يناوشون الأسد المجروح، إلى أن تم قتله في النهاية بعد أن افترس بعضهم، أما الثانية فتتم بين الثور والإنسان: في البداية يطلق الثور ويطلق خلفه كلاب «اللان» المتوحشة التي تأخذ في نهش جسمه وأذنيه. وتسليط الكلاب عادة جارية في هذا النوع من الصراع إذ هي عملية تمهيدية، بعدها يأتي الفارس ليجد قوة الثور قد انهارت، فيتقدم لمصارعته والقضاء عليه أمام الحاضرين في الاحتفال. أما في حالة انتصار الثور، فيهرع بعض المتفرجين إلى مكان الصراع بخناجرهم يقضون عليه ويقع صريعًا. وقد حضر ابن الخطيب صراعًا بين الثور والأسد، لكن هذه المرة بمدينة فاس عندما كان سفيرًا لدولته بالمغرب، كما حضره أيضًا الأمير أو الوليد إسماعيل بن الأحمر الذي كان لاجئًا، إذ أبعدته أسرته عن الأندلس، فحضره ابن الخطيب بصحبة هذا الأمير وبصحبة السلطان أبي عنان المريني، وانتهى الصراع بانتصار الثور. كان من بين مظاهر الاحتفال بالأعياد في مملكة غرناطة الخروج في رحلات للصيد، فغرناطة محاطة بجبال تغطيها غابات كثيفة خاصة التل الواقع على حافة وادي حدره، الذي كان مرتعًا للحيوانات البرية ومنبتًا لأنواع الأشجار والزهور، ومنبعًا لجداول المياه المنحدرة من أعالي الجبال. كان السلاطين يخرجون إلى هذه الغابة مع حاشيتهم قصد الاصطياد خاصة نوع «الأيل» الذي كان موجودًا بكثرة في ذلك المكان. وسجل ابن الخطيب أن سلطان غرناطة أبا سعيد بن محمد بن نصر حينما كان وليًا للعهد خرج يومًا للصيد فقابله خنزير جبلي، فطرح نفسه عليه، فكبا به فرسه واقترب الخنزير منه، فشهر الأمير سيفه وقضى عليه بضربة تحت عينيه أبانت

فكيه، فعلم بذلك والده محمد الثاني (الفقيه) فسر سروراً عظيماً. كما اعتاد أهل غرناطة اصطياد طير «الباز» - وهو نوع من الصقور - أثناء خروجهم للصيد، بل اهتموا بتربيته، وإلى هذا النوع من الطيور يعود اسم أعظم الأحياء بغرناطة المعروف بحي البيازين. كان الخروج للصيد من أجمل وسائل اللهو والتسلية لدى السلاطين. وذكر ابن الخطيب أن السلطان محمداً الرابع كان «أفرس من جال على صهوة، لا تقع العين على أدرى بركض الجياد منه، مغرماً بالصيد، عارفاً بسمات الشفار وشيات الخيل»[1].

الغناء والطرب والموسيقى:

إلى جانب الخروج للمتنزهات والتمتع بمشاهدة ألعاب الفروسية ومصارعة الثيران، كان الغناء والطرب يمثلان عنصراً مهمّاً في الاحتفال بالأعياد في غرناطة، ووسيلة من وسائل المرح والتسلية، فقد أشار ابن الخطيب إلى أن الغناء كان منتشراً بمدينتهم وبدكاكينها. فمن صفات مسلمي إسبانيا شغفهم بسماع الغناء حتى ليفضلون الضروري من العيش مع السماع على العيش المترف مع الحرمان من سماع الغناء. واشتهر في إسبانيا الإسلامية كثيرون ممن امتهنوا صناعة ألحان الغناء والتأليف فيه، كأبي بكر بن باجة الذي ينسب إليه كتاب «الألحان المطربة في الأندلس»، ويحيى المرسي صاحب كتاب «الأغاني في إسبانيا الإسلامية». ولم يخل عصر من عصور إسبانيا الإسلامية من مغنيات أندلسيات وموسيقيات وراقصات؛ إذ كثرت مجالس الغناء في كل مكان، وتعددت مراكزها، فشغف أهل إسبانيا الإسلامية كثيراً بالغناء، ما يدل على رقة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم فبرعوا في العزف على كثير من الآلات الموسيقية كآلة العود والرباب والقانون والدف والطار والقيثارة، إذ تتخلل هذه

---

(1) د. أحمد ثاني الديسري - نفس المرجع ص 152.

الأنغام الآليـة ألحان وأصوات جـميلة ورقـصات يتلوى فيـها البطن، وتهـتز الأرداف وتميل الأعناق وفي المـقـدمـة لابن خلدون أسـمـاء لبـعض الآلات الموسيقية في هذه الفـترة، ويصفها لنا بقوله: منها ما يسـمونه «الشبابة» وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معـدودة ينفخ فيها فتصوت فيخرج الصوت من جوفها في سداده مـن تلك الأبخاش. ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جـميعًا على تلك الأبخـاش وضعًا مـتعارفًا، حـتى تحدث النسب بين الأصوات فيه. ثم هناك البوق، وهو آلة من نحاس أجوف في مقدار الذراع، يتسع إلى أن يكون انفراج مخـرجه في مقدار دور الكف في شكل بري القلم وينفخ فيـه بقصبـة صغيـرة تؤدي الريح من الفم إليه فـيخرج الصـوت ثخينًا مدويًا. وكذلك الآلات الوترية وهي كلها جوفاء إما على شكل الكرة كالبربط أو الرباب أو على شكل مربع كالقانون. وكانت الفرقـة الموسيقية عادة تتكون من المغني تصحبه فرقة فيها عوّاد أو زامر وطبلة صغيرة وصاجات يأخذ المغني في الغناء ويردد بعده الحـاضرون. وهذه الحفلة الموسيـقية كانت تسـمى زمرة "Zambra"، تقام عـادة في الأعياد في حمى الحـريم. شاع الغناء في إسبـانيا الإسلاميـة على يد المغني «زرياب» الذي أتى من المشرق في عهد الأميـر عبد الرحمن الأوسط، وعلى يده وضعت الأسس الأولى للموسـيقا وتناقلها بعده تلاميذه الذين سلكوا سبيله. ونبغ من تلاميذه أبناؤه الثمانية الذكور وبنتاه علية وحمـدونة، وكلهم مارسـوا الغناء. واستمـر أهل إسبانيـا الإسلامـية يغنون القصائد الشـعرية حتى ظهرت الموشحـات الإسبانية الإسلاميـة التي أصبحت تغنىٰ مصحـوبة بنغمات موسـيقية. كان الأمـراء الأمويون كغيرهم مـشغوفين بالموسيقا والطرب خاصة على عهد الحكم الثاني الذي جمع في عهده ما يزيد على الأربعمائة ألف مجلد من مخـتلف العلوم والفنون، إلا أن كتب الموسيقا حظيت بالنصيب الأكبـر. وقد نبغ أهل إسبانيا الإسلامـية في الغناء والتآليف

الموسيقيـة، وابتكروا الجديد منها وفي آلاتها التي ابتدعوا فيـها أصول وقواعد جديدة، فخلقوا النوبـة الإسبانية الإسلامية والعـزف الجماعي وهما أهم أنواع الموسيقا في إسبانيا الإسلامية، كما ألفوا النوبة في بداية الأمر من أربع قطع، تتمـيز الواحـدة عن الأخرى باسم خـاص، ثم زادوها بعد ذلك إلـى خمس قطع، كما ابتدعـوا الزجل والموشحات اللذين ستتعرض إليـهما أثناء الحديث عن الحـركة الأدبيـة. وقد انتـقل هذا النوع من الفنون الذي كان سـائدًا بلاد الأندلس إلى البلاد العربية في الشرق وبلاد المغـرب ومصر، وبذل المهتمون به كل جهـودهم للحفاظ على مـقوماته، واسـتمر في رقيـه حتى قرب سـقوط إسبانيا الإسلامية، كما كان له بالغ الأثر في تطور الموسيقا الإسبانية، إذ أبدى النصارى ارتياحهم للموسيقا الإسبـانية الإسلامية، وزاد شغفهم في كل أنحاء الجـزيرة؛ فلـمع عـدد من أهل الغنـاء والرقص والطرب في قـصـــور الملوك بكاستيل بعد سقوط غرناطة، حيث كان يعمل بعضهم على تسلية أبناء إسبانيا والبرتغال. مـثال ذلك الملك بيدرو الرابع Pedro IV ملك أراغون الذي طلب عام 1337 م عازف الربابة من شاطبه، والملك دون خايمي الثاني Don Jaime II بعث عام 1389 م إلى بلنسـيـة في طلب أسرة مـسلمـة اشتـهـرت بالغناء، فاصطحب رئيسها المدعو Mazot زوجته وأمه وبعض المنشدات، وبعد تسليتهم للملك عـدة أيام دفع إليهم مـبلغًا عظيـمًا من المال وإذا كـان الطرب والغناء والرقص وسيلة من وسـائل الاحتفـالات بالأعياد بغـرناطة، فقد كـان شرب الخمر في هذا الجو المرح الصاخب وسيلـة من وسائل المشاركة في هذه الأعياد أيضًا. وقـد أشارت كـثير من المصـادر إلى انتشـار آفة بغرناطـة وهي تعاطي الحشيش الذي بدأ انتشاره في المشرق، ثم انتقل بعد ذلك إلى المغرب. وتشير النصوص والأشعار إلى انـتشار هذه الظاهرة في غرناطة، وغالبيـتها تعود إلى القرن الثامن الهجري مما يدل على انتشارها في هذه الفترة. ولاشك أن انتشار

هذه الآفة راجع إلى الاضطراب والخمول اللذين كانت تعانيهما غرناطة في ذلك العهد وقد ندَّد العديد من المفكرين والقضاة بانتشار هذه الآفة في المجتمع الغرناطي.

الأعياد الدينية والاحتفالات العامة:

كانت الأعياد بمملكة غرناطة متعددة ومتنوعة، وكان احتفال الغرناطيين بها عظيمًا لكن في حدود الاعتدال كعيدي الفطر والأضحى وعيد المولد النبوي الشريف، وموسم عاشوراء، إضافة إلى عيد العصير والأعياد التي كانت تقام بمناسبة الانتصارات الحربية، أو بمناسبة إعذار أبناء السلاطين أو زواجهم. وكان أهل غرناطة يشاركون المسيحيين في احتفالهم بعيد السيد المسيح، وعيد العنصرة. أما عيد العصير فكان الاحتفال به في غرناطة في فترة جني محصول العنب وعصره، حيث كان السكان يتوجهون إلى البسائط المختصة في زراعته، فتقام أيام مميزة لجنيه في وجود يسوده المرح والغناء والرقص. ويذكر ابن الخطيب أن هؤلاء كانوا يحملون معهم أسلحتهم لمجاورة أراضيهم بأرض العدو إذ قال: وعادة أهل هذه المدينة الانتقال إلى حلل العصير أوان إدراكه، مما يشتمل عليه بدورهم، والبروز على الفحوص بأولادهم، معولين في ذلك على شهامتهم وأسلحتهم وعلى كتب دورهم، واتصال أمصارهم بحدود أرضه، بينما عيد المولد النبوي كان يحتفل به في الثاني عشر من ربيع الأول. واتخذ الاحتفال بهذا العيد طابعًا رسميًا سواء في المغرب أو إسبانيا الإسلامية خصوصًا منذ القرن الثامن الهجري.

بدأ الاحتفال بهذا العيد في المغرب في أواخر الدولة الموحدية وبداية عهد الدولة المرينية على يد أبي العباس أحمد وابنه أبي القاسم العزفي من خلال كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» الذي ألف حول هذه المناسبة

الدينية، يدعو فيه إلى التمسك بالدين الإسلامي والتعلق بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام، والتراجع عما كان عليه أهل زمانه من مشاركة النصارى أعيادهم وعوائدهم. وكان من الطبيعي، أن تولي الدولة المرينية عيد المولد النبوي اهتمامًا ودعمًا لنفوذها، وخدمة لأيديلوجيتها وهي في بداية عهدها. وكان أول ملك اهتم بهذه المناسبة يعقوب بن عبد الحق المريني أول ملوك بنو مرين، ثم ابنه يوسف من بعده الذي عمم الاحتفال بهذا العيد في كل جهات المغرب. لكن العناية اكتملت بشأنه على عهد أبي الحسن المريني فأصبح يشارك فيه جميع شرائح المجتمع، ويستعد له بتهيئة مختلف أنواع الطعام والحلويات وأصناف الطيب والبخور. وبمدينة فاس كانت تخصص هذه المناسبة لإعذار الأطفال، ودخول الصبيان الكتاتيب القرآنية، التي كانت تضاء أركانها بالشموع، ويتم فيها تجويد القرآن الكريم وإنشاد القصائد الدينية. ومنذئذ انتقلت عادة الاحتفال بعيد المولد إلى بلاطات تونس وقصور غرناطة خاصة على عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الأول إذ أصبح الاحتفال يتخذ طابعًا رسميًا تنظمه الدولة وتشارك فيه حكومتها التي توليه عناية فائقة تليق بمقامه العظيم. وعن اقتداء هذه الدول بالمرينيين يقول ابن مرزوق: هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطة المرينية أن حكاها غيرهم فما أشبه ولا قرب آثار الفقيه العزفي صيدها فصادوه ونبه على الخير فمضوا عليه واعتادوه. وهكذا أصبح ملوك بني نصر يحتفلون بعيد المولد النبوي منذ عهد أبي الحجاج اقتداءً بملوك المغرب إذ أصبحت تقام في المساجد والزوايا وقصر الحمراء ليالي دينية تقام فيها الصلوات وتتلى آيات القرآن الكريم، وتنشد قصائد الشعر النبوية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام تسمى بالعيديات أو «المولديات». امتزج المظهر الديني بمملكة غرناطة بالمظهر الأدبي أثناء الاحتفال بالمولد النبوي إذ كانت تقام في أثنائه مجالس أدبية يحضرها أقطاب

الحركة الفكرية تخليداً لهذه الذكرى العظيمة، فكان الشعراء ينظمون قصائد شعرية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان ملوك بني مرين يخصصون بعض الهدايا والعطايا بهذا الشأن؛ فأبو الحسن المريني كان يخصص مائة ألف دينار للفقهاء والأشراف والطلبة الذين يحضرون الحفل لتخليد هذه الذكرى. أما ملوك غرناطة فقد اهتموا بدورهم بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام خاصة في عهد أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله الذي نظم الشاعر ابن زمرك بين يديه أبياتًا بمناسبة عيد المولد النبوي قال فيها:

وبليلة الميلاد كم من رحمة	نشر الإله بها ومن نعماء
قد بشر الرسل الكرام ببعثه	وتقدم الكهان بالأنباء
أكرم بها بشرى على قدر سرت	في الكون كالأرواح في الأعضاء
أمسى بها الإسلام بشرق نوره	والكفر أصبح فاحم الأرجاء
هو آية الله التي أنوارها	تجلو ظلام الشك أي جلاء

ومن بديع ما نظمه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام قصيدة مطلعها:

يا أكرم الخلق من عرب ومن عجم	وأحسن الناس من حسن وتزيين
إني أتيتك فاقبلني وخذ بيدي	ومن لهيب تعي جرني وسجين
وقد مدحتك فارحمني وجد فعسى	من هول يوم اللقا والحشر تنجيني
وكن شفيعي من النيران يا أملي	لعلي أحظى بأجر غير ممنون

احتفل أهل غرناطة بعيدي الفطر والأضحى أيضًا وعيد عاشوراء الذي يحتفل به في العاشر من شهر محرم. ويفهم من بعض القصائد أن ملوك غرناطة كانوا يقدمون فيه الهدايا لبعض الفقهاء والشعراء. فابن زمرك أنشد

قصيدة يشكر فيها السلطان محمداً الخامس النصري الذي أهداه خلعة بهذه المناسبة فقال:

يا بدر تم في سماء خلافة	حفت نجوم السعد هالة قصره
ألبست عبدك من ثيابك ملبسًا	قد قصرت عنه مدارك شكره

ويتجلى لنا اهتمام ملوك بني الأحمر بالأعياد بوضوح في الأمر الذي أصدره السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بعد موقعة طريف، إذ ذكر في المجال الاجتماعي ارتداء أبهى الملابس والحلل في الأعياد، والاهتمام بالفقراء وإعالتهم، وأكد عدم الإخلال بأمن المملكة أثناء الاحتفال بها، كما أكد كذلك مؤاخذة كل من أخل بهذا القانون. وبهذا تكون الحياة الاجتماعية لأهل غرناطة حياة متناقضة تعكس صوراً متعددة، يعكس بعضها حياة بذل وجد وأخرى حياة مرح ولهو، وغيرها حياة زهد وتصوف. اعتنى مسلمو إسبانيا اعتناءً خاصًا بنظافتهم، وشهد لهم بذلك عدد من المؤرخين، من بينهم المقري الذي ذكرهم في هذا الباب بقوله: وأهل إسبانيا الإسلامية أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده ما يقوت يومه فيطويه صائمًا، ويبتاع صابونًا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها. ومن مظاهر اهتمام مسلمي إسبانيا بنظافتهم وأناقتهم اعتناء أهلهم وملوكهم بإنشاء الحمامات سواء الخاصة أو العامة، والتي كانت تنتشر في أغلب المدن والقرى بإسبانيا الإسلامية، والتي اعتنى بها عناية خاصة من حيث الصيانة والنظافة وتأمين الراحة للمستحمين. وقد أشرنا في المحور الخاص ببناء الحمامات، إلى الشكل الذي اتخذته هذه الأخيرة في بنائها، والتي كانت روعة في الزخرفة والجمال بصهاريجها الملونة، وقببها المضيئة، وروائحها العطرة، ونقوشها الرائعة، تبهر

الناظر بما لا يمكن وصفه. ولعل اهتمام مسلمي إسبانيا بالذهاب إلى الحمامات راجع في المقام الأول إلى أهميتها في حياتهم الاجتماعية؛ فعادة الاستحمام عندهم هي عادة مرتبطة ومتصلة بالإسلام الذي يدعو إلى النظافة والتطهر؛ لذا كانت الحمامات عادة ما تكون بالقرب من المساجد حتى يتيسر للمسلمين التطهر قبل الدخول إلى المسجد للصلاة، إضافة إلى أن الحمام يولد إحساسًا بالراحة، ويحدث لدى المستحم انتعاشًا بدنيًا وروحيًا. إن الحديث عن النظافة والحمامات يحملنا على ذكر ما يتعلق بالصحة العامة في العهد النصري. ولابد من الإشارة في هذا الباب إلى ما حل بالعالم من كوارث، كوباء الطاعون الذي اكتسح الشرق والغرب في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن للهجرة). وإذا كان المؤرخون الأندلسيون اقتصروا في الحديث على الوضع الصحي لمملكة بني نصر، فإنهم لم يغفلوا ذكر الكارثة التي اجتاحت مملكة بني الأحمر والطاعون الأسود الذي ترسخ في أذهان أهلها. والطاعون الكبير، أو الطاعون الأسود كما كان يسميه المؤرخون، انطلق من آسيا الصغرى عام 735 هـ/ 1324 م، ووصل إلى أوروبا فاجتاح مناطق كاملة من فرنسا وإيطاليا وشبه الجزيرة الأيبيرية. وفي عام 749 هـ/ 1348م بدأت البوادر الأولى من هذا الوباء في برشلونة "Barcelona" إذ أودى بحياة العديد من السكان. وفي السنة ذاتها أصاب مدينة ميورقة "Mayorque"، كما ظهر في ألمرية Almeria عام 749 هـ/ 1348 م. وانتقل عام 1349 م إلى مدينة مالقة التي كان يموت فيها كل يوم أكثر من مائة مصاب، ما زرع الرعب في قلوب السكان الذين فروا إلى المناطق البعيدة خوفًا من هذا الوباء. ولقد عدد المؤرخون - سواء العرب أو الإسبان - بعض المدن التي اشتد فيها الوباء أكثر من غيرها كألمرية ومالقة وغرناطة وبلش، وأصاب خاصة الضواحي الفقيرة، حيث كان السكان يعانون نقصًا في التغذية منذ مجاعة 1329 م ولقد أودى

هذا المرض بحياة العديد من سكان غرنـاطة والعديد من رجالاتها البارزين من الخبراء والعـلماء كابن الجياب. وأورد لـنا ابن الخطيب هذه المحنة التي عايش روعها وفتكها بأهل بلده في رسالة عنوانها: «منقد السائل في المرض الهائل». إلى جانب الـطاعون عرف المجـتمع الأندلسي أيام بني نصـر أمراضًـا عديدة كانت على عهـدهم غير قابلة للشـفاء، كمرض الجـذام ومرض البرص الذي كان نادرًا أو محصورًا. وفي عام 1348 م انتشر مرض التهاب الرئة.

ارتاع مسلمي إسبانيا من المرض الذي لا شفاء منه وكان يطلق عليه اسم "Marad" كـمرض الجنون أو الـصرع، وكـان المصـابون بهذا الـداء يتركـون أحرارًا، إلا إذا كان المصاب يشكل خطرًا على المجتمع، إذ يتم جمعهم أحيانًا بأمر المحتسب في دور شبيهة بدور العجزة، ويؤمن لهم الغذاء والراحة، وتقام عليهـم حراسة دائمـة اعتنى سـلاطين الدولة النصرية بالصـحة العـامة لأهل غرناطة، وتطور الطب في عهـدهم، ولا يزال متحف الحمراء يحـتفظ بلوحة حجرية نقش عليها تاريخ إنشاء «المارستـان» الذي بناه محمد الخامس في فترة حكمه الثانية عام 767 هـ/ 1368 م. وقد ورد عن هذا المارستان في كتاب ابن الخطيب «الإحاطة» قـوله: ومن مواقف الصدق والإحـسان من خارق جـهاد النفس، بناء المارسـتان الأعظم حـسنة هذه التـخوم القـصوى، ومـزية المدينة الفـضلى، لم يهتـد إليه غـيره منذ الفـتح الأول مع توفيـر الضرورة وظـهور الحاجة، فـأغرى به همة الدين ونفس التقوى، فـأبرزه موقف الأخذان ورحلة الأندلس وفذلكـة الحسنات، فخـامة بيت، وتعدد مـساكن، ورحب سـاحة، ودرور ميـاه، وصحـة هواء وتعدد خزايـن ومتوضـآت. هذا وقد خـصصت إيرادات لهـذه المؤسسة الخـيرية ذات البناء الجـميل، حـيث يضم مركـز البناء المستطيل في وسطه بحـيرة صغيـرة مزينة بالنوافير. وذكـر المقري أن السلطان النصري أبا الحـسن علي بن سعـد أصيب بمرض شبـيه بالصرع لم ينفع مـعه

علاج تنازل على إثره عن الملك لأخيه أبي عبد الله إذ قال: ولما أمر أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان إسبانيا الإسلامية وذهبوا للسلطان أبي الحسن، وذهبوا به إلى غرناطة وبايعوه، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر. ولما تعذر أمره، قدم أخاه عبد الله المعروف «بالزغل» بالملك بعده وعرفت إسبانيا الإسلامية أمراضًا كثيرةً كالنقرس، والجذام والجدري والعمى والحصبة والبواسير والسل والرمد والظفر. والفدع، والسقوق وأمراض خفيفة كالسعال والفواق وداحس. وأمراض أخرى كان يكتفى بالإشارة إليها باسم داء أو ما شابه ذلك. أما الأدوية فكانت في غالبيتها مستخلصة من الأعشاب والنباتات والحشائش. كالعنصل والقاقلة والوشق والحلتيت والمرقد واللوغاذيا والإيطريفل ومن باب النظافة، إضافة إلى الحمام كان يذهب مسلمو إسبانيا إلى مجمعات الماء الحار التي كانت تعرف بالحامة، وهي نافعة لكثير من الأمراض الجلدية والمفصلية. وهكذا تبين لنا أن غرناطة اشتهرت بأبوابها وأحيائها وأرباضها ومساكنها وقصورها وأسوارها وأبراجها، واتسمت هذه المعالم العمرانية، بجمال الروعة ودقة الفنون؛ فزينت سقوف المساكن والقصور بالقراميد، وشملت ساحاتها أفنية ونافوارت رخامية كما كانت دمشق والقاهرة آنذاك، ورصعت حيطانها بالفسيفساء المتعدد الرسوم والألوان والزخارف الجصية البديعة التي غلب عليها الطابع الشرقي. وكان لجغرافية غرناطة وتضاريسها الأثر البالغ في المعالم العمرانية، إذ أقيمت القناطر على الأنهار، كالقنطرتين اللتين بنيتا على نهري شنيل وحدرة. وبرز الفن المعماري في دور العبادة كالمسجد الجامع الذي يعد من أفخم مساجد المملكة، فضلا عن المساجد الأخرى التي تميزت بمآذنها ومحاريبها ومنابرها وصحونها وغيرها من المرافق الأخرى. ولعل الشاهد الكبير على براعة الفن المعماري الذي شهدته غرناطة قصر الحمراء المعلمة الخالدة التي ألهمت الكتاب

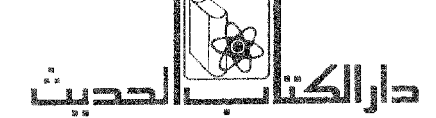
والشعراء والموسيقيين خيالا في إبداعاتهم الفنية؛ وذلك لدقة صنعه وروعة زخارفه ونقوشه. ومن جانب آخر تبين لنا أن أهل غرناطة المسلمين كانوا سنيين على المذهب المالكي الذي كان سائدًا بلاد إسبانيا الإسلامية وكان لعلماء الفقه والقضاء منزلة لدى بني الأحمر الذين حرصوا على تطبيق مبادئ الإسلام والالتزام بها. من جهة أخرى اتضح الاهتمام الذي كان يبديه أهل غرناطة للباسهم الذي تنوع حسب الفصول، فشمل الصوف والكتان والحرير والمرعزي أما لباسهم الأبيض فكان مخصصًا للمناسبات السعيدة والأسود للحداد. وبخصوص أطعمتهم ومشروباتهم فقد اتضح لنا تنوعها وتعددها؛ إذ شملت الثريد والرغائف والفطائر والزلابية والتردة والبسطيلة وغيرها. واستعملوا التوابل بشتى أنواعها وأصنافها. وبرع أهل غرناطة في رياضة الفروسية ومصارعة الثيران وصيد البراري، كما اهتموا براحتهم الجسدية والفكرية بمختلف وسائل التسلية والاستمتاع بجمال الطبيعة في أثناء رحلاتهم وتوجههم إلى المتنزهات. وكان لهم أيضًا شأن في المجال الموسيقي، وتعدد آلاتهم الموسيقية دليل على براعتهم في هذا الميدان. ولم تخل حياتهم الدنيوية من تمسكهم بأعيادهم الدينية وإحيائها في أوقاتها بالاحتفال بها. وتبين لنا أنهم كانوا على قدر كبير من الوعي الصحي والحرص على نظافة أجسامهم ومساكنهم ومدنهم وقراهم، ووقاية أنفسهم من الأمراض الخطرة كالطاعون والجرب وغيرها من الأمراض المعدية[1].

---

(1) د. أحمد ثاني الديسري – نفس المرجع ص 168.

الفهرس

الموضوع	الصفحة


دار الكتاب الحديث

دار الكتاب الحديث

المجتمع في إسبانيا الإسلامية - العرب - العرب العاربة - البربر - الأمازيغ - الموالى - الإسبان - المولدين - اليهود - الصقالبة - النورمان (الفايكنج) - انتشار الإسلام وجماعات غير المسلمين - الأقلية المسيحية في إسبانيا الإسلامية - اعتناق سكان إسبانيا الإسلام - العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة - الحياة الاجتماعية للطبقات العامة - انتشار اللغة العربية بين الإسبان - الحروب وتأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية - البناء الطبقى - الأسرة والمرأة في المجتمع الإسباني الإسلامي - مظاهر الحياة الاجتماعية - المجتمع الإسلامي في إشبيلية - العمارة - مجتمع غرناطة - الأعياد الدينية والاحتفالات العامة.

البروفيسور الدكتور
محمد حسن العيدروس

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971.
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقـات الثقافـية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحـدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكـويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربـ[illegible] 2002 - 2006: الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري، ثم رئيس مؤسسة اسكـاندا[illegible] والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليـ[illegible] الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتـ[illegible]
- صدر له أكثر من اثنى عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسـ[illegible]
- نائب رئيس جمعية الناشرين الإماراتيين.



العصر الأندلسي

تاريخ العرب في بلاد الأندلس

دراسة في الحياة الاجتماعية لإسبانيا الإسلامية